إدواردو كاليانو

ذاكرة النار

III

قرن الريح



ترجمة: أسامة اسبر

ذاكرة النار



ادواردو كاليانو

ذاكرة النار

III

قرن الريح

ترجمة: أسامة اسبر

العنوان الأصلي للكتاب: Memory Of Fire
«Faces And Masks»
اســـــم المؤلـــف: Edwardo Galeano

الطبعة الأولى ــ 2001

دار الطليعة الجديدة

سوريا ــ دمشق ــ ص.ب 34494
تلفاكس: 2775872

إخراج: هالـة فطـوم

صمم الغلاف: جمال سعيد

الكتاب

هذا الكتاب هو الجزء الثالث من ثلاثية ذاكرة النار للكاتب الأميركي اللاتيني ادواردو كاليانو، وهو عمل إبداعي مبني على توثيق دقيق لكنه يتحرك بحرية كاملة. لا يعرف المؤلف إلى أي شكل أدبي ينتمي الكتاب: إلى السرد، المقالة، القصيدة الملحمية، التأريخ، الشهادة... ربما ينتمي إلى جميع هذه الأشكال أو لا ينتمي إلى أي منها. يروي المؤلف الوقائع التي صنعت القرن العشرين ويكشف معنى العالم الجديد كما كان والعالم كما هو الآن. يروي المؤلف ما حدث، تاريخ أميركا، وقبل كل شيء، تاريخ أميركا اللاتينية، وحاول أن يفعل ذلك بطريقة تجعل القارئ يشعر أن ما حدث يحدث مرة أخرى حين يرويه.

ولد ادواردو كاليانو في مونتفيديو، الأرغواي، في 1940. دخل عالم الصحافة كرسام كاريكاتور لمجلة إل سول. فيما بعد أصبح محرراً للأسبوعية مارشا، وحرّر صحيفة إيبوكا. في 1973 نُفيَ إلى الأرجنتين، حيث أسس وحرّر مجلة الأزمة. من بين أعماله: العروق المفتوحة لأميركا اللاتينية، أيام وليالي الحب والحرب، أغنية أنفسنا، كتاب المعانقات، كرة القدم في الشمس والظل، الكلمات المتجولة وثلاثية ذاكرة النار وكتاب قرن الريح هو الجزء الثالث من ثلاثية ذاكرة النار.



«وكنا ننزع أنفسنا من الريح بأظافرنا»

خوان رولفو



1900: سان خوسيه دي غارسيا

العالم يستمر

كان هناك بعض الذين أنفقوا مدّخرات أجيال عديدة في حفلة صاخبة أخيرة. لعن كثيرون أولئك الذين لم يقدروا أن يلعنوهم، وقبلوا الذين كان ينبغي ألا يقبّلوهم. لم يرغب أحد أن ينتهي دون اعتراف، وفضّل الكاهن الحوامل والأمهات الجديدات. أمضى هذا المتدين الناكر لذاته ثلاث ليال في حجرة الاعتراف قبل أن يُغمى عليه من عسر هضم الذنوب.

حين جاء منتصف الليل في اليوم الأخير من القرن، استعدَّ جميع سكان سان خوسيه دي غارسيا ليموتوا نظيفين. تجمَّعَ غضبُ الله منذ خلق العالم واعتقد الجميع أن الوقت حان من أجل الانطفاء الأخير. أصغى البشر، حابسي الأنفاس، مصطكي الأسنان، ومغمضي الأعين، إلى دقات ساعة الكنيسة الاثنتي عشرة، واحدة بعد أخرى، مقتنعين جداً أنه لن يكون هناك مستقبل.

لكن، كان هناك مستقبل. فالقرن العشرون يقترب ويتقدم وكأن شيئاً لم يحدث. استمر سكان سان خوسيه دي غارسيا في المنازل نفسها، عاشوا وبقوا على قيد الحياة بين جبال المكسيك الوسطى، هذا ما سبّب دهشة للمؤمنين الذين كانوا يتوقعون حلاً، وراحة للمذنبين الذين وجدوا أن هذه القرية الصغيرة ليست سيئة إذا ما قارنها المرء بغيرها.

1900: ويست أورنج، نيو جيرزي

إديسون

قدمت اختراعاته الضوء والموسيقى للقرن الجديد. حملت الحياة اليومية ختم توماس آلفا إديسون الذي أضاء مصباحه الكهربائي الليالي، وحفظ فونوغرافه، ووزع أصوات العالم التي لن تضيع بعد الآن. وبفضل الميكروفون، الذي أضافه إلى اختراع بيل، أصبح البشر يتحدثون بوساطة الهاتف. وتحركت الصور بفضل جهاز عرض الصور الذي أكمل به عمل الأخوين لوميير.

كانوا يمسكون رؤوسهم في دائرة تسجيل الاختراعات حين يشاهدونه يدخل. هذا الذي قدم الكثير للطاقات البشرية، لم يتوقف دقيقة واحدة عن الاختراع دقيقة واحدة. كان مبدعاً لا يتعب منذ ذلك الزمن البعيد حين كان يبيع الصحف في القطارات وقرر في أحد الأيام الرائعة أنه يستطيع أن يصنعها ويبيعها في الوقت نفسه، ثم تفرغ لتلك المهمة.

1900: مونتيفيديو

رودو

قدم السيّدُ، التمثالُ الناطق، موعظته إلى شبان أميركا. دافعَ خوسيه إنريك رودو أرييل السماوي، عن الروح النقية وانتقد كاليبان المتوحش، الوحش الذي يريد شيئاً يأكله. القرن الذي يولد هو زمن أي شخص. كان البشر يريدون الديموقراطية والاتحادات التجارية وكان رودو يحذّر من أن الحشد البربري يستطيع أن يتسلق مرتفعات مملكة الروح حيث تعيش الكائنات المتفوقة. كان المفكر الذي اختارته الآلهة، الرجل الخالد العظيم، يقاتل دفاعاً عن الملكية الخاصة في الثقافة.

هاجم رودو أيضاً الحضارة الأميركية الشمالية المتأصلة في السوقية والمذهب النفعي وقارنها مع التراث الأرستقراطي الإسباني الذي يحتقر الحس العملي، العمل اليدوي، التكنولوجيا، وبراعات أخرى.

1900: نيويورك

هذه هي أميركا، وفي الجنوب ليس هناك شيء

باع أندرو كارنيجي بـ 250 مليون دولار احتكار الفولاذ إلى المصرفي جون بييربونت مرجان، صاحب جنرال الكتريك، الذي أسس، بناء على ذلك، شركة الفولاذ الأميركية. تدفقت شلالات الاستهلاك ودوارُ النقد من قمم ناطحات السحاب: تنتمي الولايات المتحدة إلى الاحتكارات وتنتمي الاحتكارات إلى حفنة من الرجال، لكن العمال الذين يتدفقون إلى هنا من أوروبا عاماً بعد آخر، الذين تغريهم صافرات المعامل وينامون على سطح السفن، يحلمون أن يصبحوا من أصحاب الملايين حالما يقفزون على أرصفة ميناء نيويورك. إن ألدورادو، في الحقبة الصناعية، هي الولايات المتحدة، والولايات المتحدة هي أميركا.

أما في الجنوب فإن أميركا الأخرى لم تنجح بعد في أن تغمغم اسمها.

قال تقرير منشور حديثاً إن جميع بلدان هذه الأميركا المجاورة وقّعت اتفاقيات تجارية مع الولايات المتحدة وإنكلترا وفرنسا وألمانيا، لكن، لم توقع أي منها أية اتفاقية مع أي من جيرانها.

إن أميركا اللاتينية أرخبيل من البلدان المعتوهة، مصنوعة من أجل الانفصال، ومدربة لتكره بعضها.

1901: في جميع أنحاء أميركا اللاتينية

مواكب تحيي ولادة القرن

في القرى والمدن الواقعة إلى الجنوب من ريو غراندي، كان يسوع المسيح يسير إلى المقابر وحشاً محتضراً ملطخاً بالدم وخلفه يتقدم الحشد حاملاً المشاعل ومنشداً الأغنيات. كان البشر ممزقي الثياب، مسحوقين، ومصابين بألف من الأمراض التي لا يقدر على معالجتها طبيب أو مؤمن لكنهم كانوا يستحقون مصيراً لا يقدر أن يتنبأ به نبي أو بصار.

1901: أميين Amiens

فيرن

قرأ ألبيرتو سانتوس ديمون منذ عشرين عاماً جول فيرن. بعد أن قرأه، هرب من منزله، من البرازيل، ومن العالم، إلى أن قرر، وهو يبحر في السماء من غيمة إلى أخرى، أن يعيش في الجو تماماً. والآن يتحدى سانتوس ديمون الريح وقانون الجاذبية، ذلك أن رائد الفضاء البرازيلي اخترع منطاداً ذا محرك وقابلاً للتوجيه ويتحكم بمساره، لا ينجرف، ولا يضيع في أعالي البحار أو فوق السهل الروسي، أو في القطب الشمالي. بعد أن تزوّد بمحرك ودافع وموجّه، صعد سانتوس إلى السماء ودار دورة كاملة حول برج إيفل وهبط في البقعة التي أعلن عنها مستهزئاً بالريح أمام تصفيق الحشد. ثم سافر إلى أميين ليصافح الرجل الذي علمه الطيران.

جالساً على كرسي هزاز، كان جول فيرن يملّس لحيته الشائبة. كان متيّماً بذلك الطفل الذي كان متنكراً بشكل سيئ مثل سيد يدعوه يا قبطاني وينظر إليه دون أن تطرف عيناه.

1902: كيتثالتينانغو Quetzaltenango

الحكومة تقرر أن الواقع غير موجود

انفجرت الطبول والأبواق في ساحة كيتثالتينانغو الرئيسية مستدعية المواطنين لكن، كل ما كان المرء يسمعه هو الرعد المرعب لبركان سانتا ماريا في انفجاره الكامل. قرأ منادي البلدة بأعلى صوته تصريح الحكومة ذات السيادة. دمرت سيول الحمم والطين ومطر الرماد، الذي لا ينقطع، أكثر من مائة بلدة في هذا الجزء من غواتيمالا بينما كان منادي البلدة يؤدي واجبه وهو يحمي نفسه قدر استطاعته.

هزَّ بركان سانتا ماريا الأرض تحت قدميه وقصف رأسه بالأحجار. ظهراً، خيّمتْ ظلمةٌ كليـةٌ. وفي ذلك السواد لم يكن يرى سوى التقيؤ الناري للبركان. كان منادي البلدة يصرخ يائساً وهو يقـرأ البلاغ في ضوء مصباحه المرتجف.

أفْهَمَ البلاغ الذي وقعه الرئيس مانويل استرادا كابريرا السكان أن بركان سانتا ماريا هادئ وأن جميع براكين غواتيمالا خامدة وأن الزلزال حدث بعيداً عن هنا في جزء ما من المكسـيك، وبمـا أن الموقف طبيعي لا يوجد مانع للاحتفال بعيد الإلاهة منيرفا الذي سيحصل، اليوم، في العاصمة رغم الإشاعات الكريهة التي ينشرها أعداء النظام.

1902: غواتيمالا سيتي

استرادا كابريرا

مارس مانويل استرادا، في مدينة كيتثالتينانغو، طيلة سنوات عديدة، *الكهانة المهيبـة للقـانون في المعبد الملكي للعدالة على صخرة العدالة التي لا تتزحزح*. حين بدأ يعري الإقليم، جاء الطبيـب إلى العاصمة، حيث أوصل مهنته السياسية إلى ذروة سعيدة بعد أن أشهر مسدســه وانقـضّ علـى رئاسة غواتيمالا. مذاك، أعاد تأسيس استخدام أدوات التعذيب والسياط والمشانق في جميع أنحــاء البلاد. وأصبح الهنود يقطفون بنّ المستعمرات الزراعية مجاناً ويشيّد البنــاؤون السـجون والثكنـات دون مقابل.

كان الرئيس استرادا كابريرا يضع كل يوم، في احتفال مهيب، حجر الزاوية لمدرسة جديدة لا تُبنى مطلقاً. منح نفسـه لقـبَ مربّـي الشـعوب وحـامي الشـباب المجتـهد. وتمجيـداً لنفسـه كـان يحتفل، كل عام، بالعيد الكبير للإلاهة منيرفا. وفي هيكل البارثينون[1] الذي هو نسخة كاملة عن الأصل اليوناني، كان الشعراء ينقرون أوتار قيثاراتهم وهم يعلنون أن غواتيمالا سيتي، أثينا العــالم الجديد، تمتلك بيريكليساً[2].

1902: سينت بيير

أنقذ المحكوم فقط

انفجر بركان أيضاً في جزيرة المارتينيك. سـعل الجبـل بيليـو كأنـه يشـق العـالم إلـى نصفـين. سحابة حمراء ضخمة غطت السماء وسـقطت متوهجـة علـى الأرض. في رفـة جفـن دمـرت مدينـة سينت بيير واختفى سكانها الأربعة وثلاثون ألفاً باستثناء واحد.

---

[1] – هيكل الإلاهة أثينا في مدينة أثينا.

[2] – بيركليس: سياسي أثيني بلغت أثينا في عهده أوج ازدهارها السياسي والثقافي.

كان الناجي هو لودجر سيلباريس، السجين الوحيد في المدينة، ذلك أن جدران السجن كانت مصممة ضد الهرب.

1903: بنما سيتي

قناة بنما

أصبح الممر بين المحيطات هوساً للفاتحين. بحثوا عنه بنشاط وأخيراً عثروا عليه، بعيداً إلى الجنوب، قرب تييرا ديل فويغو الباردة والبعيدة. لكن حين اقترح شخص ما فتح الخصر الضيق لأميركا الوسطى، منعَ الملك فيليب الثاني فتح قناة مهدداً بعقوبة الموت، لأن:

ما ضمّه الله يجب ألا يمزقه الإنسان.

بعد ثلاثة قرون اهتمت فرنسا بالموضوع وبدأت شركة القناة العالمية العابرة للمحيط عملها في بنما لكنها أفلستْ بعد ثلاثة وثلاثين كيلومتراً.

قررت الولايات المتحدة أن تكمل القناة، وعلقت الأمر أيضاً. حدث توقف مفاجئ لأن كولومبيا لم توافق، ذلك أن بنما منطقة تابعة لها. نصح السيناتور حنا في واشنطن بالانتظار: *نظراً لطبيعة الوحش الذي نتعامل معه*. لكن الرئيس تيدي روزفلت لا يؤمن بالصبر. أرسل المارينز، وهكذا، وبفضل الولايات المتحدة وسفنها الحربية، أصبحت بنما دولة مستقلة.

1903: بنما سيتي

إصابات هذه الحرب:
صيني واحد وحمار واحد

سقطا ضحيتين للمدافع المنصوبة على جوانب السفن الكولومبية. ولم تكن ثمة مصائب أخرى يشكى منها. كان إمانويل أمادور، رئيس بنما الجديد تماماً، يجلس بين الرايات الأميركية على كرسي بذراعين، ويحمله الحشد على منصة، وبينما كان يمر، هتف أمادور لزميله روزفلت: يعيش، يعيش!

بعد أسبوعين، وُقّعت في واشنطن، وفي غرفة البيت الأبيض الزرقاء، اتفاقية منحت الولايات المتحدة، إلى الأبد، القناة نصف المنتهية وأكثر من ألف وأربعمائة كيلومتر مربع من الأرض البنمية. كان يمثل الجمهورية الحديثة الولادة فيليب بيناو باريّا، الساحر التجاري والبهلوان السياسي، والمواطن الفرنسي.

1903: لا باث

هيلكا

ربح الليبراليون البوليفيون الحرب ضد المحافظين. أو بالأحرى ربحها لهم جيش بابلو ثاراتي هيلكا الهندي. كانت الأعمال العظيمة التي زعمَ الجنرالات ذوو الشوارب القيام بها قد أنجزت على يد الهنود.

وعد الكولونيل خُوسي مانويل باندو، قائد الليبراليين، أن يحرر جنود هيلكا من القنانة ويستعيد أراضيهم. من معركة إلى أخرى، وبينما كان يمر في القرى، أعاد هيلكا الأراضي المسروقة إلى الجماعات وذبح كل من كان يرتدي بنطلوناً.

بعد أن هزم المحافظين، عين الكولونيل باندو نفسه جنرالاً ورئيساً وبعد أن وضع النقاط على جميع الحروف أعلن:

الهنود كائنات أدنى وإبادتهم ليست جريمة. ثم نفذ ذلك وقتل كثيرين بالرصاص. وقتل هيلكا، حليف الأمس الذي لا يقهر، عدة مرات، بالرصاص والنصل والحبل.

لا يزال هيلكا، حتى الآن، وفي الليالي الماطرة، ينتظر الرئيس على بوابة القصر الحكومي ويحدق به دون أن يقول شيئاً، إلى أن يستدير باندو ويبتعد.

1904: ريو دي جانيرو

لقاح

تلاشى الطاعون الدَّبلي والحمى الصفراء بعد أن قضي على الجرذان والبعوض. وبعد ذلك أعلن أوزوالدو كروث الحرب على الجدري. وبينما كان آلاف البرازيليين يموتون من المرض، والأطباء يفصدون المحتضرين، والمعالجون يخيفون الطاعون بدخان الجل، كان أوزوالدو، المسؤول عن الصحة العامة، يجعل اللقاح إجبارياً .

هاجم السيناتور روي باربوسا، الخطيب ذو الصدر الحمامي، الناعم اللسان، اللقاح مستخدماً أسلحة قضائية مليئة بالنعوت. دافع روي باربوسا، باسم الحرية، عن حق كل فرد في أن يتلوث إذا أراد ذلك. وكانت سيول التصفيق والهتافات التمجيدية تقاطعه من عبارة إلى أخرى.

عارض السياسيون اللقاح وكذلك الأطباء والصحفيون. وكانت جميع الصحف تنشر افتتاحيات غاضبة وكاريكاتيراً قاسياً ضد أوزوالدو الذي لم يستطع أن يظهر وجهه في شارع خشية الإهانات والأحجار.

وقفت البلاد كلها ضد اللقاحات وصعدت هتافات في جميع الأنحاء: يسقط اللقاح! تمرد طلاب الكلية الحربية مشهرين أسلحتهم ضد اللقاحات وكانوا على وشك الإطاحة بالرئيس.

1905: مونتيفيديو

الترام

قام الوحش، ذو الزئير، بعملية قتله الأولى في مونتيفيديو. ذلك أن عابراً بريئاً سقط مسحوقاً في مركز المدينة. وصلت بضع سيارات إلى هذه الشوارع لكنها حين تعبر، ترسم العجائز إشارة الصليب.

ويركض البشر إلى مداخل المنازل لكي يحتموا.

وحتى وقت متأخر، كان الرجل الذي ظن نفسه تراماً يسير خبباً في المدينة التي بلا محرك.

حين يصعد يفرقع سوطه اللامرئي وحين يهبط يشد لجاماً لا يقدر أحد على رؤيته. وعند التقاطعات ينفخ بوقاً خيالياً كأحصنته، كمسافريه الذين يصعدون عند كل توقف، كالبطاقات التي يبيعها لهم وكالفكة التي يحصل عليها. حين توقف رجل السيارة عن القدوم، عندما لم يمر مطلقاً، اكتشفت المدينة أنها فقدت ذلك المعتوه المحبب.

1905: مونتيفيديو

شعراء الانحطاط

تسلق روبيرتو دي لاس كاريراس إلى الشرفة ضاماً إلى صدره رزمة ورود وسونيتة متوهجة ولم تكن تنتظره محظية جميلة وإنما سيد شرير أطلق خمس طلقات أصابت اثنتان منهما الهدف فأغمض روبيرتو عينيه واستغرق في التفكير: *سأتعشى الليلة مع الآلهة*.

لم يتناول العشاء مع الآلهة بل مع الممرضات في المشفى. وبعد بضعة أيام عاود هذا الشيطان الأنيق الظهور طائفاً، بغدر، في شارع ساراندي، هذا الذي أقسم أن يفسد جميع النساء المخطوبات والمتزوجات في مونتيفيديو. كانت صدرته الحمراء، المزينة بثقبي رصاصتين، تبدو أنيقة جداً، وعلى صفحة عنوان كتابه ***إكليل الجنازة*** ظهرت قطرة دم.

كان الابن الآخر لبايرون وأفروديت هو خوليو إيريراي ريسيغ الذي يسمي العلية التي يكتب ويقرأ فيها برج بانوراماس. تخاصم الاثنان طويلاً حول سرقة استعارة لكنهما خاضا المعركة نفسها ضد جبل العهر، المنافق الذي يعود إلى فترة ما قبل كولمبوس، لم يُقدَّم في قسم الأدوية المثيرة للشهوة أكثر من مح بيضة ممزوج بالنبيذ أما في قسم الأدب من الأفضل أن يقال القليل.

1905: إلوبانغو Ilopango

ميغيل بعمر أسبوع

رفضت الآنسة سانتوس مارمول التي حملت بشكل غير شرعي أن تفصح عن مؤلف عارها. طردتها أمها السيدة توماسا من المنزل. اشتبهت السيدة توماسا، التي كانت أرملة رجل أبيض فقير، بما هو أسوأ. حين ولد الطفل أحضرته الآنسة المنبوذة بين ذراعيها قائلة: *هذا هو حفيدك يا ماما*. أطلقت السيدة توماسا صرخة مخيفة حين رأت الطفل، العنكبوت الأزرق، الهندي ذا الشفة السميكة، ذلك الشيء القبيح الصغير الذي يثير الغضب أكثر مما يثير الشفقة، ثم أغلقت الباب بعنف في وجه ابنتها. سقطت الآنسة متكومة على درج الباب وبدا الطفل، الذي سقط تحت أمه الفاقدة للوعي، ميتاً. لكن حين أخرجه الجيران أطلق الوافد الجديد، المنسحق، صرخة هائلة.

وهكذا حصلت الولادة الثانية لميغيل مارمول وهو بعمر أسبوع .

1906: باريس

سانتوس ديمون Santos Dumont

بعد خمس سنوات من اختراع المنطاد ذي المحرك، اخترع البرازيلي سانتوس ديمون الطائرة. أمضى خمس سنوات وهو مسجون في حظيرة الطائرات يجمع ويفكك أشياء خيزرانية وحديدية ضخمة تولد وتموت بسرعة قصوى على مدار الساعة: في الليل تذهب إلى النوم مزودة بأجنحة نوارس وزعانف أسماك وتستيقظ متحولة إلى يعاسيب أو بط بري. أراد سانتوس ديمون أن يهرب من الأرض بهذه الأشياء التي كانت تعيده، بعناد، ليصطدم ويتحطم. مواجهاً بنيران تشتعل وهبوط لولبي مفاجئ وحوادث تحطم كان ينجو بسبب عناده. لكنه واصل القتال إلى أن حوَّل أحد تلك الأشياء إلى طائرة أو بساط سحري حلق عالياً في السماء.

أراد العالم كله أن يقابل بطل هذا العمل الضخم العظيم: ملك الجو، سيد الرياح الذي يبلغ طوله أربع أقدام، الذي يتحدث همساً ولا يزن أكثر من ذبابة .

1907: ساغوا لا غراندي Sagua La Grande

لام

في الحرارة الأولى لذلك الصباح الدافئ استيقظ الفتى الصغير ورأى. كان العالم على قفاه ويدور كخفاش يائس يطارد ظله. انسحب الظل العاتم إلى الجدار بينما اقترب الخفاش

وضربه بجناحه. قفز الفتى الصغير مغطياً رأسه بيديه واصطدم بمرآة كبيرة. لم يشاهد أحداً في المرآة أو أي شيء آخر. حين استدار تعرف، في الخزانة المفتوحة، على الملابس الممزقة لوالده الصيني وجده الأسود. كانت تنتظره ورقة فارغة صباحاً في مكان ما. لكن هذا الفتى الكوبي، المخبل، الذي يدعى ويلفريدو لام، لايزال غير قادر على جر ظله الضائع الذي يدور بجنون في العالم المهلوس فوقه. ولم يكن قد اكتشف بعد طريقته المدهشة في طرد الخوف.

1907: إكيكي Iquique

رايات بلدان كثيرة

ترأست رايات بلدان كثيرة مسيرة عمال النترات المضربين في الصحراء المغطاة بالحصى في شمال تشيلي ـ آلاف منهم مع آلاف من زوجاتهم وأولادهم ـ تقدموا إلى ميناء إكيكي وهم يرددون الشعارات والأغاني. حين احتل العمال الميناء أرسل وزير الداخلية أمراً بالقتل. قرر العمال أن يضربوا عن العمل ولم يرم حجر واحد.

كان خوسيه بريجز، قائد الإضراب، ابن أميركي شمالي لكنه رفض أن يطلب حماية القنصل الأميركي الشمالي. حاول قنصل البيرو أن ينقذ العمال البيروفيين لكنهم رفضوا أن يتخلوا عن رفاقهم التشيليين. وحاول قنصل بوليفيا أن يغري العمال البوليفيين ويبعدهم لكنهم قالوا: *مع التشيليين نعيش ومعهم نموت*.

حصدت رشاشات وبنادق الجنرال روبيرتو سيلبا رينارد المضربين العزل وتركت بساطاً من الأجساد. برّر وزير الداخلية رافايل سوتومايور المجزرة *باسم الأشياء الأكثر قدسية*، والتي هي في ترتيب الأهمية: *الملكية*، النظام *العام*، *والحياة*.

1907: ريو باتالا Rio Batalha

نيمويينداخو Nimuendaju

لم يولد كيرت أنكل هندياً، بل أصبح هندياً أو اكتشف أنه كان هندياً. منذ سنوات، غادر ألمانيا إلى البرازيل. وفي البرازيل، في أعمق أعماقها، تعرّف على شعبه. وها هو الآن يرافق هنود الغواراني وهم يتجولون في الغابة كحجاج يبحثون عن الفردوس. أكل من طعامهم واشترك في متعة تقاسمه معهم. عالياً ارتفعت أغانيهم وفي منتصف الليل أقيم طقس سري: ثقبوا الشفة السفلى لكيرت أنكل الذي أصبح يعرف باسم نيمويينداخو: *ذلك الذي يخلق منزله*.

1908: أسونثيون Asuncion

باريت

ربما عاش مرة في الباراغواي منذ قرون أو آلاف السنين ـ لا أحد يعرف متى ـ و نسي ذلك. بالتأكيد، منذ أربع سنوات، حين، من قبيل المصادفة أو الفضول، نزل رافايل باريت هنا، شعر أنه وصل أخيراً إلى المكان الذي كان ينتظره: كانت هذه البقعة، التي نسيها الله، مكانه في العالم. مذاك، بدأ يخطب في الناس في زوايا الشارع، أو واقفاً على صندوق صابون، وينشر مقالات الإلهام والاستنكار. ونتيجة لذلك طردته الحكومة. طردت الحراب الفوضوي الشاب إلى الحدود ورحّلته *بعد أن اتهمته بأنه أجنبي يحرض على الفتنة*.

هذا البارغوايي أكثر من البارغوايين، العشبة الحقيقية لهذه التربة والرضاب الحقيقي لهذا الفم، ولد في النمسا من أم إسبانية وأب إنكليزي ودرس في باريس.

كان ذنب باريت الخطير، انتهاك التابو الذي لا يغتفر، هو شجب العبودية في المعسكرات الزراعية للمتة.

منذ أربعين عاماً، حين انتهت حرب الإبادة ضد البارغواي، شرَّعتْ البلدان المنتصرة، باسم الحضارة والحرية، استرقاق الباقين على قيد الحياة مع أبنائهم. مذاك، أصبح مالكو الأراضي الأرجنتينيون والبرازيليون يحصون العبيد البارغوايين بالرأس وكأنهم أبقار.

1908: سان أندريس دي سوتابينتو San Andres de Sotavento

الحكومة تقرر
أن الهنود غير موجودين

أصدر الحاكم، الجنرال ميغيل مارينو تورالبو الأمر لشركات النفط التي تعمل على الساحل الكولومبي. شهد الحاكم أمام الكاتب بالعدل والشهود أن: *الهنود غير موجودين*.

منذ ثلاثة أعوام أفاد القانون 55 الصادر في 1905، والذي صادق عليه الكونغرس الوطني في بوغوتا، أن الهنود والجماعات الهندية لم يوجدوا في سان أندريس دي سوتابينتو حيث انبثق النفط فجأة. والآن كل ما يفعله الحاكم هو تأكيد القانون: إذا وجد الهنود فإن وجودهم سيكون مخالفاً للقانون. وهكذا أودعوا في المقبرة أو في المنفى.

1908: سان أندريس دي سوتابينتو

صورة سيد الحيوات والمعسكرات الزراعية

كان الجنرال ميغيل مارينو تورالبو، الشره للأراضي، والذي يدوس على الهنود والنساء، يحكم المناطق الكولومبية الساحلية من على صهوة حصان. كان يضرب بطرف سوطه الوجوه والأبواب ويصنع الأقدار. الذين كان يصادفهم في طريقه يقبلون يديه وكما هي عادة البيض، المعصومة عن الخطأ، كان يخب على الطرقات، ويتبعه دائماً وصيف على حمار صغير، يحمل له البراندي، والماء المغلي، وعدة حلاقته، والدفتر الذي يدون فيه الجنرال أسماء الفتيات اللواتي يفترسهن.

كانت أملاكه تزداد وهو يسير على حصانه بدأ ذلك بمزرعة خيل واحدة، وهو الآن يملك ستاً منها. كان هذا الذي يؤمن بالتقدم دون إقصاء التراث يستخدم الأسلاك الشائكة ليضع حدوداً لأراضيه، وأدوات التعذيب ليضع حدوداً للبشر.

1908: غوانابي Guanape

صورة سيد آخر

للحيوات والمستعمرات الزراعية

يأمر: *أخبروه أنه من الأفضل له أن يحمل كفنه على ظهر حصانه.*

كان يعاقب بخمس طلقات كل من يخل في تأدية الواجب، سواء القن الذي يتأخر بمكاييل الذرة التي يدين بها أو كل من يبطئ في إرسال ابنته أو التخلي عن بقعة أرض.

يأمر: *لا تستعجل ذلك، فقط الطلقة الأخيرة ستقتل.*

لم تكن أسرته نفسها تُستثنى من غضب ديوجراسياس إترياجو، الرئيس المطلق لوادي غوانابي الفنزويلي. في إحدى الليالي استعار قريب له حصانه الأفضل ليذهب إلى رقصة على الموضة فقيده الدون ديوجراسياس في اليوم التالي إلى أربعة أوتاد، ووجهه إلى الأسفل، وسلخ كعبي قدميه وكفليه بمبشرة المنيهوت ليعالجه من إلحاح الرقص والظهور على حصان غيره.

حين قتل في لحظة بلا حراسة على يد بعض الأقنان الذين حكم عليهم بالموت رددت العائلة، تسع ليال، التاسوعية للميت واحتفل سكان غوانابي تسع ليال احتفالاً وحشياً. لم يتعب أحد من المرح ولم يطلب أي موسيقي مقابلاً لسباق المسافة الطويلة.

1908: مريدا، يوكاتان

نهاية الزمن وما بعد ذلك

كان القطار الذي يقل الرئيس المكسيكي قد اختفى. قام برفيريو داياث بفحص مستعمرات الهينكوين الزراعية في يوكاتان وأخذ معه انطباعاً جيداً جداً. قال وهو يتعشى مع الأسقف ومالكي ملايين الهكتارات وآلاف الهنود الذين ينتجون فبراً رخيصاً لشركة انترناشيونال هارفستر: *يا له من منظر جميل. هنا يشعر المرء بجو من* السعادة *العامة*.

لم يكد دخان القاطرة يتلاشى حتى تهاوت منازل الكرتون المدهون بنوافذها الأنيقة بضربة يد. أصبحت الأكاليل والأعلام نثاراً وكنست وحرقت. وقلبت الريح، بنفخةٍ، أقواس الأزهار التي امتدت على الطرقات. قامت الصواعق بزيارتها أيضاً وعاود تجار مريداً امتلاك آلات الخياطة، والأثاث الأميركي الشمالي أما ثياب العبيد الجديدة فقد تآكلت أثناء العرض.

كان العبيد هنوداً من شعب المايا الذي عاش، حتى وقت متأخر، حراً في مملكة الصليب الصغير المتحدث، وهنوداً من الياكوي، من سهول الشمال، الذين اشتروا بسعر أربعمائة بيزوس للشخص الواحد. كانوا ينامون مكومين في حصون حجرية ويعملون على إيقاع سوط مبلل. حين يصبح أحدهم فظاً يدفنونه إلى أذنيه ويفلتون عليه الأحصنة.

1908: سيوداد خواريث Ciudad Juarez

مطلوب

منذ بضع سنوات، وبطلب من برفيريو داياث، عبرت الفرق الجوالة الأميركية الشمالية الحدود إلى هنا لتسحق عمال مناجم النحاس في سونورا. فيما بعد، انتهى الإضراب في مصانع نسيج فيراكروث بالاعتقالات والاعدامات، ولكن الإضرابات نشبت مرة ثانية هذا العام في كواويلا Coahuila وتشيواوا Chihuahua ويوكاتان. كان الإضراب الذي يزعج النظام جريمة وكل من يقوم به يرتكب جريمة، واعتُبِرَ الشقيقان فلوريس وماجون، محرضا الطبقة العاملة، مجرمان من الدرجة الأولى. ألصقت صورهما على حائط محطة القطار في سيوداد خواريث كما في جميع المحطات على كل من جانبي الحدود. وعرضت وكالة فيرلونج Furlong البوليسية مكافأة من أربعين ألف دولار مقابل كل منهما.

طيلة سنوات، هزأ الشقيقان فلوريس وماجون من سلطة الرئيس الأبدي برفيريو داياث. علما الشعب، من خلال الصحف والنشرات، أن يتوقف عن احترامه، وحالما ضاع الاحترام بدأ الشعب يفقد خوفه.

1908: كاراكاس

كاسترو

كان يصافح بالسبابة فحسب لأنه ليس هناك من يستحق الأصابع الأربع الأخرى. حكم سيبريناو كاسترو في فنزويلا وكان تاجه قبعة بشرابة متدلية. كان يعلن عن ظهوره نفخ أبواق ورعد تصفيق وحفيف جنود منحنين، وتتبعه حاشية من المتنمرين ومهرجي البلاط. كان كاسترو قصيرا مثل بوليفار، سريع الغضب ومدمنا للرقص والنساء. وكان يتظاهر بأنه بوليفار حين يأخذ وضعية من أجل الخلود، لكن بوليفار خسر بعض المعارك أما كاسترو المنتصر لم يخسر أية معركة بتاتا. كانت زنزاناته مكتظة ولم يثق بأحد عدا خوان بيسينتي غوميث، يده اليمنى في الحرب والحكومة، الذي يسميه أعظم رجل في الأزمنة الحديثة. وكان كاسترو لا يثق بالأطباء المحليين الذين يعالجون الجذام والجنون بحساء من لحم الصقر الحوّام المسلوق. وبدلاً من ذلك قرر أن يعهد بأمراضه إلى أيدي أطباء ألمان متعلمين. من ميناء لاجيرا La Guira يبحر إلى أوروبا ولم تكد السفينة تنطلق حتى استولى غوميث على السلطة.

1908: كاراكاس

دمى

كان كل فينزويلي ذكر هو سيبريانو كاسترو للنساء اللائي يقعن في طريقه. وكانت الآنسة المناسبة هي التي تخدم والدها وأخوتها كما تخدم زوجها ولا تفعل أو تقول أي شيء دون أن تطلب أذنا. إذا كانت تملك مالاً أو تنحدر من أسرة جيدة فإنها تحضر قداس الصباح الباكر ثم تمضي اليوم في تعلم إصدار الأوامر إلى الهيئة السوداء: الطباخون، المرضعات، المربيات، الغاسلات، وتعمل في الحياكة. أحياناً تستقبل الأصدقاء وتذهب بعيداً في تزكية رواية مثيرة هامسة: لو رأيت كيف كنت أبكي. في أوائل المساء، وهي جالسة على صوفا تحت مراقبة عمة منتبهة، تمضي بضع ساعات مصغية إلى خطيبها الذي يأتي مرتين في الأسبوع دون أن تنظر إليه أو تسمح له بالاقتراب. كل ليلة، قبل الذهاب إلى النوم، تكرر: السلام عليك يا مريم وفي ضوء القمر تضع على جلدها تويجات ياسمين مبللة من المطر.

إذا هجرها خطيبها تصبح عمة ويحكم عليها إلى الأبد أن تلبس القديسين والجثث والأطفال الجدد، تراقب المخطوبين وتعتني بالمرضى، تعلم شفهياً، وتمضي الليل في سريرها المنعزل متنهدة فوق صورة عاشقها المزدري.

1909: باريس

نظرية الضعف القومي

نشر البوليفي ألسيدس أرجيداس، الذي أرسل إلى باريس بمنحة من سيمون باتينو، كتاباً جديداً بعنوان **شعب مريض**. كان الملك الصغير يغذي أرجيداس لكي يبرهن أن الشعب البوليفي ليس مريضاً فحسب إنما أيضاً لا يمكن علاجه.

منذ فترة اكتشف مفكر بوليفي آخر يدعى غابرييل ريني مورينو أن الأدمغة المحلية والهجينة *معطلة خلوياً*، وأنها تزن من خمس إلى سبع أو حتى تسع أونصات أقل من دماغ الإنسان الأبيض.

ادّعى أرجيداس أن الهجن يرثون الخصائص الأسوأ لأسلافهم وهذا هو السبب الذي يشرح لماذا لا يريد البوليفيون أن يغسلوا ويتعلموا. ولا يستطيعون أن يقرأوا ويشربوا فحسب، وإنما أيضاً يمتلكون وجهين، وهم أنانيون، كسالى ومستهجنون. تنتج جميع حالات البؤس، عندهم، من طبيعتهم الخاصة لا من شراهة أسيادهم. إنهم شعب حكم عليه علم الأحياء ويخضع لعلم الحيوان، والمصير البهيمي للثور هو مصيرهم: إن هذا الشعب غير القادر على صناعة تاريخه الخاص، يستطيع فقط أن يحيا مصيره. والمصير، الأمل اليائس، ليس مكتوباً في النجوم بل في الدم.

1909: نيويورك

شارلوت

ما الذي سيحدث إذا استيقظت امرأة في الصباح متحولة إلى رجل؟ ماذا إذا لم تكن الأسرة معسكر تدريب حيث يتعلم الأبناء القيادة والبنات الطاعة؟ ماذا إذا كان هناك رعاية نهارية للأطفال واشترك الأزواج في التنظيف والطبخ؟ ماذا لو تحولت البراءة إلى كرامة وتماشى العقل مع العاطفة؟ ماذا لو نطق الوعاظ والصحف بالحقيقة؟ ماذا لو لم يعد أي شخص ملكاً لأي شخص آخر؟

هذا ما كان تهذي به شارلوت بركنز جيلمان Charlotte Perkins Gilman بينما كانت الصحافة تهاجمها وتسميها: أماً *غير طبيعية*. مع ذلك، كانت الأخيلة، التي تسكن روحها وتعض أحشاءها، تهاجمها بشكل أكثر وحشية.

كان الأعداء المريعون الذين في الداخل هم الذين يوقعونها أحياناً. كانت تسقط لكنها كانت تتعافى، تسقط وتتعافى مرة أخرى وكان فيها نبض للمضي إلى الأمام لم يهجرها مطلقاً. كانت عابرة السبيل العنيدة، هذه، تسافر، دون تعب، في أنحاء الولايات المتحدة معلنة عن عالم مريض.

1909: ماناغوا

علاقات أميركية داخلية في حالة عمل

كان فيلاندر نوكس Philander Knox محاميا ومساهما في شركة روزاريو ولايت للمناجم. كان أيضا وزير خارجية الولايات المتحدة. لم يعامل رئيس نيكاراغوا خوسي سانتوس ثيلايا الشركة بالاحترام المطلوب وأراد أن تدفع شركة روزاريو ولايت الجزية. لم يحترم أيضا الكنيسة بالشكل المطلوب فحكمت الأم المقدسة أنه مذنب بما أنه جردها من أراضيها وألغى العشور والثمار الأولى ودنس قداسة الزواج بقانون الطلاق، وهكذا صفقت الكنيسة حين قطعت الولايات المتحدة علاقاتها مع نيكاراغوا وأرسل وزير الخارجية نوكس بعض المارينز الذين أطاحوا بالرئيس ثيلايا وعينوا مكانه محاسب شركة روزاريو ولايت للمناجم.

1910: الغابة الأمازونية

آكلو البشر

بين عشية وضحاها انهار سعر المطاط وانتهى حلم الرخاء الأمازوني. بصفعة وقحة أيقظت السوق العالمية على نحو مفاجئ بيلم دو بارا، مناؤس، وإكيتوس، وجميع الحسناوات النائمات اللواتي يتمددن في الغابة في ظل شجرة المطاط. كانت الأرض التي دعيت أرض الغد تتحول إلى الأرض التي لم تكن أبدا أو أرض الأمس وقد هجرها التجار الذين انتزعوا نسغها. هربت أموال المطاط الطائلة من الغابة الأمازونية إلى معسكرات زراعية آسيوية جديدة تنتج مطاطا أفضل بأسعار أرخص. كان ذلك عملا يأكل لحم البشر ودعا الهنود صيادي العبيد، الذين كانوا يطوفون الأنهار بحثا عن العمل: *آكلي البشر*. كان كل ما بقي من القرى الثرية هو الفتات فيما أرسل آكلو البشر الهنود، مقيدين، إلى شركات المطاط في عنابر السفن مع البضائع الأخرى وفواتير ملائمة من أجل عمولات المبيعات ورسوم الشحن.

1910: ريو دي جانيرو

الأميرال الأسود

صدر أمر بالتزام الصمت على ظهر السفينة وقرأ ضابط الحكم. قرعت الطبول بغضب بينما كان بحار يجلد لأنه انتهك النظام. راكعا على ركبتيه ومقيدا إلى درابزون ظهر السفينة تلقى الرجل المحكوم عقابه أمام الطاقم كله. آخر الجلدات ـ مائتان وثماني وأربعون، مئتان وتسع وأربعون، مئتان وخمسون ـ تنهال على جسد معلم بالأثلام ومستحم بالدم، فاقد للوعي أو ميت.

ثم نشب العصيان وانتفض البحارة على مياه خليج غوانابـارا وقتـل ثلاثـة ضبـاط بالسـكاكين. رفعت السفن الحربية الراية الحمراء وأصبـح بحـار عـادي قـائدا جديـدا للأسـطول. كـان خـوواو كانديدو، الأميرال الأسود، يميل في الريـح في بـرج قيـادة بارجـة الأمـيرال بينمـا كـان المتمـردون المنبوذون يقدمون له الأسلحة. في الفجر أيقـظ مدفعـان ريـو دي جـانيرو وأصـدر الأمـيرال الأسـود تحذيرا: المدينة تحت رحمته. إذا لم يمنع الجلد ـ عادة الأسطول البرازيلي ـ وإذا لم يصدر عفـو، فإنه سيقصف ريو حتى يدمرها. ثم وجهت فوهات المدفعية نحو أكثر الأبنية أهمية في ريو.

نريد جواباً الآن وحالاً.

أطاعت المدينة التي انتابها الذعر وأعلنت الحكومة إلغاء العقوبة الجسدية في الأسـطول وعفـواً عن المتمردين. أزاح خوواو كانديدو المنديل الأحمر عن عنقه وسلم سيفه وهكذا حول الأميرال نفسه إلى بحار.

1910: ريو دي جانيرو

صورة أغلى محام في البرازيل

عارض منذ ست سنوات اللقاح ضـد الجـدري باسـم الحريـة. ينبغـي ألا تنتـهك حرمـة جلـد الإنسان مثل ضميره كما قال ري بربوسا. لا تمتلك الدولة الحق في انتهاك الفكـر أو الجسـم حتـى ولو كان ذلك باسم الصحة العامة. الآن يشجب، *بكل قسوة وعنف، بربرية* تمرد البحارة. عـارض هذا المحلف الشهير والمشرع البارز، الجَلْد، لكنه شجب أساليب المجلودين قائلاً إن البحـارة لـم يطلبوا طلبهم العادل بطريقة حضارية مـن خـلال الدسـتور *مستخدمين القنـوات الملائمـة في إطـار أعراف قضائية سائدة.*

آمن ري باربوسا بالقانون واستند إيمانه إلى أفكار الأباطرة الرومان والليبراليين الإنكليز. لكنـه لم يؤمن بالواقع. كان الطبيب يظهر واقعية معينة فقط حين يجمع في نهاية الشـهر راتبـه كمحـام لـ«لايت وباور»، المشروع الأجنبي الذي يمارس، في البرازيل، سلطة أكثر من الله.

1910: ريو دي جانيرو

نادراً ما يلتقي الواقع والقانون

نادراً ما يلتقي الواقع والقـانون في هـذا البلـد ذي العبيـد الأحـرار قانونيـاً، وحـين يلتقيـان لا يتصافحان. كان الحبر الذي كُتِبـتْ بـه القوانـين التـي أنـهت تمـرد البحـارة لايـزال طريـاً حـين استأنف الضباط جلد وقتل البحارة الذين أعفي عنهم مؤخراً. قتل كثير من البحارة رمياً بالرصاص

في أعالي البحار ودفن آخرون أحياء في مقابر تحت الأرض في جزيرة كوبرا التي سميت جزيرة اليأس حيث كانت تلقى إليهم مياه جيرية حين يشكون من الظمأ.

وانتهى الأميرال الأسود في مشفى للمجانين.

1910: مستعمرة موريسيو Mauricio

تولستوي

اسحق زيمرمان Isaac Zimmerman، الذي نفي لأنه فقير، وصل إلى الأرجنتين. حين شاهد كوب متة للمرة الأولى ظن أنه محبرة وأن المصاصة قلم، وأحرق ذلك القلم يده. بنى كوخه في هذا السهل المعشوشب في مكان ليس بعيداً عن أكواخ الحجاج الآخرين الذين نفوا مثله من أودية نهر دانيستر، وهنا أنتج الأطفال والمحاصيل. كان اسحق وزوت لا يملكان سوى القليل جداً وتقريباً لا شيء والقليل الذي لديهما يمنحانه بكرم وافر. استخدمت بعض صناديق الخضار كطاولة لكن غطاء الطاولة دائماً قاس وأبيض جداً وعليه، تقدم الأزهار اللون، والتفاح العطر. في إحدى الليالي عثر الأطفال على اسحق منهاراً على تلك الطاولة ورأسه مدفون بين يديه. شاهدوا وجهه في ضوء الشمعة ينضح دمعاً. لكنه أخبرهم قائلاً: علم لتوه بمحض المصادفة، أنه هناك، في الجانب البعيد من العالم، توفي ليو تولستوي. وشرح لهم من كان ذلك الصديق القديم للفلاحين، ذلك الرجل الذي عرف كيف يصور زمنه، بشكل مهيب، ويتنبأ بعالم آخر.

1910: هافانا

السينما

سار مُشْعِلُ المصباح في طريقه حاملاً السلم على كتفه، كان يشعل الفتائل بحيث يستطيع البشر أن يسيروا في شوارع هافانا دون أن يتعثروا. كان الرسول يمضي على الدراجة حاملاً تحت ذراعه لفافات الفيلم من سينما إلى أخرى بحيث يستطيع البشر أن يسيروا دون تعثر في عوالم أخرى وأزمنة أخرى ويطوفوا عالياً في السماء مع فتاة تجلس على نجمة.

كانت تلك المدينة تمتلك صالتين مكرستين لأعظم أعاجيب الحياة المعاصرة وكلتاهما تعرض الفيلم نفسه. وحين يتوانى الرسول في إحضار اللفائف، كان عازف البيانو يمتع الجمهور بموسيقى الفالس والألحان الراقصة، أو يلقي المرشد قطعاً مختارة من *الدون خوان تينوريو*. لكن الجمهور يعض أظافره منتظراً المرأة المغوية ودوائر المخدع تحت عينيها لتبهر البصر في الظلمة، أو الفرسان الذين يرتدون دروع الزرد ليسيروا الخبب، بسرعة تصيب بالصرع، نحو القلعة المكللة بالضباب.

سرقت السينما الجمهور من السيرك ولم يعد الحشد يصطف ليشاهد مروض الأسد ذا الشارب أو جيرالدين الجميلة المغطاة بالنثار اللماع وهي تمضي منتصبة على الحصان بوركين ضخمين.

هجر أيضا محركو الدمى هافانا ليتجولوا في السواحل والقرى وغادر الغجر الذين كانوا يبصرون مع الدب الحزين الذي يرقص على إيقاع التامبورين مع العنزة التي تدور على كرسي، مع لاعبي السيرك الكئيبين في أزيائهم المختلفة الألوان. غادر الجميع هافانا لأن البشر لم يعودوا يرمون بنسات الإعجاب، بل بنسات الشفقة فحسب.

لا أحد يستطيع أن ينافس السينما التي هي أكثر إعجازا من مياه لوردز. كان وجع المعدة يعالج بالقرفة السيلانية والزكام بالبقدونس وكل شيء آخر بالسينما.

1910: مكسيكو سيتي

الذكرى المئوية والحب

احتفل بمرور مائة عام على استقلال المكسيك وكانت جميع مستودعات العاصمة تعرض صورة الرئيس برفريو داياث.

كانت اثنتان من كل عشر فتيات في مكسيكو سيتي يشتغلن في الدعارة. السلام والنظام، النظام والتقدم: القانون ينظم ممارسة هذه المهنة المزدحمة. منع قانون المواخير الذي أعلنه الدون برفريو بنفسه التجارة الجسدية دون واجهات مناسبة، كما منع عرضها في جوار المدارس والكنائس. منع القانون أيضا اختلاط الطبقات الاجتماعية: يجب *ألا يكون في المواخير سوى نساء الطبقة نفسها التي ينتمي إليها الزبائن*. وفرض القانون جميع أنواع الوقاية الصحية والعقوبات وأرغم السيدات *أن يمنعن طلابهن من الخروج إلى الشارع في جماعات يمكن أن تلفت الأنظار*. سمح لهم أن يخرجوا فرادى وحكم عليهم أن يتواجدوا بين السرير والمشفى والسجن. وكان للعاهرات الحق، على الأقل، في الطواف أحيانا في المدينة. بهذا المعنى هن أفضل من الهنود. وبأمر من الرئيس الهندي الميكستيكي النقي تقريبا، منع الهنود من السير في الجادات الرئيسية أو الجلوس في الساحات العامة.

1910: مكسيكو سيتي

الذكرى المئوية والطعام

افتتحت الذكرى المئوية بمأدبة من الطعام الفرنسي الفاخر في صالونات القصر الوطني. قدم ثلاثمائة وخمسون خادما صحونا أعدها أربعون شيفا وستون مساعدا بإدارة الشهير سيلفان دومونت.

كان هنـاك مكسـيكيون رشـيقون يـأكلون بالفرنسـية ويفضلـون الكريـب علـى قريبتـها الفقـيرة والمحلية تورتيا الذرة. وجدوا صلصة البوشاميل أكثر جـدارة مـن الصلصـة المحليـة، ذلـك المزيـج اللذيذ، لكن المفرط، من الأفوكاتة والطماطم والفلفل. حين تصـادف الطبقـة العليـا فلفـلا أجنبيـا، ترفض صلصة الفلفل المكسيكية، رغم أن أفراد هذه الطبقة يتسللون فيمـا بعـد إلـى مطبـخ العائلـة ويلتهمونها خلسة، مطحونة أو كاملة، كصحـن جـانبي أو رئيسـي، محشـية أو كمـا هـي، غـير مقشرة أو عارية.

1910: مكسيكو سيتي

الذكرى المئوية والفن

دشنت المكسيك مهرجانها الوطني بمعرض كبير للفن الإسباني. ولمنح أولئك الفنـانين الإسـبان التقديم الذي يستحقونه، بنى الدون برفريو لهم جناحا خاصا في وسط المدينة.

في المكسيك، حتى الأحجار التي تستخدم لبناء مركز البريد تأتي من أوروبا، مثل كل ما يعتبر مهما. من إيطاليا، وإسبانيا، وفرنسا، أو إنكلترا تأتي مواد البناء والمهندسـون، أو حـين لا يتوفـر المال لاستيراد المهندسين، يتولى المهندسون المحليون بناء منازل كمنازل رومـا أو بـاريس أو لنـدن أو مدريد. في غضون ذلك، يرسـم الفنـانون المكسـيكيون عـذراوات منتشـيات، كيوبيـدات ممتلئـي الأجساد، وسيدات المجتمع الراقي في نموذج أوروبي يعـود قرنـا إلـى الـوراء، ويسـمي النحـاتون رخامهم التذكاري ومنحوتاتهم البرونزية بأسماء مثل: رغم كل شيء، يأس...؟

خلف حدود الفن الرسمي، بعيدا جدا عن نجومه، كان النحات العبقـري خوسـيه غوادالوبـي بوسودا يعري بلاده وزمنه. لم ينظر إليه أي ناقد بشكل جدي ولم يكن له تلاميذ، رغم أن فنانين شابين كانا يتبعانه منذ أن كانا طفلين. كان خوسـيه كليمينتـي أوروثكـو ودييغـو ريبـيرا يسـكنان مشغل بوسودا ويراقبانه وهو يعمل بإيمان وكأنه في قداس بينما النشارة المعدنية تسقط على الأرض لدى مرور المنقاش على الصفائح.

1910: مكسيكو سيتي

الذكرى المئوية والديكتاتور

في أوج احتفالات الذكرى المئوية افتتح الدون برفريو مشفى للأمراض العقلية وبعد ذلـك بوقـت قصير وضع حجر الأساس لسجن جديد. كان الدون برفريو مزينا من كرشه إلى رأسه المريش الذي يسود فوق سحابة من القبعات الرسمية والخـوذ الإمبراطوريـة. كـان رجـال حاشـيته الأنتيكـات، المصـابون بالرومـاتيزم، والذيـن يرتـدون الفراكـات والأحذيـة النصفيـة ويضعـون أزهـارا في عـرى

أزرارهم، يرقصون على ألحان: «يعيش بؤسي»، وهي آخر الألحان المهمة. وكانت أوركسترا من مائة وخمسين موسيقيا تعزف تحت ثلاثين ألف نجمة كهربائية في غرفة الرقص المهيبة في القصر.

استمرت الاحتفالات شهرا وجعل الدون برفريو، الذي أعاد انتخاب نفسه ثماني مرات، إحدى تلك الحفلات الراقصة مناسبة لإعلان اقتراب ولايته التاسعة بينما كان يقدم تنازلات مدتها تسعة وتسعون عاما في النحاس والنفط والأرض لشركات مورغان وككنهايم وروكفلر وهيرست. لقد أدار الديكتاتور الأصم والصلب الأرض الاستوائية الأكبر للولايات المتحدة.

في إحدى تلك الليالي، وفي أوج ذلك المرح الصاخب، ظهر مذنب هالي في الجو وانتشر الذعر وأعلنت الصحافة أن المذنب سيغرز ذيله في المكسيك ويحرق كل شيء.

1911: أنينيكويلكو Anenecuilco

زاباتا

ولد على السرج راكبا وكان مروضا للأحصنة، ويتنقل في الريف، على ظهر الحصان، حريصا ألا يزعج النوم العميق للأرض. إن إمليانو زاباتا رجل صموت، يتحدث من خلال بقائه صامتا.

فلاحو قريته أنينيكويلكو، المؤلفة من منازل مبنية من الطوب، ومسقوفة بسعف النخل، ومتناثرة على هضبة، نصبوا زاباتا قائدا لهم وأودعوا لديه أوراقا تعود إلى زمن نواب الملوك. برهنت صرة الوثائق تلك أن هذه الجماعة، ليست دخيلة على أرضها.

خنقت أنينيكويلكو مثل كل الجماعات الأخرى في إقليم موريلوس المكسيكي وكانت جزر الذرة تقل في محيط من السكر. لم يبق من قرية تيكيسكيتنغو، التي حكم عليها بالموت لأن هنودها الأحرار رفضوا أن يصبحوا عصابة من الأقنان، سوى صليب برج الكنيسة. كانت المستعمرات الزراعية الضخمة تتقدم مبتلعة الأرض والماء والغابات ولم يكن ثمة مكان حتى لدفن الموتى.

إذا أرادوا أن يزرعوا فليزرعوا في الآنية.

كان الرجال المسلحون والمخادعون يشهدون النهب بينما كان مستهلكو الجماعات يقيمون الحفلات الموسيقية في حدائقهم ويربون مهر البولو والكلاب الأصيلة.

دفن زاباتا، قائد القرويين المستعبدين، ألقاب نواب الملك المالكين للأراضي تحت أرضية كنيسة أنينيكويلكو ورمى نفسه في الصراع. كانت قواته الهندية، المجهزة جيدا والراكبة جيدا، ولكن غير المسلحة جيدا، تنمو وهي تنطلق.

1911: مكسيكو سيتي

ماديرو

كان الشمال كله ينتفض خلف فرانسيسكو ماديرو. وبعد ثلاثين سنة متواصلة على العرش انهار برفريو داياث في بضعة أشهر.
كان الرئيس الجديد ماديرو ابنا فاضلا للدستور الليبرالي، وأراد أن ينقذ المكسيك من خلال الإصلاح القضائي، بينما كان زاباتا يطالب بالإصلاح الزراعي. وبينما هم يجابهون صخب الفلاحين، وعد النواب الجدد أن يدرسوا بؤسهم.

1911: حقول تشيواوا Chihuahua

بانتشو بيا

من بين القواد الشماليين الذين قادوا ماديرو إلى الرئاسة كان بانتشو بيا المحب والمحبوب أكثر من الجميع. كان يحب الزواج ويفعل ذلك دائما. يسدد المسدس إلى الرأس فلا يعيقه كاهن ولا تقاومه فتاة. كان يحب أيضا أن يرقص على ألحان المرمبة وأن ينخرط في المعارك.
وكانت الطلقات ترتد عن صمبريرته كقطرات المطر.
خرج إلى الصحراء باكرا: *بدأت الحرب، بالنسبة إلي، حين ولدت*. كان صغيرا أكثر من طفل حين انتقم لأخته. ومن عمليات القتل الكثيرة التي حدثت منذ ذلك الوقت استهدفت الأولى مديره الذي لم يترك له إلا خيار أن يصبح لص خيول.
ولد مثل دوروتيو أرانجو. كان بانتشو بيا شخصا آخر تماما. كان زعيم عصابة، صديقا، بل من أفضل الأصدقاء. حين قتل الحرس الريفي بانتشو بيا الحقيقي أخذ دوروتيو اسمه واحتفظ به. وضد الموت والنسيان بدأ يدعو نفسه بانتشو بيا من أجل أن يستمر صديقه حيا.

1911: ماتشو بيكتشو Machu Picchu

الملاذ الأخير للآنكيين

لم يمت الملاذ الأخير للآنكيين، إنه ينام فحسب. طول قرون زفر نهر أوروبامبا ذو الزئير، المزبد نفسه القوي على الصخور المقدسة وغطاها بغطاء من الأدغال الكثيفة ليحرس نومها. وهكذا حافظ الحصن الأخير للآنكيين، موطئ القدم الأخير لملوك البيرو الهنود على سريته.
وبين جبال ثلجية لا تظهر على أية خريطة عثر عالم آثار أميركي شمالي يدعى هيرام بنغهام على ماتشو بيكتشو Machu Picchu. قاده طفل من المنطقة بيده فوق الجروف إلى العرش المهيب

الذي تحجبه الغيوم والخضرة، وهناك عثر هيرام بنغهام على الأحجار البيضاء التي لا تزال حية بين النباتات الخضراء وكشفها للعالم مستيقظة.

1912 : كيتو

ألفارو

لعنت امرأة طويلة ترتدي ثيابا سوداء الرئيس ألفارو وهي تطعن جثته بخنجر، ثم رفعت على رأس عصا المزق الدموية لقميصه، كراية ملتهبة.

سار خلف المرأة التي ترتدي الأسود منتقمو كنيسة الأم المقدسة وكانوا يجرون الجسد العاري بحبال مربوطة إلى قدميه. صاحت العجوز الثرثارة، آكلة القديس، وبالعة خبز القربان: *يحيا الدين!!*

سالت الدماء في الشوارع المحصبة، دماء لم تستطع الكلاب أن تلعقها مطلقا، ولم تقدر الأمطار أن تغسلها.

انتهى الذبح بألسنة اللهب، أضرمت نار كبيرة رمي فيها ما تبقى من العجوز ألفارو ثم داس على رماده المسلحون وقطاع الطرق الذين استأجرهم السادة أصحاب الأراضي.

لقد تجاسر الرئيس ألفارو على انتزاع الأراضي من الكنيسة التي تملك كثيرا من الإكوادور واستخدم الأجور لإنشاء المدارس والمشافي. ولأنه صديق لله لا للبابا، أجاز الطلاق وحرر الهنود المسجونين بسبب الديون. ولم يكره ذوو الأردية الكهنوتية أحدا مثله ولم يخش الذين يرتدون الفراكات مثله.

خيم الليل. فاح جو كيتو برائحة اللحم المحروق. وكما في كل يوم أحد عزفت الفرقة الموسيقية العسكرية الحان الفالس والباسيوس pasillos من على منصة الساحة الرئيسية.

أشعار حزينة
من كتاب الأغاني الإكوادوري

ليبتعد الجميع،
قفوا جانبا أو امضوا.
مرضي معد،
وأنا مليء بالألم.

أنا وحيد، ولدت وحيدا،
من أم مهجورة،
ووحيدا أبقى
ريشة في عاصفة.

كيف يجعل بيت مطلي
رجلا أعمى يغني؟
ما فائدة الشرفات للشارع
إذا كان لا يستطيع أن يرى شيئاً؟

1912: كانتون سانتا آنا Canton Santa Ana

سجل عادات مانابي

ولد إيلوي ألفارو على ساحل الإكوادور في إقليم مانابي. وفي تلك الأرض الحارة، منطقة الوقاحة والعنف لم يعر أحد، أدنى اهتمام، إلى قانون طلاقه الأخير الذي فُرض ضد الريح و المد. هنا، من الأسهل أن تصبح أرملاً بدلاً من أن يقبض عليك بشريطة حمراء ذلك أن السرير الذي ينام عليه اثنان يستيقظ عليه واحد. ويشتهر سكان مانابي بسرعة غضبهم وإفلاسهم وقلوبهم الكبيرة.

كان مارتن بيرا من سكان مانابي النادرين، ولقد صدئت مديته من بقائها طويلاً في غمدها. حين غزا خنزير الجيران حديقته الصغيرة، ورعى نباتات المنيهوت، ذهب مارتن ليتحدث مع عائلة روزادو، وطلب منهم، بلطف، أن يسجنوا الحيوان. وفي المناسبة الثانية، عرض مارتن أن يصلح الحيطان المهلهلة لزريبة خنازير عائلة روزادو مجاناً، ولكن، في المرة الثالثة التي كان الخنزير يمرح فيها في الحديقة أطلق عليه مارتن النار فخرّ الحيوان صريعاً وأعادته عائلة روزادو إلى أملاكها لتمنحه دفناً لائقاً بخنزير.

توقفت عائلة بيرا وروزادو عن تبادل التحيات. وبعد أيام، بينما كان الذي أعدم الخنزير يعبر جروف كالبو ممسكاً بعرف بغله، أردته رصاصة وعلقته من أحد الركابين. جر البغل مارتن بيرا إلى المنزل متأخراً جداً عن أية امرأة راكعة لتساعده في موت لائق.

فرت عائلة روزادو. وحين اصطادهم أبناء مارتن في دير فارغ قرب كوليماس أشعلوا ناراً حول المكان وكان على عائلة روزادو التي يبلغ عددها ثلاثين شخصاً أن تختار الموت. مات البعض حرقاً والبعض الآخر بالرصاص بعد أن ثقبوا كالمناخل.

حدث هذا منذ سنة أما الآن فقد التهمت الغابة حديقتي العائلتين تاركة أرضاً لا يملكها أحد.

1912: باجيو دي فلوريس

حروب العائلات

ورثت النخبة الأرض والكراهية في صحاري شمال شرق البرازيل. كانت أرضا حزينة تحتضر من الظمأ أما الحقد فقد تناقله الأقرباء من جيل إلى آخر، ومن انتقام إلى آخر، إلى الأبد وإلى يوم واحد. نشبت حرب أبدية في ثيارا بين عائلة كونا وعائلة باتاكا. ومارست عائلتا مونتيسيس وفيتوساس الإبادة المتبادلة. وفي باريبا صفت عائلتا دانتاسيس ونوبريكخاسيس بعضهما بعضا، وفي برنامبكو، في إقليم نهر باجيو، كان كل وليد من عائلة بيريرا يتلقى من والديه وجديه أمرا باصطياد وليد كاربالو وكل وليد من عائلة كاربالو يهيأ للقضاء على فرد من بيريرا.

اليوم، أطلق بيرغلينو دا سيلبا بيريرا، المعروف باسم لامبياو، طلقاته الأولى على شخص من كاربالو، وعلى الرغم من أنه لا يزال طفلا، أصبح، بشكل آلي، خارجا عن القانون.

لا تستحق الحياة كثيرا في هذه الأرجاء حيث المشفى الوحيد هو المقبرة. ولو كان لامبياو طفل الأغنياء فلن يكون عليه أن يقتل على حساب الآخرين. كان سيفعل هذا من أجله هو فقط.

1912: ديكيري

الحياة اليومية

في منطقة الكاريبي: غزو

كان تعديل بلات الذي قام به السيناتور بلات من كونيكتيكت هو مفتاح الدخول الذي استخدمته الولايات المتحدة للدخول إلى كوبا في أية ساعة. كان التعديل الذي أصبح جزءا من الدستور الكوبي يخول الولايات المتحدة أن تغزو وتتدخل ويمنحها سلطة أن تقرر من هو الرئيس المناسب لكوبا، ومن هو غير المناسب .

طبق الرئيس الحالي المناسب ماريو غارسيا مينوكال، الذي يرأس أيضا شركة السكر الكوبية الأميركية، تعديل بلات مستدعيا المارينز لإنهاء حالة عدم الاستقرار. كان كثير من السود في حالة تمرد ولم يكن أي منهم يقدر الملكية الخاصة تقديرا عاليا. جاءت سفينتان حربيتان وهبط المارينز على الشاطئ في ديكيري لحماية مناجم الحديد والنحاس التابعة لشركات النحاس الإسبانية الأميركية والكوبية التي هددها الغضب الأسود، ولحماية مطاحن السكر على طول سكك حديد غوانتنامو وسكك الحديد الغربية.

1912: نيكينو أومو Niquinohomo

الحياة اليومية في أميركا الوسطى: غزو آخر

دفعت نيكاراغوا للولايات المتحدة تعويضا ضخما مقابل الخسائر الأخلاقية التي سببها الرئيس الساقط ثيلايا الذي ارتكب اعتداء خطيرا وحاول أن يفرض الضرائب على الشركات الأميركية الشمالية.

وبما أن نيكاراغوا تفتقد للمال، قدم المصرفيون الأميركيون القروض الضرورية لدفع التعويض، وبما أن نيكاراغوا تفتقد للضمانات طلب وزير الخارجية الأمريكي فيلاندر نوكس من المارينز أن يتولوا مسؤولية الجمارك والبنوك الوطنية وسكك الحديد.

ترأس المقاومة بنخامين ثيليدون. كان لرئيس الوطنيين وجه جميل المحيا وعينان مندهشتان، ولم يستطيع الغزاة أن يرشوه لأنه يبصق على النقود وهكذا هزموه من خلال الخيانة.

أوغستو سيزر ساندينو، القن الذي لا أهمية له، والذي هو من قرية لا أهمية لها، رأى جثة ثيليدون تعبر وتجر في الغبار بينما رجلاه ويداه مقيدتان إلى سرج غاز ثمل.

1912: مكسيكو سيتي

هيرتا

بدا كجثة هالكة، وكانت نظارته، المعتمة والمشعة، الشيء الوحيد الذي بدا حيا في وجهه. تحول فيكتوريانو هيرتا، الذي كان حارسا شخصيا متطوعا لبرفريو دايات، إلى الديموقراطية حين سقطت الديكتاتورية، وأصبح اليد اليمنى للرئيس ماديرو، وكرس نفسه لاصطياد الثوار. في الشمال قبض على بانتشو بيا، وفي الجنوب على ملازم أول زاباتا خيادااردو ماغانا وأمر بإعدامهما رميا بالرصاص. كانت فرقة الإعدام تضع يدها على الزناد حين قاطع العفو الرئاسي الحفل فتنهد بيا قائلا: *جاء الموت إلي لكنه خسر الموعد.*

نقل الشخصان المنبعثان إلى زنزانة صغيرة في سجن تلاتيلولكو، وأمضيا الأيام والشهور وهما يتحدثان. كان ماغانا يتحدث عن زاباتا، وعن خطته في الإصلاح الزراعي، وعن ماديرو الذي يدير أذنا صماء، وهو حريص جدا أن لا يسيء للفلاحين أو مالكي الأراضي *وهو يمتطي حصانين في الوقت نفسه.*

وصل لوح صغير وبعض الكتب، وكان بانتشو بيا يعرف أن يقرأ البشر لكنه يجهل الحروف. علمه ماغانا، وسوية دخلا كلمة كلمة، طعنة سيف بعد طعنة، *قلاع المسلحين الثلاثة* ثم بدأا

بدأا رحلة عبر رواية دون كيخوته دي لا مانشا وعبر الطرق المجنونة لإسبانيا. وكان بانتشو بيا، المقاتل الصحراوي الشرس، يقلب الصفحات بيد عاشق.

قال له ماغانا: *هذا الكتاب... أتعرف؟ كتبه سجين. أحدنا.*

1913: مكسيكو سيتي

حبل بثمانية عشر سنتا

فرض الرئيس ماديرو ضريبة خفيفة على شركات النفط التي لم تمس إلى الآن فهدد السفير الأميركي الشمالي هنري لين ويلسون بالغزو وتوجهت عدة سفن حربية إلى ميناء مكسيكو، كما أعلن السفير، بينما كانت قوات الجنرال هيرتا المتمردة تقصف القصر الوطني.

نوقش مصير المكسيك في ردهة التدخين في السفارة الأميركية. وقرر تنفيذ قانون إطلاق النار في أثناء محاولة الهرب. وهكذا وضعوا ماديرو في سيارة وأمروه أن يغادر البلدة ثم ثقبوه بالرصاص حين قام بذلك.

حضر الرئيس الجديد الجنرال هيرتا مأدبة في نادي جوكي حيث أعلن أنه يمتلك علاجا جيدا لإمليانو زاباتا وبانتشو بيا وأعداء النظام الآخرين: وهو حبل بسعر ثمانية عشر سنتا.

1913: جوناكاتيبيك Jonacatepec

القبائل لم تدمر

اقترح ضباط هيرتا، المتورطون القدامى في إبادة الهنود المتمردين، أن ينظفوا المناطق الجنوبية. حرقوا القرى وأسروا الفلاحين، وكل من صادفوه سقط قتيلا أو سجينا. فمن الذي ليس زاباتا في الجنوب؟

كانت قوات زاباتا جائعة ومريضة ومنهكة. ولكن قائد الذين بلا أرض كان يعرف ماذا يريد وشعبه يؤمن بما يفعله. لم يكن بمقدور النار أو الخداع أن يقفا في وجه ذلك. وبينما كانت صحف العاصمة تقول إن *قبائل زاباتا دمرت كليا*، كان زاباتا يفجر القطارات، ويفاجئ الحاميات ويدمرها، ويحتل القرى ويهاجم المدن، ويتحرك أينما أراد، عبر الجبال التي لا تخترق والوهاد التي لا تعبر، مقاتلا وعاشقا وكان كل هذا هو عمل يوم واحد.

كان زاباتا ينام أينما يحب ومع من يحب ولكن، من بين كل هذا كان يفضل اثنتين هما واحدة.

زاباتا والاثنتان

كنا توأمين. سميت كل منا لوث في يوم معموديتنا وغريغوريا في يوم ولادتنا. سموها لوث وسموني غريغوريا. وهناك كنا فتاتين صغيرتين في المنزل حين جاء أبناء زاباتا ثم رئيسهم وحاولوا إقناع أختي أن تذهب معهم.

اسمعي، اذهبي معي.

وبالضبط في 15 أيلول جاء وأخذها.

فيما بعد، في تلك الحركة الدائرية المستمرة، ماتت شقيقتي في هوالتا من مرض يسمونه - ماذا يسمونه؟ - الرقاص. بقي معنا الزعيم زاباتا ثلاثة أيام وثلاث ليال دون أن يأكل أو يشرب. كنا قد أشعلنا الشموع لأختي فحسب حين أخذني بالقوة قائلا إنني ملكه لأنني كنت أنا وشقيقتي...

1913: سهول تشيواوا

شمال المكسيك يحتفل بالحرب وعيد القديس

كانت الديكة تصيح كلما شعرت بالقيام بذلك. لقد اشتعلت هذه الأرض وجنت وتمرد الجميع.

«سنذهب إلى الحرب يا امرأة».

«ولكن لماذا أنا؟»

«أتريدينني أن أموت من الجوع في الحرب؟ من الذي سيعد لي التورتيا؟»

كانت أسراب العقبان تتبع الأقنان المسلحين فوق السهول والجبال. إذا كانت الحياة لا تساوي شيئا فما الذي يمكن أن يساويه الموت؟ كان الرجال يرمون أنفسهم كالنرد في الاضطراب، ويعثرون على الانتقام أو النسيان، وعلى أرض لتغذيهم أو لتغطيهم.

ابتهج الأقنان: لقد جاء بانتشو بيا.

صاح المراقبون راسمين إشارة الصليب: جاء بانتشو بيا!

سأل الجنرال هيرتا: أين، أين هو؟

أجاب قائد حامية تشيواوا: في الشمال، في الجنوب، في الغرب وأيضا في اللامكان.

كان بانتشو بيا هو أول من يهجم أثناء مجابهة العدو نحو فكوك المدافع التي يصدر منها الدخان وحين يحمى وطيس المعركة يقهقه فحسب ويقفز قلبه كسمكة فوق الماء. كان ضباطه يقولون: *الجنرال لا يعاني من أية مشكلة، إنه عاطفي قليلا فحسب*. وهو هكذا. وكان من المعروف أنه ينتزع أحشاء الرسول الذي يعدو على حصانه محضرا أخبارا جيدة من الجبهة بطلقة واحدة. وكان يفعل ذلك من أجل المتعة فحسب.

1913: كلياكان Culiacan

رصاصات

ثمة رصاصات تمتلك مخيلة كما اكتشف مارتن لويس كوثمان. إنها رصاصات تسلي نفسها بإيلام اللحم. ولقد عرف رصاصات جدية تخدم العنف البشري لكنه لم يعرف تلك الرصاصات التي تلعب بالألم البشري.

وكونه راميا يمتلك قلبا طيبا عين الروائي لإدارة أحد مشافي بانتشو بيا. وكان الجرحى يتكومون على الأوساخ دون ملاذ سوى أن يطبقوا أسنانهم هذا إن كانوا يمتلكون أسنانا.

وبينما كان يفحص الأجنحة المكتظة كان كوثمان يؤكد المسارات غير المحتملة لتلك الرصاصات، ذات المخيلة، القادرة على إفراغ محجر العين تاركة الجسد حيا. أو تلصق قطعة من الأذن بالعنق وقطعة من العنق بالقدم. وشهد المتعة الشريرة للرصاصات، التي بعد أن تؤمر بقتل جندي، تحكم عليه ألا يجلس ثانية بتاتا وأن لا يأكل بفمه مطلقا.

1913: حقول تشيواوا

في أحد تلك الصباحات، قتلت نفسي

قتلت نفسي على طريق مكسيكي مغبر وترك الحدث في تأثيرا عميقا. لم تكن تلك جريمتي الأولى فمنذ أن ولدت في أوهايو منذ واحد وسبعين عاما، ومنذ أن سميت أمبروس بيرس دمرت حياة والدي وعددا من الأقرباء والزملاء. لطخت تلك الحوادث المؤثرة أيامي أو قصصي بالدماء ذلك أن الأمر سيان بالنسبة لي: فالفرق بين الحياة التي عشتها والحياة التي كتبتها هي قضية للمنكتين، الذين يسنون القانون البشري، وللنقد الأدبي، ولمشيئة الله في هذا العالم.

ولكي أنهي أيامي انضممت إلى قوات بانتشو بيا واخترت إحدى تلك الطلقات الطائشة الكثيرة التي تطن عبر السماء المكسيكية في تلك الأيام: وبرهنت هذه الطريقة أنها عملية أكثر من الشنق، وأرخص من السم، وملائمة أكثر من إطلاق النار بإصبعي، وأكثر شرفا من انتظار المرض أو الشيخوخة.

1914: مونتيفيديو

باتل Batlle

كتب مقالات شوهت سمعة القديسين وألف خطبا هاجمت الشركة التي تبيع العقارات في عالم الغيب. حين تولى رئاسة الأوروغواي لم يكن أمامه بديل سوى أن يقسم أمام الله والأناجيل المقدسة لكنه شرح حالا أنه لا يؤمن بأي منهما.

حكم خوسيه باتل ي أوردونيث متحدياً قوى السماء والأرض لكن الكنيسة وعدته بمكان ظريف في الجحيم. والشركات التي أممها أو أجبرها أن تحترم اتحادات عمالـها، وعمـل اليـوم المؤلـف مـن ثماني ساعات، ستغذي النار، وسينتقم الشيطان من اعتداءاته على المتفوقين عليه من الذكور.

قال أعداؤه حين أصدر قانونـا يسمح للنسـاء بإقامـة دعـوى مـن أجـل الطـلاق: «*إنـه يشـرع للفسق.*» وقالوا حين وسع قوانـين الإرث لتشـمل الأبنـاء غـير الشـرعيين: «*إنـه يفكـك الأسـرة*». وقالوا: «*إن دماغ المرأة أدنى*» حين أنشأ جامعة نسوية، وأعلن أن النساء سيحصلن على حقهن في التصويت حالا لكي لا تسير الديموقراطية في الأوروغواي على رجل واحدة، ولكي لا تبقى النسـاء إلى الأبد أطفالا ينتقلون من يدي الأب إلى يدي الزوج.

1914: سان إغناسيو

غيروكا

من غابة نهر بارانا حيث كان في منفاه الطوعي صفق هوراشيو غيروكا لإصلاحات باتل *ولذلـك الإيمان الحماسي بالأشياء النبيلة*.

لكن غيروكا كان بالفعل بعيدا عن الأوروغواي. غادر البلاد منذ بضع سنوات هاربـا مـن ظـل الموت بعد أن أعتمت لعنة حياته منذ أن قتل صديقه المفضل بينما كان يحاول الدفاع عنه أو ربمـا كان ملعونا من البداية.

في الغابة، على بعد خطوة من حطام الإرساليات اليسوعية، عـاش غيروكـا محاطـا بالخنـافس وأشجار النخيل وكتب قصصا دون انعطافات كمـا فتـح ممـرات في الدغـل وكتـب القصـص بـهيام كهيامه العاصف الذي عمل به في التربة والخشب والحديد.

ما كان غيروكا يبحث عنه لم يستطع أبدا أن يجده بعيدا عن هنا. هنا، نعـم، رغـم أن الأمـر نادرا ما حصل. في هذا المنزل الذي بنته يداه قرب النهر عاش غيروكا أحيانا متعة سماع أصوات أكثر قوة من نداء الموت: حقائق نادرة وهاربة عن الحياة والتي، فيما تستمر، تكون مطلقة كالشمس.

1914: مونتيفيديو

دلميرا

كان لديها موعد في تلـك الغرفـة المسـتأجرة مـع الرجـل الـذي كـان زوجـها. لأنـه يرغـب أن يمتلكها، يرغب أن يبقى معها، مارس الجنس معها ثم قتلها و انتحر.

نشرت صحف الأوروغواي صورة الجثة مستلقية على السرير: قتلت دلميرا برصـاصتين، وهـي عارية، مثل قصائدها التي لا ترتدي الأحمر.

دعنا نتوغل أكثر في الليل، دعنا ...

كتبت دلميرا أوغستين منتشية. وغنت لحمى الحياة دون شعور بالعار. وحكم عليها أولئك الذين يعاقبون النساء على ما يصفقن له في الرجل لأن الطهارة واجب أنثوي والرغبة، مثل العقل، امتياز ذكري. تسير القوانين في الأوروغواي أمام البشر الذين لا يزالون يفصلون الروح عن الجسد وكأنهما الحسناء والوحش. تدفقت أمام جثة دلميرا الدموع والعبارات عن تلك الخسارة التي لا تعوض للأدب الوطني ولكن النادبين شعروا، في أعماقهم، ببعض الراحة: ماتت المرأة وهذا أفضل.

لكن هل ماتت؟ ألن يكون جميع العشاق الذين يحترقون في ليالي العالم ظلال صوتها وأصداء جسدها؟ ألن يهيئوا في ليالي العالم مكانا صغيرا حيث يستطيع جسدها المتحرر من الأغلال أن يغني، وقدماها المشعتان أن ترقصا؟

1914: سيوداد خمينيث

تاريخ شعوب غاضبة

من صدمة إلى صدمة، ومن أعجوبة إلى أخرى، سافر جون ريد على طرقات شمال المكسيك بحثا عن بانتشو بيا وعثر عليه عند كل خطوة. كان ريد، مؤرخ الثورة، ينام أينما يحل الليل. لم يسرق أحد منه شيئا مطلقا، ولم يجعله أحد يدفع مقابل أي شيء سوى الرقص والموسيقى. وكان هناك دائما شخص يقدم له قطعة تورتيا أو مكانا لحصانه.

من أين جئت؟

من نيويورك.

حسنا، لا أعرف أي شيء عن نيويورك، ولكن أراهنك إن كنت تشاهد قطيعا رائعا يسير في الشوارع كالذي تشاهده في شوارع خمينيث؟

امرأة تحمل على رأسها إبريقا وأخرى تقعي لترضع وليدها وثالثة تركع على ركبتيها وتطحن الذرة والرجال، الذين يرتدون أغطية ذاوية، يجلسون في حلقة يشربون ويدخنون.

اسمع يا خوانيتو، لماذا لا يحب شعبك المكسيكيين؟ لماذا يسموننا صانعي الدهون؟

كان الجميع يمتلكون أسئلة ليطرحوها على الرجل النحيل ذي النظارة الذي بدا وكأنه هنا بسبب غلطة.

اسمع يا خوانيتو كيف تقول «بغل» بالإنكليزية؟

بغل عنيد برأس سمين.

1914: سولت ليك سيتي

مغني الشعوب الغاضبة

حكموا عليه لأنه غنى أناشيد حمراء سخرت من الله، أيقظت العمال ولعنت النقود. لم يقل الحكم أن جو هيل شاعر بروليتاري متجول، أو بشكل أسوأ، أجنبي يهدف إلى تدمير النظام الجيد للعمل. تحدث الحكم عن الهجوم والجريمة، ولم يكن ثمة برهان، والشهود كانوا يغيرون شهادتهم في كل مرة. وتصرف محامو الدفاع كأنهم المدعون. لكن هذه التفاصيل افتقدت الأهمية بالنسبة للقضاة الذين يصدرون القرارات في سولت ليك سيتي. قيد جو هيل إلى كرسي ووضعت دائرة كرتونية على صدره كهدف لفرقة الإعدام.

جاء جو هيل من السويد وتجول على طرقات الولايات المتحدة. نظف المباصق في المدن، وشيد الجدران، حزم القمح وقطف الفاكهة في الريف، نقب عن النحاس في المناجم، وحمل الأكياس على أرصفة المرفأ. نام تحت الجسور وفي المخازن وكان يغنى في كل مكان وفي أي وقت. لم يتوقف مطلقا عن الغناء، وودع أصدقاءه مغنيا. ذلك أنه سينطلق، الآن، إلى المريخ ليزعج سلامه الاجتماعي.

1914: توريون

يسيرون على سكة الحديد إلى المعركة

في سيارته الحمراء، التي تعرض اسمه بأحرف ذهبية كبيرة، استقبل الجنرال بانتشو بيا جون ريد. استقبله مرتديا سرواله التحتاني، سكب له القهوة ودرسه لوهلة طويلة. وحين قرر أن هذا الغرينغو يستحق أن يصغي إلى الحقيقة بدأ يتحدث.

«*يريد سياسيو الشوكولاتة أولئك المعطرون أن يربحوا دون توسيخ أيديهم.*»

ثم أخذه ليزور المشفى الميداني الذي كان قطارا يحوي غرفة عمليات وفيه أطباء يعالجون رجاله وأشخاصا آخرين. أراه السيارات التي تنقل الذرة، والسكر، والبن، والتبغ إلى الجبهة. وأراه أيضا المنصة التي يعدم عليها الخونة.

كانت سكك الحديد، التي بناها برفريو داياث، الطريق إلى السلام والنظام، والمفتاح الرئيسي لتقدم بلاد بلا أنهار أو طرقات. ولقد أنشئت، لا لكي تنقل قوما مسلحين، بل مواد أولية رخيصة وعمالا طيعين وجلادي التمردات. لكن الجنرال بيا كان يشن الحرب من القطار ولقد سير من كامارخو قاطرة بسرعة قصوى ودمر قطارا مليئا بالجنود. دخل رجال بيا سيوداد خواريث رابضين في سيارات فحم بريئة وبعد إطلاق عدة طلقات احتلوها بسبب المتعة لا الضرورة. كان جنود بيا يذهبون إلى الخطوط الأمامية للحرب بالقطار وكانت القاطرة تشهق متسلقة، بألم، المنحدرات الشمالية الجرداء. ومن خلف ريش دخان أسود تخرج سيارات مهتزة، تصدر صريرا، مليئة

بالجنود والأحصنة، وعلى سطوحها تبزغ البنادق، والصمبريرات، والمدافئ. وبين الجنود الذين يغنون المانانيتاس mananitas ويطلقون النار في الجو يزعق الأطفال وتطبخ النساء ـ النساء المجندات يرتدين ثياب العرس، وينتعلن الأحذية الحريرية من النهب الأخير.

1914: حقول موريلوس

حان وقت الحركة والقتال

كان صدى الزئير والطلقات كانهيال جبل فيما جيش زاباتا، الذي يهبط إلى المزارع ويصعد إلى القرى، يفتح الطريق إلى مكسيكو سيتي.

حول الزعيم زاباتا، كان الجنرال (جينوفيفو دي لا أو) يتأمل وينظف بندقيته، وكان وجهه كشمس بشارب، بينما كان أوتيليو مونتانو، الفوضوي، يناقش بيانا مع أنطونيو دايات سوتو ي غاما الاشتراكي. كان بين ضباط ومستشاري زاباتا امرأة واحدة فحسب وهي الكولونيل روزا بوباديا، التي ربحت رتبتها في الحرب، وهي تقود جماعة من الخيالة وتدعم حظرا لتناول الشراب حتى ولو كان قطرة تيكيلا. كانوا يطيعونها بشكل غامض رغم أنهم بقوا مقتنعين أن النساء لسن جيدات إلا لتزيين العالم ولإنجاب الأطفال وطبخ الذرة وصلصة الفلفل والفاصولياء أو أي شيء يقدمه الله ويسمح به.

1914: مكسيكو سيتي

هيرتا يهرب

هرب هيرتا على السفينة نفسها التي نقلت برفريو دايات من مكسيكو.

كانت الأسمال تنتصر في الحرب ضد الثياب الفاخرة وانقض مد من الفلاحين على العاصمة. زاباتا، ذلك *الأتيلا من موريلوس*، وبانتشو بيا، *إنسان الغاب الذي يأكل اللحم النيئ ويقضم العظام*، هجما من الشمال لينتقما من الظالمين. وقبل عيد الميلاد تماما عرضت صحف مكسيكو سيتي على صفحاتها الأولى حواشي سوداء تندب وصول الخارجين عن القانون، البرابرة المنتهكين للفتيات والأقفال.

كانت أياما مضطربة لم يعرف فيها أحد الآخر وكانت المدينة ترتجف من الذعر وتتنهد من الحنين. والبارحة فقط، في محور العالم، كان الأسياد في منازلهم الكبيرة مع أتباعهم و بيانوهاتهم وشمعداناتهم ورخام كارارا وحولهم الأقنان، وفقراء الأحياء الفقيرة، الدائخون من شراب البلكة، يرمون في القمامة، محكومين بالأجور أو البقشيش الذي لا يكاد يشتري بعض الحليب المخلوط بالماء أو بن فريجول أو لحم الحمير.

1915: مكسيكو سيتي

لم يستولوا على السلطة

قرع جبان، في مكان ما بين الرغبة والامتناع. فتح الباب إلى المنتصف. رأس غير مغطى، صمبريرة ضخمة تمسكها يدان تتوسلان، حبا بالله، من أجل الماء والتورتيا. كان رجال زاباتا الهنود، الذين يرتدون بنطلونات بيضاء وأحزمة خرطوش متصالبة على صدورهم، يتجولون في شوارع المدينة التي تحتقرهم و تخشاهم. لكن، لم توجه إليهم دعوة في أي مكان. وفي لمح البصر التقوا برجال بيا، الأجانب الضائعين أيضا والعميان.

قرقعة ناعمة للأخفاف على الدرجات الرخامية، أقدام خائفة من متعة السجاد، وجوه تحدق، محتارة، في مرايا من الأرضيات الشمعية: دخل رجال زاباتا وبيا القصر الوطني وكأنهم يلتمسون عذرا. جلس بيا على الكرسي ذي الذراعين المموه بالذهب الذي كان عرش برفريو دايات ليرى أي إحساس يقدمه بينما تمتم زاباتا، الذي إلى جانبه، أجوبة إلى الصحفيين وكان يرتدي بزة مزركشة جدا وعلى وجهه تعبير من هو هناك دون أن يكون هناك.

انتصر قائدا الفلاحين لكنهما لم يعرفا ماذا يفعلان بنصرهما: *إن هذا الكوخ كبير علينا*.

إن السلطة هي شيء ما للأطباء، لغز مهدد لا يمكن أن يفك شيفرته سوى المثقفين، أولئك الذين يفهمون فن السياسة الراقي، *أولئك الذين ينامون على مخدات ناعمة*.

حين خيم الليل ذهب زاباتا إلى فندق قذر على بعد خطوة من سكة الحديد التي تقود إلى بلاده وذهب بيا إلى قطار عسكري وودعا، بعد بضعة أيام، مكسيكو سيتي.

اكتشف أقنان المزارع، هنود الجماعات، منبوذو الريف، مركز السلطة وشغلوه للحظة وكأنهم في زيارة، على رؤوس أصابع أقدامهم، متلهفين لينهوا، بالسرعة الممكنة، تلك الرحلة إلى القمر. هؤلاء الغرباء عن مجد النصر عادوا إلى الأراضي التي عرفوا أن يتحركوا فيها دون أن يضيعوا.

لم يتخيل خليفة هيرتا أنباء أفضل من هذه. كان هو الجنرال بينستيانو كارانثا الذي كانت قواته المسحوقة تنتعش بفضل مساعدة الولايات المتحدة.

1915: تلالتيثابان Tlaltizapan

الإصلاح الزراعي

في طاحونة قديمة في قرية تلالتيثابان بنى زاباتا مقره. هنا، في مقاطعته، بعيدا عن اللوردات ذوي الشوارب الخدية، وسيداتهم المريشات، بعيدا عن المدينة الخاطفة للبصر والمخادعة، سحق زعيم متمردي موريلوس المزارع الكبيرة، أمم مطاحن السكر ومعامل التقطير، دون أن يدفع قرشا واحدا، وأعاد للجماعات أراضيها التي سرقت منذ قرون. ولدت قرى حرة من جديد، ولد ضمير

وذاكرة التقاليد الهندية ومعها الديموقراطية المحلية. هنا لا يصدر البيروقراطيون أو الجنرالات القرارات، وإنما تصدرها الجماعة المجتمعة في ندوة مفتوحة. منع بيع أو تأجير الأرض، ومنع اشتهاء الملكية.

في ظل الغار، في ساحة القرية، لا يدور الحديث عن مصارعة الديكة والأحصنة والمطر. كان جيش زاباتا، عصبة الجماعات المسلحة، يحرس الأراضي المستعادة، يزيت بنادقه ويعيد تذخيرها بخرطوش قديم.

كان تقنيون شبان يحضرون إلى موريلوس مناصب ثلاثية القوائم وأدوات أخرى غريبة ليساعدوا الإصلاح الزراعي. استقبل الفلاحون أولئك المهندسين الشبان من كيرنباكا بمطر من الأزهار لكن الكلاب نبحت على الرسل الذين يمتطون الأحصنة ويعدون من الشمال حاملين أنباء سيئة مفادها أن جيش بانتشو بيا قد سحق.

1915: إل باسو El Paso

أثويلا Azuela

نفي طبيب من جيش بانتشو بيا إلى تكساس بعد أن اعتقد أن الثورة المكسيكية انفجار لا فائدة منه. قالت رواية ماريانو أثويلا *الخاسرون* إن الثورة حكاية رجال عميان سكارى يطلقون النار دون أن يعرفوا لماذا أو على من. يندفعون كحيوانات بحثا عن أشياء يسرقونها أو امرأة يرمونها على الأرض في أرض تفوح، إلى درجة النتانة، برائحة البارود والدهن المقلي.

1916: تلالتيثابان

كارانثا

كانت صلصلة مهاميز خيالة بيا لا تزال تسمع في الجبال لكنهم لا يشكلون جيشا. من خنادق تدافع عنها أسلاك شائكة قامت الرشاشات بعملية تنظيف جيدة، في أربعة معارك طويلة، لخيالة بيا الناريين الذين طحنوا إلى غبار وهم يشنون هجمات انتحارية عنيدة ومتكررة.

بينستيانو كارانثا الذي أصبح رئيسا رغم أنف كل من بيا وزاباتا، شن الحرب في الجنوب قائلا:

إن هذا العمل الذي يهدف إلى تقسيم البلاد جنوني.

أعلن مرسوم أن الأراضي التي وزعها زاباتا ستعاد إلى مالكيها القدامى ووعد مرسوم آخر بإطلاق النار على كل من هو من جماعة زاباتا.

هجمت القوات الحكومية على حقول موريلوس المزدهرة مطلقة نار البنادق وحارقة بالمشاعل. قتلت خمسمائة شخص في تلالتيثابان وعددا كبيرا في مكان آخر. بيع السجناء في يوكاتان كعبيد

عمل لمزارع الهينيكوين كما حدث أيام برفريو داياث أما المحاصيل والقطعان، التي هي غنائم حرب، فقد أخذت إلى أسواق العاصمة.

قاوم زاباتا في الجبال وحين اقترب فصل المطر وتوقفت الثورة من أجل الزراعة، ولكن فيما بعد استمرت، بعناد، وبشكل لا يصدق.

1916: بوينس آيرس

إسادورا

حافية القدمين، وعارية، وبالكاد مكتسية بالراية الأرجنتينية، رقصت إسادورا دنكن على إيقاع النشيد الوطني في مقهى للطلبة في بوينس آيرس. وفي اليوم التالي عرف العالم كله بذلك. ألغى المدير العقد وألغت الأسر الجيدة حجزها في مسرح كولون وطلبت الصحافة الطرد الفوري لتلك الأميركية الشمالية المسيئة التي جاءت إلى الأرجنتين لتلطخ الرموز الوطنية.

لا تستطيع إسادورا أن تفهم ذلك. ذلك أنه لم يحتج أي فرنسي حين رقصت على إيقاع النشيد الوطني الفرنسي عارية إلا من شال أحمر. إذا كان بوسع المرء أن يرقص بإيحاء من عاطفة أو فكرة فلماذا لا يستطيع أن يرقص على إيقاع النشيد الوطني؟

الحرية تسيء. هذه المرأة ذات العينين المشعتين هي العدو المعلن للمدارس والأمومة والرقص الكلاسيكي ولكل ما يسجن الريح. ترقص من أجل متعة الرقص، ترقص حين تريد وكما ترغب، وتخرس الأوركسترات أمام الموسيقى التي تولد من جسمها.

1916: نيو أورليانز

جاز

جاءت أكثر أنواع الموسيقى حرية من العبيد. هذه الموسيقى هي الجاز التي تطير دون أن تطلب أذنا. أجدادها هم السود الذين غنوا أثناء عملهم في مزارع مالكيهم في جنوب الولايات المتحدة. أما آباؤها فهم موسيقيو بيوت الدعارة السوداء في نيو أورليانز. كانت فرق بيوت الدعارة تعزف طول الليل، دون توقف، على الشرفات التي تحميها من شجار الشارع وولدت من ارتجالاتها الموسيقى الجديدة.

من مدخراته التي جمعها من بيع الجرائد والحليب والفحم اشترى شاب قصير رعديد بوقه الخاص بعشرة دولارات. كان ينفخ فتخرج الموسيقى وتحيي اليوم. لوي أرمسترونغ، هو، مثل الجاز، حفيد للزنوج، وربي، كالجاز، في بيت للدعارة.

1916: كولمبس

أميركا اللاتينية تغزو الولايات المتحدة

المطر يسقط نحو الأعلى. الدجاج يعض الثعالب، والأرانب البرية تطلق النار على الصياد. لأول مرة في التاريخ يغزو الجنود المكسيكيون الولايات المتحدة.

بالقوة المسحوقة المتبقية، بخمسمائة رجل من بين آلاف كثيرة كانت تتبعه، عبر بانتشو بيا الحدود صائحاً: تحيا المكسيك! وسقطت زخات الرصاص على مدينة كولمبوس في تكساس.

1916: ليون

داريو[1]

في نيكاراغوا، الأرض المحتلة والذليلة، مات روبن داريو. قتله الطبيب ثاقباً كبده بشكل مهلك. عذب بقاياه المعطر والحلاق والمزين والخياط. فُرضت عليه جنازة فخمة وفاح هواء شباط الدافئ في مدينة ليون بالبخور والمر. السيدات الأكثر تميزاً، المزينات بالزنبق وريش مالك الحزين، خدمن كخادمات وعذراوات مينرفا ونثرن الأزهار على طول طريق موكب الجنازة.

محاطة بالشموع والمعجبين، ارتدت جثة روبن داريو سترة يونانية وتاجاً من الغار في النهار، وفي الليل فراكاً أسود رسمياً وقفازاً يتماشى معه. وطول أسبوع، ليلاً ونهاراً، نهاراً وليلاً، عُذِّب بقراءات لا تنتهي من الأشعار الزائفة ومُتِّع بخطب أعلنت أنه الشاعر الخالد، مسيح القيثارة الإسبانية وشمشون الاستعارة.

زأرت المدفعية وساهمت الحكومة في الشهادة من خلال تكويم الأوسمة العسكرية على الشاعر الذي وعظ مبشراً بالسلام. لوح الأساقفة بالصلبان ورنت أجراس البرج. في أوج هذا الجلْد رُميَ الشاعر الذي آمن بالطلاق وتعليم المواطنين العاديين في الحفرة مُحوّلاً، إلى ملكٍ للكنيسة.

1917: حقول تشيواوا ودورانجو

من نسور إلى دجاج

دخلت بعثة تأديبية مؤلفة من ألف جندي وكثير من المدفعية إلى مكسيكو لتجبر بانتشو بيا على دفع ثمن هجومه «الوقح» على مدينة كولمبوس الأميركية الشمالية.

أعلن الجنرال جون برشنغ بينما كان رعد مدافعه يرجّع صدى كلماته: *سنحضر ذلك القاتل في قفص حديدي.*

---

[1] – من شعراء الحداثة في أميركا اللاتينية.

وعبر ضخامة الشمال المكسيكي، المصاب بالقحط، عثر الجنرال برشنغ على بعض القبور: هنا دفن بانتشو بيا ـ دون أن يكون بيّا في أي منها. عثر على الأفاعي والعظاءات والأحجار الصامتة وعلى فلاحين يتمتمون دلائل مزيفة حين يضربون أو يهددون أو يعرض عليهم كل ذهب العالم.

بعد بضعة شهور، تقريباً بعد عام، عاد برشنغ إلى الولايات المتحدة مع قافلة طويلة من الجنود المتلئين بالغبار بينما الناس يقذفونهم بالحجارة والأكاذيب في جميع القرى الصغيرة في تلك الصحراء المليئة بالحصى. سار ملازمان شابان على رأس الموكب الذليل وكلاهما متعمد بالنار في المكسيك. بالنسبة إلى دوايت أيزنهاور، المتخرج حديثاً من ويست بوينت، كانت هذه بداية غير محظوظة على الطريق العسكري إلى المجد. بصق جورج بتون وهو يغادر *هذه البلاد الجاهلة ونصف المتوحشة*. من على قمة الهضبة نظر بانتشو بيا إلى الأسفل وعلق قائلاً: *جاؤوا كالنسور ويغادرون الآن كالدجاج الذي يشخُّ تحته*.

1918: كوردوبا

باحثون رجعيون

بعد مَنْعٍ بدأ منح الشهادات في جامعة كوردوبا الأرجنتينية إلى أولئك الذين لا يمتلكون قدرة على تحديد نسبهم الأبيض كما كانت الحالة منذ بضع سنوات. لكن الواجبات تجاه الخدم لا تزال موضوعاً يدرس في منهاج فلسفة القانون، ولا يزال طلاب الطب يتخرجون دون أن يشاهدوا مريضاً.

كان البروفسورات، الأشباح الموقرة، يحاكون أوروبا منذ عدة قرون خلت، عالم سادة ضائع وسيدات ورعات، والجمال الشرير لماض استعماري. كانت ميزات الببغاء وفضائل القرد تُكَافأ بشذابات وشرابات.

كان طلاب كوردوبا يتغذون وينفجرون من الغضب. قاموا بإضراب ضد ساجني الروح داعين الطلاب والعمال في جميع أنحاء أميركا اللاتينية إلى القتال من أجل ثقافة خاصة بهم فترددت من المكسيك إلى تشيلي أصداء جبارة.

1918: كوردوبا

الآلام التي تنتشر هي الحريات التي نفتقدها، يعلن بيان الطلاب

... قررنا أن نسمي جميع الأشياء بأسمائها الصحيحة. كوردوبا تشفي نفسها. من اليوم نعد لبلادنا عاراً أقل وحرية زائدة. إن الآلام المنتشرة هي الحريات التي نفتقدها. نؤمن أننا لسنا على خطأ، هذا ما يقوله لنا إيقاع القلب: نحن ندوس على حواشي الثورة، نحن نعيش ساعة أميركية.

كانت الجامعات، حتى ذلك الوقت، ملاذاً علمانياً للاعتدال، ومصدر دَخْل للجهلة، ومشفى آمناً لغير الأصحاء. والأسوأ من ذلك، أصبحت مكاناً عثرت فيه جميع أشكال الطغيان على بروفيسور يقوم على تدريسها. وهكذا عكست الجامعات، بإخلاص، تلك المجتمعات المنحطة التي قدمت المشهد الحزين للثبات الخرف. لهذا السبب، لجأ العلم، فيما يواجه تلك المؤسسات المغلقة والساكنة، إلى الصمت، أو دخل في خدمة البيروقراطية، مبتوراً، وشاذاً...

1918: إلوبانغو

ميغيل في الثالثة عشرة

وصل إلى ثكنات إلوبانغو وقد ساقه الجوع الذي أغرق عينيه في أعماق رأسه.

في الثكنات، ومقابل الطعام، بدأ ميغيل يقوم بالرحلات ويلمع أحذية الضباط، وتعلم بسرعة أن يشق جوز الهند بضربة منجل واحدة، كأنه أعناق، وأن يطلق النار بالقربينة دون أن يضيِّع الذخائر. وهكذا أصبح جندياً.

بعد عام من الحياة في الثكنات انهار الولد البائس. بعد أن تحمل طويلاً الضباط السكارى الذين كانوا يضربونه، دون سبب، هرب ميغيل. وتلك الليلة، أي ليلة هربه، كانت ليلة زلزال إلوبانجو.

سمعه ميغيل من مكان بعيد. طوال يومين هزت الأرض السلفادور، تلك البلاد الصغيرة ذات البشر الدافئين، إلى أن جاء، بين هزة وأخرى، الزلزال الحقيقي، الزلزال الأكبر، الذي انفجر وهدم كل شيء. هدم الثكنات دون أن يترك فيها حجراً فوق آخر وسحق الجنود والضباط على السواء لكن ميغيل نجا.

وهكذا حصلت الولادة الرابعة لميغيل مارمول في سن الثالثة عشرة.

1918: جبال موريلوس

أرض مخربة، أرض حية

هل الخنازير والأبقار والدجاج من جماعة زاباتا؟ وماذا عن الأباريق والمقالي والآنية؟ أبادت قوات الحكومة نصف سكان موريلوس في أعوام حرب الفلاحين العنيدة وأخذت كل شيء.

لم يبق في الحقول إلا الأحجار وسيقان النباتات المتفحمة، حطام منزل، امرأة ترفع محراثاً.

أما الذين لم يموتوا من الرجال فقد أصبحوا خارجين عن القانون.

لكن الحرب استمرت، وستستمر طالما أن الذرة تنبت في شقوق الجبال السرية وطالما أن عيني زاباتا تومضان.

1918: مكسيكو سيتي

البرجوازية الجديدة تولد كاذبة

قال زاباتا: *نحن نقاتل من أجل الأرض وليس من أجل أوهام لا تقدم لنا شيئاً نأكله... بانتخابات أو بدون انتخابات، البشر يمضغون المرارة.*

وبينما كان الرئيس كارانثا يجرد الفلاحين من الأرض تحدث عن الإصلاح الزراعي. وبينما كان يطبق إرهاب الدولة على المواطنين، منحهم حق التصويت للأغنياء ومنح الأميين حرية الصحافة.

البرجوازية المكسيكية الجديدة، الابنة الشرهة للحرب والنهب، تغني أغاني في مدح الثورة بينما تبتلعها، بالسكين والشوكة، على غطاء طاولة مطرز.

1919: كواوتلا cuautla

علمهم هذا الرجل أن الحياة ليست فقط خوفاً من المعاناة وأملاً بالموت

كان يجب أن يتم هذا من خلال الخيانة. صداقة مخادعة، ضابط حكومي يقوده إلى المصيدة. كان ألف جندي ينتظرون وأسقطته ألف بندقية عن حصانه.

فيما بعد، نقلوه إلى كواوتلا Cuautla وعرضوه ووجهه إلى الأعلى. تدفق فلاحون من كل مكان إلى هناك لكي يشاهدوا عرض الجند الذي استمر عدة أيام. حين اقتربوا من الجسد نزعوا صمبريراتهم ونظروا بانتباه وهزوا رؤوسهم. لم يصدق أحد ذلك، ثمة ثؤلول مفقود وندوب كثيرة، وتلك البزة ليست له، وهذا الوجه المنتفخ من طلقات كثيرة يمكن أن يكون وجه أي شخص.

تحدث الفلاحون بهمسات بطيئة قاشرين الكلمات كحبات الذرة:

يقولون إنه ذهب مع صديق إلى شبه الجزيرة العربية.

إلى الجحيم، زاباتا لا يجبن.

لقد شوهد على مرتفعات كويلاميولا.

أعرف إنه ينام في كهف في سيرو بريتو.

البارحة كان حصانه يشرب من النهر.

لم يصدق فلاحو موريلوس، ولن يصدقوا، أن إمليانو زاباتا ارتكب عار أن يموت ويتركهم وحدهم.

أنشودة موت زاباتا

أيها النجم الليلي الصغير
الذي يمتطي السماء كساحرة
أين زعيمنا زاباتا
الذي كان سوطاً مسلطاً على الأغنياء؟

يا زهرة الحقول الصغيرة
ويا أودية موريلوس
إذا سألوا عن زاباتا
قولوا إنه ذهب ليجرب الهالات.

أيها الجدول الصغير المليء بالفقاعات
ماذا يقول لك ذلك اللون القرنفلي؟
يقول إن زعيمنا زاباتا لم يمت
إن زاباتا في طريقه إليكم.

1919: **هوليود**

شابلن

في البدء كانت الأسمال.

ومن كيس فضلات استوديوهات كيستون اختار شارلي شابلن الثياب الأقل فائدة، الكبيرة جداً، الصغيرة جداً، القبيحة جداً، وارتداها سوية كأنه ينقب في علبة قمامة. بنطلون فضفاض، سترة قزم، قبعة بولر وحذاء ضخم مهترئ. أضاف إلى ذلك شارباً داعماً وعكازاً. ثم نهضت كومة الثياب الصغيرة المنبوذة، حيّت مؤلفها بانحناءة سخيفة، وانطلقت تسير كالبطة. اصطدم شابلن، بعد بضع خطوات، بشجرة فطلب الصفح منها رافعاً قبعته.

هكذا جاء إلى الحياة شارلي، المتشرد، المنبوذ والشاعر.

1919 : **هوليود**

كيتون

الرجل الذي لا يضحك مطلقاً يبتكر الضحك.

مثل شابلن، بستر كيتون ساحر هوليودي. بطله المنبوذ ـ القبعة القشية، الوجه الحجري، جسم الهرة ـ لا يشبه في أي شيء شارلي المتشرد لكنه يتورط في الحرب السخيفة نفسها مع الشرطة والزعران والآلات. ودائماً يكون فاقد الحس، جليدياً من الخارج، مشتعلاً من الداخل، يسير بكرامة كبيرة على الأسوار، في الجو وفي قاع البحر.

ليس كيتون مشهوراً مثل شابلن. أفلامه تسلي ولكن، بكثير من الغموض، بكثير من الكآبة.

1919: ممفيس

آلاف البشر يهرعون إلى العرض

والكثير منهم نساء يحملن بين أذرعهن أطفالا ويصل أداء الأسرة إلى أوجه حين يعمد إل برسونز، المقيد إلى وتد، بالنار وتسحب ألسنة اللهب صرخاته الأولى.

غادر الجمهور بعد وقت ليس بطويل، بأسلوب منظم، شاكيا من قصر هذه الأمور وحرك البعض الرماد بحثا عن عظم يكون تذكارا.

إل برسونز هو أحد السود السبعة وسبعين الذين شووا أحياء أو شنقهم الحشد الأبيض هذا العام في جنوب الولايات المتحدة لارتكاب جريمة أو فعل اغتصاب ـ أي بسبب النظر إلى امرأة بيضاء وربما بسبب نظرة فاسقة قائلا: نعم بدلا من نعم سيدتي. أو لأنه لم ينزع قبعته قبل الكلام.

بين أولئك الزنوج الذين أعدموا دون محاكمة كان البعض ممن يرتدون الزي العسكري للولايات المتحدة الأميركية أو ممن أسروا بانتشو بيا في صحارى المكسيك الشمالية أو أعيدوا حديثا من الحرب العالمية.

1921: ريو دي جانيرو

مسحوق الأرز

اقترح الرئيس إبيتاسيو بسوا على مدراء كرة القدم البرازيلية، لأسباب تتعلق بالهيبة الوطنية، ألا يرسلوا أي لاعب أسود الجلد إلى بطولات كرة القدم الأميركية الجنوبية القادمة.

وحدث أن فازت البرازيل العام الماضي بفضل آرتر فريدينريك Artur Friedenreich الذي أحرز هدف الفوز، والذي لا يزال بوطه الموحل معروضا في واجهة محل لبيع المجوهرات. فريدينريك، المولود من ألماني وسوداء، هو أفضل لاعب في البرازيل. دائما يصل إلى الملعب متأخرا ذلك أنه يمضي نصف ساعة في حجرة الملابس حيث يكوي شعره الجعد لكي لا تتحرك أية شعرة في أثناء اللعب حتى حين يسدد الكرة برأسه.

إن كرة القدم، ذلك اللهو الظريف الذي يتم بعد القداس، هي شيء خاص بالبيض.

مسحوق الذرة! مسحوق الذرة! تصرخ المراوح لكارلوس ألبيرتو الخلاسي الآخر اللاعب في نادي فلومينينسي Fluminense الذي يبيض وجهه بمسحوق الذرة.

1921: ريو دي جانيرو

بخينغينا Pixinguinha

أُعلن أن فرقة الباتونز Batons ستظهر حالاً على مسرح باريس وتصاعد الاستياء في الصحف البرازيلية.

ما الذي سيظنه الأوروبيون؟ هل سيتخيلون أن البرازيل مستعمرة أفريقية؟ لا تحتوي مجموعة الباتونز على ألحان أوبرالية بل على ألحان محلية والسامبا الحديثة الولادة. إنها أوركسترا من السود تعزف موسيقى سوداء. حضت المقالات الحكومة على منع العار وشرحت وزارة الخارجية بسرعة أن الباتونز ليست بعثة رسمية.

بخينغينا، أحد أفراد الفرقة السود، هو أفضل موسيقي في البرازيل. لا يعرف ذلك ولا يهمه ذلك ذلك أنه مشغول جداً بالبحث في مزماره، بمتعة شيطانية، عن أصوات مسروقة من الطيور.

1921: ريو دي جانيرو

مؤلف البرازيل المطابق للزي الحديث

دشن كويلو نيتو Coelho Neto مسبحاً في ناد رياضي ورفع خطابه من شأن فضائل المسبح واستدر الدموع والتصفيق. استحضر كويلو نيتو قوى البحر والسماء والأرض *في هذه المناسبة الوقورة والعظيمة إلى درجة أننا لا نقدر أن نقيمها دون أن نتعقب، في ظلال الزمن، بروزها في المستقبل.*

ليما باريتو، المؤلف غير الدارج، الملعون كخلاسي ومتمرد، والذي لأنه رد اللعنة مات في مشفى مجهول، شجب *حلويات الأغنياء.*

سخر ليما باريتو من أبهة الكتاب الذين يرددون كالببغاوات أدب الثقافة المنمقة، وينشدون لمجد برازيل سعيدة دون سود وعمال أو فقراء، برازيل مسكونة باقتصاديين فقهاء، فكرتهم الأصلية هي أن يفرضوا مزيداً من الضرائب على الشعب، برازيل تحوي مائتين واثنين وستين جنرالاً كل ما يفعلونه هو تصميم بزات جديدة لعرض العام القادم.

1922 : **تورنتو**

إنقاذ مؤقت

أنقذ آلاف من المحكومين بموت مبكر ولم يكن هذا خلاصاً جمهورياً أو ملكياً وإنما تم على يد طبيب كندي كان يبحث، منذ أسبوع، عن عمل ولا يحمل في جيبه إلا سبعة سنتات.

بحدبة حرمته من النوم، وبعد كثير من الأخطاء والإحباط اكتشف فريد بانتنغ Fred Banting أن الأنسولين الذي يفرزه البنكرياس يخفض السكر في الدم وهكذا خفف أحكام الموت الكثيرة التي فرضها داء البول السكري.

1922 : **ليفنوورث**

من أجل إيمانه المتواصل أن كل شيء ملك للجميع

كان ريكاردو، الأكثر موهبة وخطراً بين الأخوة فلوريس ماجون، غائباً عن الثورة التي فعل الكثير لكي يفجرها. وبينما كان قدر المكسيك يضعف في ساحات المعركة، كان يكسر الأحجار مغلولاً في سجن أميركي شمالي.

حكمت عليه محكمة أميركية شمالية بعشرين عاماً من الأشغال الشاقة لأنه أنشد بياناً فوضوياً ضد الملكية الخاصة، ولقد عرض عليه العفو مرات كثيرة، شرط أن يلتمسه، لكنه لم يفعل ذلك مطلقاً.

حين أموت ربما سيكتب أصدقائي على قبري: هنا يرقد حالم. وربما يكتب أعدائي: هنا يرقد مجنون، لكن لن يتجرأ أحد أن يكتب هنا يرقد جبان وخائن لأفكاره.

في زنزانته، بعيداً عن أرضه، شنقوه وقال التقرير الطبي إنه مات من أزمة قلبية.

1922: **حقول باتاغونيا**

إعدام العمال

خرج أرستقراطيون شبان من عصبة الأرجنتين الوطنية، منذ ثلاث سنوات، إلى الصيد في أحياء بوينس آيرس الفقيرة. كانت رحلة القنص ناجحة. قتل الأولاد الأغنياء العمال طول أسبوع دون ترخيص ولم يذهب أي منهم إلى السجن.

والآن يستخدم الجيش العمال كدريئة للتدرب على الرمي في أراضي الجنوب المتجمدة. تدخل فرقة الخيالة العاشرة بقيادة المقدم ممتلكات باتاغونيا الكبيرة ويطلقون النار على العمال الهنود المضربين يرافقهم المتطوعون المتحمسون من الهيئة الوطنية. لا يعدم أحد دون محاكمة وتستمر كل محاكمة أقل من الوقت الذي يستغرقه تدخين سيجارة.

يتصرف مالكو المزارع والضباط كقضاة ويدفن الذين حكم عليهم في قبور جماعية يحفرونها بأنفسهم .

لم يوافق الرئيس إيبوليتو يريغوين Hipolito Yrigoyen، بشكل عام، على هذا الأسلوب في القضاء على الفوضويين والمتمردين لكنه لم يرفع إصبعاً ضد القتلة.

1923: نهر غواياز

صلبان تعوم في النهر

مئات من الصلبان المتوجة ببراعم الجبل، سرايا مزهرة من السفن الصغيرة تطوف في ضخامة الأمواج والذاكرة. يذكر كل صليب بعامل مقتول. رمى الناس هذه الصلبان العائمة في المياه بحيث يمكن أن يحظى العمال الذين يرقدون في مجرى النهر بالراحة.

حدث هذا منذ سنة في ميناء غواياكيل الذي كان في يد العمال لعدة ساعات. وهم يتغذون على جوع يأكلهم، دعوا إلى الإضراب العام، الأول، في تاريخ الإكوادور ولم يكن حتى بمقدور مسؤولي الحكومة أن ينتشروا إلا بإذن من الاتحادات. شكلت النساء والغاسلات وعمال التبغ والطباخون والبائعون الجوالون لجنة روزا لكسمبورغ وكانوا الأكثر تحدياً.

أعلن كارلوس أرويو، رئيس غرفة النواب: *اليوم يضحك الغوغاء. وغداً سيذهبون إلى النوم باكين*، أمر رئيس الجمهورية خوسيه لويس تمايو الجنرال إنريك باريجا أن يهتم بالمسألة: مهما كانت الكلفة.

من الطلقات الأولى حاول بعض العمال أن يهربوا مشتتين كالنمل من هضبة نمل سحقتها قدم. كان أولئك أول من سقطوا.

لا أحد يعرف كم عدد الذين رموا في نهر غواياز ليغرقوا وبطونهم مشققة من الحراب.

1923: أكابلكو

وظيفة قوى النظام في العملية الديموقراطية.

حالما انتهى فيلم توم ميكس، أدهش خوان اسكوديرو الجمهور سائراً أمام شاشة سينما أكابلكو الوحيدة، ملقياً خطبة ضد التجار الذين يمصون الدماء. وفي الوقت الذي تحلق حوله الأطفال الذين يرتدون البزات، كان حزب العمال في أكابلكو، قد وُلد، وعمده التهليل.

بمثل لمح البصر، نما حزب العمال، وفاز في الانتخابات، ونصب رايته السوداء والحمراء فوق السيتي هول. خوان اسكوديرو، الطويل، ذو الشاربين الخديين الكثيفين، والشارب المدبب، هو رئيس البلدية الجديد، رئيس البلدية الاشتراكي. في لمحة، حول القصر إلى مقر للتعاونيات والاتحادات، وأطلق حملة لتعليم القراءة والكتابة، وتحدى قوة الشركات الثلاث التي تملك الماء والهواء والأرض وسخام هذا الميناء المكسيكي القذر، الذي تخلى عنه الله والحكومة الفيدرالية. فيما بعد نظم مالكو كل شيء انتخابات جديدة بحيث يمكن أن يصحح البشر خطأهم، لكن حزب عمال أكابلكو ربح ثانية. وهكذا لا يوجد حل إلا استدعاء الجيش الذي سوى الموقف حالاً. تلقى خوان اسكوديرو المنتصر طلقتين، واحدة في الذراع وأخرى في الجبهة، طلقة رحمة من مدى قصير بينما أحرقَ الجنود السيتي هول. لكن اسكوديرو عاش وواصل الفوز في الانتخابات. على كرسي مدولبة، مبتوراً، لا يكاد يقدر على الكلام، رتب اسكوديرو حملة منتصرة لمنصب نائب من خلال إملاء الخطب على شاب كان يفك شيفرة غمغمته ويكررها بصوت مرتفع على منصات الحملة.

قرر مالكو أكابلكو أن يدفعوا ثلاثين ألف بيزوس لكي تصوب الدورية العسكرية بدقة. دخلت هذه النفقات في دفاتر الشركة كما ينبغي لكن لم يذكر الهدف منها. وأخيراً سقط خوان اسكوديرو، بعد أن أطلق عليه رصاص كثير، ماتَ من موت شامل كما يمكن أن تقولوا، شكراً أيها السادة.

1923: أثنغارو Azangaro

أوربيولا Urviola

أرادته أسرته أن يصبح طبيباً وبدلاً من ذلك أصبح هندياً وكأن ظهره ذا الحدبة المضاعفة وبنيته القزمة لم تكونا لعنة كافية. ترك إيزكييل أوربيولا مهنته القانونية في بونو، مقسماً أن يتبع خطى توباك أمارو. مذاك تحدث لغة الكويتشوا، ارتدى خفاً وعزف على فلوت كوينا. نهاراً وليلاً كان يروح ويجيء محرضاً على التمرد في السلسلة البيروفية، حيث يُمتلك الهنود كالبغال والأشجار.

كانت الشرطة تحلم بالقبض على أوربيولا الأحدب بعد أن تعهد مالكو الأراضي بذلك.

لكن سمكة القريدس تحوّلت إلى صقر يطير فوق الجبال .

1923: كاياو Callao

مارياتيغي Mariategui

أعادت سفينةٌ خوسيه مارياتيغي إلى البيرو بعد بضع سنوات في أوروبا. حين غادر كان متجولاً بوهيمياً من ليما كتب عن الأحصنة، وشاعراً صوفياً شعر بعمق وفهم قليلاً. هناك في

أوروبا، اكتشف أميركا. عثر مارياتيغي على الماركسية وعلى نفسه وهكذا تعلم أن يشاهد من بعيد البيرو التي يستطيع أن يراها من قرب.

آمن مارياتيغي أن الماركسية تعني التقدم الإنساني بشكل لا يقبل الجدل مثل اللقاح ونظرية النسبية. ولكن من أجل البيرو على المرء أن يبدأ بالماركسية التي ليست تعليماً شفهياً أو تتبع خطة سيد ما، ولكنها مفتاح للدخول عميقاً في هذه البلاد. والمفاتيح إلى أعماق بلاده هي الجماعات الهندية التي دمرها نظامُ مالكي الأراضي والتي لم تتخل عن تقاليدها الاشتراكية في العمل والحياة.

1923: بوينس آيرس

طلقة دون تسديد لمعتقل عامل

درس كاتالوج الأسلحة النارية بشهوانية وكأنها تحوي صوراً عارية. كان زي الجيش الأرجنتيني، بالنسبة إليه، جميلاً كأنعم الجلود البشرية. يحب أن يسلخ الثعالب التي تسقط في أفخاخه حية لكنه يفضل أن يتدرب على الرمي بإطلاق النار على العمال الفارين ويزيد من ذلك إن كانوا حمراً والأكثر من ذلك إن كانوا حمراً أجانب.

تطوع خورخي أرنستو بيريث ميلان تيمبرلي في قوات المقدم باريا، وفي العام الماضي، سار إلى باتاغونيا من أجل رياضة إبادة أي مضربين يقعون في مدى سلاحه. فيما بعد، حين رمى الألماني الفوضوي كيرت ويلكنز القنبلة التي نسفت المقدم باريا أقسم صياد العمال هذا بصوت مرتفع أن ينتقم لرئيسه.

وانتقم له. باسم الهيئة الوطنية الأرجنتينية، أطلق جورج أرنستو بيريث ميلان تيمبرلي طلقة في صدر ويلكنز وهو نائم في زنزانته ثم صور نفسه للأجيال القادمة، والبندقية بيده، آخذاً وضعية عسكرية تدل على أداء الواجب.

1923: تامبيكو

ترافن

سفينة كالشبح، هلكٌ قديمٌ مقدر عليه أن يتحطم، وصلت إلى مقابل ساحل المكسيك. كان بين طاقمها المؤلف من مشردين دون اسم أو أمة، أحد الناجين من ثورة مقموعة في ألمانيا.

رفيق روزا لوكسمبورغ، الفار من الجوع والشرطة، كتب روايته الأولى في تامبيكو ووقعها باسم ب.ترافن. وبهذا الاسم سيصبح مشهوراً دون أن يعرف أحد مطلقاً أي وجه أو صوت أو خطوة هي له. قرر ترافن أن يكون لغزاً بحيث لا تستطيع أية بيروقراطية أن تسميه. ذلك أنه من الأفضل السخرية من عالم يكون فيه عقد الزواج والإرث أكثر أهمية من الحب والموت.

1923: حقول دورانجو

بانتشو بيا يقرأ ألف ليلة وليلة

يفك شيفرة الكلمات بصوت مرتفع في ضوء الشمعة، لأن هذا هو الكتاب الذي يمنحه أفضل الأحلام، وفيما بعد يستيقظ باكراً لكي يرعى البقر مع رفاق معركته القدماء.

لا يزال بيّا أكثر الرجال شعبية في حقول شمال المكسيك ولا تحب ذلك طبقة الموظفين. اليوم مرت ثلاثة أعوام على تحويل رجاله لمزرعة كانوتيو Canutillo إلى جمعية تعاونية تمتلك الآن مشفى ومدرسة وعالماً من البشر جاء ليحتفل.

كان بيّا يصغي لأشعاره المفضلة حين ذكر الدون فرناندو، الحاج الذي من غرناطة، أن جون ريد قد مات لتوه في المكسيك.

أمر بانتشو بيا بإيقاف الحفل فتوقف حتى الذباب في الجو.

إذن، مات العجوز خوان؟ صديقي القديم خوان؟

هو نفسه.

صدق بيّا ولم يصدق..

قال الدون فرناندو عاذراً نفسه: *قرأت هذا في الصحف. دفن هناك مع أبطال الثورة.*

لم يتنفس أحد أو يزعج الصمت. غمغم الدون فرناندو: *مات من التيفوس لا من رصاصة.*

هز بيّا رأسه: «*إذن مات خوان العجوز؟*»

ثم كرر: *إذن مات خوان العجوز.*

صمت. نظر في المسافة ثم قال: «*لم أسمع مطلقاً بكلمة اشتراكية إلى أن شرحها لي*».

وحالاً نهض، مد ذراعيه، وبخ عازفي الغيتارات الصامتين: *والموسيقى؟ ماذا حدث للموسيقى؟ اعزفوا!*

1923: مكسيكو سيتي / بارال

تبرع الشعب بمليون قتيل للثورة المكسيكية

حدث هذا في عشرة أعوام من الحرب بحيث استطاع الزعماء العسكريون أخيراً أن يمتلكوا أفضل الأراضي والمشاريع الأكثر ربحاً. تقاسم ضباط الثورة السلطة والمجد مع الأطباء الناهبين للهنود ومع السياسيين الذين للتأجير، وخطباء مأدبة متألقين يسمون «أوبريغون Obregon» لينين المكسيكي.

على هذا الطريق إلى المصالحة الوطنية ليس ثمة مشكلة لا يمكن أن تُحل بعقد عمل أو تنازل عن أرض أو بنوع من التفضيل يتدفق من محفظة مفتوحة. عَرّف الرئيس ألبارو أوبريغون نمط

حكومته بعبارة أصبحت على الفور عبارة كلاسيكية في المكسيك: *ليس ثمة جنرال يقدر أن يقاوم رشقة خمسين ألف بيزوس.*

لكن أوبريغون أخطأ في ذلك مع الجنرال بيّا.

لا حل معه إلا قتله بالرصاص.

وصل بيّا إلى بارال في الصباح الباكر وحين رآه أحدهم أشار بلفحة حمراء فاستجاب اثنا عشر رجلاً بضغط أصابعهم على الزناد.

كانت بارال مدينته المفضلة. «*أحب بارال كثيراً كثيراً.*» وفي اليوم الذي طرد فيه نساء وصبية بارال الغزاة الغرينغو بالحجارة تحررت الأحصنة التي داخل بانتشو وأطلق صرخة فرح هائلة: «*فقط أحب بارال حتى الموت.*»

1924: مريدا، يوكاتان

المزيد عن وظيفة قوى النظام في مسيرة الديموقراطية

فيليبي كاريو بيرتو Felipe Carrillo Puerto، العصي أيضاً على المدفع الذي يطلق منه أوبريغون النقود، واجهَ فرقة إعدام في صباح رطب من صباحات كانون الثاني.

أتريد كاهن اعتراف؟

لست كاثوليكياً.

ماذا عن كاتب بالعدل؟

لا أملك شيئاً أتركه.

كان ملازماً في جيش زاباتا في موريلوس قبل تأسيس حزب العمال الاشتراكي في يوكاتان.

هناك ألقى كاريو بيرتو خطبه بلغة المايا شارحاً أن ماركس كان شقيقاً لخاسينتو كانيك وسيسليو تشي وأن الاشتراكية، وريثة التراث المشاعي، قدمت بعداً مستقبلياً للماضي الهندي العظيم.

إلى أمس، ترأس حكومة يوكاتان الاشتراكية. لم يستطع عدد لا يحصى من المحتالين والمصالح الخاصة أن تمنع الاشتراكيين من فوز سهل في الانتخابات أو أن تمنعهم، فيما بعد، من تنفيذ وعودهم. أثار تدنيسهم للممتلكات الكبيرة المقدسة ونظام العمل العبودي والاحتكارات الإمبريالية المتنوعة غضب أولئك الذين أداروا مزارع الهينيكوين، هذا إذا لم نتحدث عن شركة انترناشيونال هارفستر. تشنج كبير الأساقفة من التعليم العام والحب الحر والتعميد الأحمر الذي دُعي هكذا لأن الأطفال تلقوا أسماءهم على حشية من الأزهار الحمراء ومع هذه الأسماء أمنيات من أجل حياة طويلة من النضال الاشتراكي. إذن، ماذا يمكن أن يُفعل إلا دعوة الجيش كي ينهي الفضيحة؟

كرر اغتيال كاريو بيرتو تاريخ خوان إسكوديرو في أكابلكو. استمرت حكومة المذلولين سنتين في يوكاتان. يحكم المُذلون بأسلحة العقل. لا يملك المذلون الحكومة، لكنهم يملكون عقل الأسلحة. وكما في كل المكسيك، امتطى الموت نرد القدر.

1924: مكسيكو سيتي

تأميم الأسوار

يستدعي فن المسند الحجز. من ناحية أخرى، تقدم الصورة الجدارية نفسها للحشد العابر. يمكن أن يكون البشر أميين لكنهم ليسوا عمياناً، وهكذا هاجم ريبيرا وأوروزكو، وسيكويروس جدران مكسيكو

ورسموا شيئاً جديداً ومختلفاً. ولد على الكلس الرطب فن وطني حقيقي، ابن الثورة المكسيكية وأيام الولادات والجنازات تلك.

تقدم الفن الجداري المكسيكي إلى الأمام ساحقاً الفن الممسوخ، والمخصي، لبلاد مدربة على إنكار نفسها. فجأة انبعثت الحيوات الصامتة والمشاهد الميتة دائخة وأصبح معذبو الأرض موضوعات للفن والتاريخ بدلاً من موضوعات للاستعمال والاحتقار أو الشفقة.

تجمعت الشكاوى ضد فناني الصور الجدارية لكنهم لم ينالوا قطرة من المديح. هادئين، واقفين على منصاتهم، تابعوا عملهم. ست عشرة ساعة دون استراحة هو يوم العمل لريبيرا الذي يملك عيني وبطن ضفدعة وأسناناً كأسنان السمكة. كان يضع مسدساً في حزامه.

من أجل وضع حَدٍ للنقاد، كما قال.

1924: مكسيكو سيتي

دييغو ريبيرا

بعث دييغو ريبيرا كاريو بيرتو، مُخلّص يوكاتان، بجرح رصاصة في صدره دون أن يبّلغه عن موته الخاص. ورسم إمليانو زاباتا وهو يحرض البشر، ورسم الشعب، جميع سكان مكسيكو متوحدين في عمل ملحمي وحربي واحتفالي على جدار في وزارة التربية مساحته ألف وستمائة متر مربع. وبينما كان يغسل العالم باللون، يسلي دييغو نفسه بالكذب. لكل من يريد أن يسمع، يروي أكاذيب عملاقة كبطنه، كولعه بالخلق وكنهمه في التهام النساء.

لم تكد تمر على عودته من أوروبا ثلاثة أعوام. هناك، في باريس، كان دييغو فناناً طليعياً تعب من المدارس. وتماماً، وبينما كان نجمه يذوي، ويرسم بسبب الضجر فحسب، عاد إلى المكسيك وصفعته أضواء بلاده على وجهه ملهبة عينيه.

1924: مكسيكو سيتي

أوروثكو

أصبح دييغو ممتلىء الجسم، لكن خوسيه كليمنتي أوروثكو هَزُلَ. رسم ريبيرا أشياء حسية، أجساداً من الذرة، فاكهة شهوانية. رسم أوروثكو أشكالاً يائسة، أجساداً من جلد وعظم، نبتة صبار مقطوعة ونازفة. ما شكل سعادة لريبيرا كان مأساة لأوروثكو. ثمة لطف في ريبيرا وهدوء مشع وثمة قسوة وقسمات ملتوية من الألم في أوروثكو. تمتلك ثورة أوروثكو المكسيكية عظمة تماماً مثل ريبيرا، لكن حين يتحدث ريبيرا معنا عن الأمل، يبدو وكأن أوروثكو يقول إن كل من يسرق النار المقدسة من الآلهة لن يمنحها لأخوته البشر.

1924: مكسيكو سيتي

سيكويروس

فظ، منسحب، متمرد من الداخل ـ هذا هو أوروثكو. مثير، طنان، متمرد خارجياً ـ هذا هو ديفد ألفرو سيكويروس. مارس أوروثكو الرسم كطقس عزلة. لكنه، بالنسبة إلى سيكويروس، فعل تضامن ونضال. قال سيكويروس: *ليست هناك طريقة أخرى إلا طريقتنا*. قابل الثقافة الأوروبية التي اعتبرها مريضة بطاقته العضلية الخاصة. كان أوروثكو يشك، يفتقد للإيمان بما يفعله. كان سيكويرس يندفع إلى الأمام متأكداً أن عاصفته الوطنية ليست دواء سيئاً لبلاد مصابة بعقدة نقص حادة.

الشعب هو بطل الرسم الجداري المكسيكي كما يقول دييغو ريبيرا

إن الجدة الحقيقية للرسم المكسيكي، بمعنى أننا بدأناه مع أوروثكو وسيكويروس، قامت على جعل الشعب بطل الرسم الجداري. حتى ذلك الوقت، كان أبطال الرسم الجداري الآلهة والملائكة وكبار الملائكة والقديسين وأبطال الحرب والملوك والأباطرة والأساقفة والزعماء السياسيين والعسكريين الكبار، وكان البشر يظهرون ككورس حول نجوم المأساة.

1924: ريغلا

لينين

استدعى رئيس بلدية الجماعة الكوبية الجميع. من مدينة هافانا المجاورة جاءت أنباء عن وفاة لينين في الاتحاد السوفياتي. أصدر رئيس البلدية بلاغ ندب. قال البلاغ: *إن لينين، السابق*

الذكر، ربح تعاطفاً يستحقه بجدارة بين العناصر البروليتارية والفكرية لهذه المقاطعة المحلية. بالتالي، سيتوقف سكانها يوم الأحد، في الخامسة بعد الظهر، دقيقتي صمت وتأمل، سيتوقف أثناءهما الأشخاص والآليات توقفاً تاماً.

في الساعة الخامسة بعد الظهر بالضبط، تسلق رئيس بلدية ريغلا هضبة فورتن. ورغم المطر الغزير كان يرافقه أكثر من ألف شخص لينفذوا دقيقتي الصمت والتأمل. فيما بعد، زرع رئيس البلدية شجرة زيتون على قمة الهضبة تمجيداً للرجل الذي كان يزرع دائماً الراية الحمراء هناك وسط الثلوج.

1926: سان ألبينو

ساندينو

ساندينو قصير ونحيل. ستدفعه ريح ضالة بعيداً بما أنه لم يكن مزروعاً بقوة في تربة نيكاراغوا. في هذه الأرض، أرضه، وقف أوغستو سيزار ساندينو طويلاً وتحدث بما قالته الأرض له. ذلك أنه حين يتمدد لينام تهمس له أرضه الأسى والعذوبة. تحدث ساندينو عن أسرار أرضه المذلولة والمغزوة وسأل: *كم منكم يحبها كما أحبها أنا؟*

خطا إلى الأمام تسعة وعشرون معدِّناً من سان ألبينو.

كان هؤلاء الجنود الأوائل في جيش التحرير النيكاراغوي. أميون، يكدحون خمس عشرة ساعة في اليوم ليستخرجوا الذهب من الأرض لشركة أميركية شمالية، وينامون مكومين في سقيفة. فيما بعد فجروا المنجم بالديناميت وتبعوا ساندينو إلى الجبال.

ذهب ساندينو راكباً بغلاً.

1926: بيرتو كابيثاز

النساء الأكثر إثارة للإعجاب في العالم

إنهن عاهرات بيرتو كابيثاز هن اللواتي عرفن، من أحاديث السرير، الموقع الدقيق تحت الماء حيث دفن المارينز الأميركيون الشماليون أربعين بندقية وسبعة آلاف خرطوشة. وبفضل هؤلاء النساء اللائي جازفن بحياتهن في التصدي لقوات الاحتلال الأجنبية حصل ساندينو ورجاله، من تحت المياه، وبضوء المشعل، على أسلحتهم وذخائرهم الأولى.

1926: خواثيرو دو نورتي Juazeiro do Norte

الأب سيسيرو

كانت خواثيرو قرية صغيرة تافهة تتألف من أربعة أكواخ، ويبدو أن الله قد بصقها في الفراغ حين أشار بإصبعه في يوم رائع إلى كومة القمامة تلك وقرر أن يجعلها مدينة مقدسة. منذ ذلك

الوقت، تدفق المبتلون إلى هنا بالآلاف. وكان كل طريق للشهادة والمعجزة يقود إلى هنا. حجاج قذرون من جميع أنحاء البرازيل، صفوف طويلة من الأسمال وجذوع الأعضاء حوّلت خواثيرو إلى أغنى مدينة في الأرض الشمالية الشرقية الواقعة خلف الساحل. في هذه القدس الجديدة التي أعادت الإيمان، والنصب التذكارية للمنسيين، ونجمة قطب الضائعين، أصبح الجدول المتواضع سالخادينهو يُعرف الآن باسم نهر الأردن. محاطاً بنساء ورعات يُلوِّحن بصلبان برونزية نازفة، أعلن الأب سيسيرو أن يسوع المسيح قادم.

إن الأب سيسيرو روماو بابتيستا هو سيد الأرواح والأراضي. هذا المخلص للمحطمين في الصحراء، مروِّض المجانين والمجرمين، منح الأطفال لنساء عقيمات والمطر للأرض الجافة والضوء للعميان ومنح الفقراء الفتات الذي كان يتساقط من الخبز الذي يأكله.

1926: خواثيرو دو نورتي

بمعجزة ربانية أصبح قاطع طريق قائداً بارزاً

أطلق محاربو لامبياو Lampiao الطلقات وأنشدوا الأغاني. رحبت بهم الأجراس والألعاب النارية في مدينة خواثيرو. عرض قاطعو الطرق ترسانة كاملة وأوسمة مزخرفة على درعهم الجلدي. عند قدم تمثال الأب سيسيرو، بارك الأب سيسيرو زعيم العصابة. ومن المعروف جيداً أن قاطع الطريق لامبياو لا يلمس بتاتاً منزلاً يحوي صورة للأب سيسيرو أو يقتل أي تابع للقديس مجترح المعجزات.

باسم حكومة البرازيل، منح الأب سيسيرو لامبياو رتبة نقيب، ثلاث شارات على كل كتف وسلم رجاله بنادق ماوتزر لا تخطئ مقابل بنادقهم القديمة التي من نوع وينشستر. بالمقابل، وعد النقيب لامبياو بهزيمة المتمردين الذين يقودهم الملازم لويس كارلوس بريستس، الذي يطوف البرازيل مبشراً بالديموقراطية وأفكار شيطانية أخرى، ولكنه لم يكد يغادر هذه المدينة حتى نسي كارلوس بريستوس وعاد إلى أسلوبه القديم.

1926: نيويورك

فالنتينو

البارحة، في بار إيطالي، انهار رودولف فالنتينو متخماً من وليمة معكرونة.

ترملت ملايين النساء في القارات الخمس. كن يعبدن اللاتيني الرشيق الماكر على مذبح شاشة السينما، التي هي معبد لجميع البشر في جميع المدن. ركض معه إلى الواحة تحثهم ريح الصحراء. رافضة في مصارعات ثيران مأساوية، ودخلن أماكن غامضة، ورقصن على أرض مغطاة بالمرايا، وتعرّين في غرف نوم الأمير الهندي وابن الشيخ. وبعد أن اخترقهن بمثقاب عينيه وسحقهن بذراعيه، أغمي عليهن في أسرّة حريرية عميقة.

لكنه لم يدرك. فالنتينو، الإله الهوليودي الذي يدخن مصادفة بينما يقبل ويدمِّر بلمحة، هذا الذي كان يتلقى يومياً ألف رسالة حب، كان ينام في الحقيقة وحيداً ويحلم بأمه.

1927: شيكاغو

لوي

عاشت في شارع برديدو في نيوأورليانز ـ شارع الضائعين ـ حيث يمدد الموتى في الخارج ويوضع على صدورهم صحن من أجل قطع نقدية من الجيران للجنازة. حين ماتت استمتع ابنها لوي بمنحها جنازة رائعة، الجنازة المتميزة التي ستكون قد حلمت بها في نهاية الحلم الذي جعلها الله فيه بيضاء ومليونيرة.

لوي أرمسترونغ، الذي عاش دون أن يكون هناك ما يأكله إلا البقايا والموسيقى، هرب من نيو أورليانز إلى شيكاغو آخذاً معه بوقاً وسندويشة سمك من أجل الرفقة.

مرت بضع سنوات وبدأ يسمن. كان يأكل لينتقم لنفسه. وإذا عاد إلى الجنوب الآن ربما سيرحَّب به في أمكنة ممنوعة على السود ومحظورة على الفقراء. سيكون بوسعه أن يسير في شارع في البلدة. إنه ملك الجاز ولا أحد يجادل في ذلك. بوقه يهمس، يئن، يُعْوِل، ويزأر كحيوان جريح ويضحك بصخب محتفلاً، بحماسة وقوة هائلة، بعبث الحياة.

1927: نيويورك

بيسي

كانت هذه المرأة تغني آلامها بصوت المجد ولم يقدر أحد أن يستمع ويتظاهر أنه لا يسمع أو لا يتأثر. بيسي سميث، رئتا الليل العميق، السمينة جداً، السوداء جداً، لعنت لصوص الخلق. إن أغانيها الكئيبة هي دندنات النساء السوداوات الثملات في الأحياء القذرة. أعلنت أن البيض والسوبرمانات والأغنياء الذين يَذلّون العالم سوف يُطاح بهم عن عروشهم.

1927: رابالو

عزرا باوند

مر عشرون عاماً على رحيل عزرا باوند من أميركا. كان باوند، ابن الشعراء ووالدهم، يبحث تحت الشمس الإيطالية عن صور جديدة، عن صداقات جديدة بثور ألتاميرا وعن كلمات مجهولة للتحدث مع آلهة أكثر قدماً من الأسماك.

لكن باوند كان يُخطىء في اختيار الأصدقاء طوال الطريق.

1927: تشارلزتاون

نهار جميل

قال حاكم ولاية ماساتشوسيتس: يا له من يوم جميل!

في منتصف الليل، في يوم الاثنين هذا من شهر آب، سيشغل عاملان إيطاليان الكرسي الكهربائي لزنزانة الموت في سجن تشارلزتاون. سيُعدم الحذّاء نيكولا ساكو وبائع السمك بارتولميو فانزيتي من أجل جرائم لم يقترفاها.

كانت حياة ساكو وفانزيتي في يدي رجل أعمال جمع أربعين مليون دولار من بيع سيارات بكارد. ألفن تيفتس فوللر، حاكم ماساتشوسيتس، الرجل الصغير خلف مقعد كبير من الخشب المشغول، رفض أن يستسلم للاحتجاجات التي تدفقت من جميع الجهات. آمن بنزاهة المحاكمة وصلاحية الدليل. كان يؤمن أن جميع الفوضويين الملاعين، والأجانب القذرين الذين جاؤوا ليدمروا هذه البلاد، يستحقون الموت.

1927:أراراكوارا Araraquara

ماريو دي أندريدي

تحدى كل ما هو ذليل وعذب وفخم في الثقافة الرسمية. إنه خالق كلمات، كلمات تموت من الحسد من الموسيقى، وهي مع ذلك قادرة على رؤية وقول كل شيء للبرازيل وقادرة أيضاً على تذوق البرازيل، حبة الفول الساخنة والطيبة.

في أيام العطل، ومن أجل المتعة، كان ماريو دي أندريدي ينسخ أقوال وأفعال ماكونايما، البطل الذي بلا شخصية، كما يسمعها تماماً من المنقار الذهبي لببغاء. استناداً إلى الببغاء، كان ماكونايما رجلاً أسود بشعاً، ولد في قلب الغابة ولم يزعج نفسه بالكلام إلا في سن السادسة وذلك بسبب الكسل الرهيب. ومنشغلاً كما كان بتقطيع النمل والبصاق في وجوه أخوته وتدليل قريباته الإناث. غطت مغامرات ماكونايما الوحشية جميع الأزمنة و الأمكنة في البرازيل بينما كان يعري الكهنة من أرديتهم والدمى من رؤوسها.

إن ماكونايما أكثر واقعية من مؤلفه. وكمثل أي برازيلي من اللحم والدم، كان ماريو دي أندريدي ملفّقاً من المخيلة.

1927: باريس

بيّا ـ لوبوس

من خلف السيجار الضخم تعوم سحابة من الدخان. مكتسياً بها، سعيداً وعاشقاً، كان هيتور بيّا ـ لوبوس يصفر لحناً تشردياً.

ادعى النقاد المعادون في البرازيل أنه يؤلف الموسيقى ليعزفها المصروعون لجمهور من المرضى المرتابين لكنه صادف، في باريس، استقبالاً حماسياً. صفقت صحافة باريس، بحماسة، لإيقاعاته الجريئة وحسه القوي بالقومية، ونشرت مقالات عن حياة الملحن البارز. روت إحدى الصحف كيف كان بيّا ـ لوبوس مقيداً مرة إلى مشواة وكان على وشك أن يُشوى حياً على يد آكل للحوم البشر حين كان يطوف في الغابة الأمازونية حاملاً فيكترولا بين ذراعيه ويعزف لباخ. في إحدى الحفلات الكثيرة التي أقاموها له بين الحفلات الموسيقية في باريس، سألته سيدة إن كان قد أكل لحم البشر نيئاً وإن كان قد أحب ذلك.

1927: سهول خاليسكو

خلف صليب كبير من العصي

هجم الكريستيروس Cristeros المتمردون في خاليسكو وولايات مكسيكية أخرى بحثاً عن الشهادة والمجد. كانوا يصيحون يعيش يعيش! لمسيح توجه الملك بالجواهر بدل الشوك، وللبابا الذي لم ينس فقدان بعض الامتيازات الإكليركية التي لا تزال باقية في المكسيك.

كان هؤلاء الفلاحون الفقراء يموتون من أجل ثورة وعدتهم بالأرض. والآن، محكومين بموت حي، بدأوا الموت من أجل كنيسة تعدهم بالسماء.

1927: سان غابرييل دي خاليسكو

طفل ينظر

تغطي الأم عينيه كي لا يشاهد جده معلقاً من قدميه ثم تمنعه يدا الأم من رؤية جسد أبيه مثقباً برصاص قطاع الطرق أو عمه يتلوى في الريح هناك على أعمدة التلغراف.

ماتت الأم أيضاً أو ربما أتعبها الدفاع عن عيني ابنها. جالساً على السياج الحجري الذي يمتد فوق المنحدرات، كان خوان رولفو يتأمل أرضه القاسية بعين مجردة. شاهد فرساناً من الشرطة الفيدرالية أو الكريستيروس لا فرق، ينبعثون من الدخان، وخلفهم، في المسافة،ألسنة لهب. شاهد أجساداً متدلية في صف والتي كانت ثياباً ممزقة أفرغتها العقبان. رأى موكباً من نساء يرتدين اللباس الأسود.

كان خوان رولفو، الطفل الذي يبلغ التاسعة، محاطاً بأشباح تبدو مثله.

لا شيء حياً هنا ولا أصوات إلا تلك المنبعثة من الذئاب الصغيرة. والهواء الوحيد هو الريح السوداء التي تنهض، في هبّات، من سهول خاليسكو حيث الأحياء ليسوا إلا موتى يتظاهرون بأنهم أحياء.

1927: إل تشيبوتي El Chipote

حرب اليغاور والطيور

منذ خمسة عشر عاما نزلت قوات المارينز في نيكاراغوا لكي *تحمي حياة وملكيات مواطني الولايات المتحدة* ولكنها نسيت أن تغادر. كانت تلوح ضدها تلك الجبال الشمالية. القرى نادرة هنا لكن أي شخص لم يصبح فعلا أحد جنود ساندينو هو جاسوس أو رسول له. منذ تدمير منجم سان ألبينو بالديناميت والمعركة الأولى في ماي ماي تابعت القوة المحررة نموها. عبئ الجيش الهندوراسي كله على الحدود ليمنع وصول الأسلحة إلى ساندينو عبر النهر لكن رجال العصابات لم يكترثوا وحصلوا على البنادق من الجنود الساقطين وصنعوا رصاصا من الأشجار التي طمروا أنفسهم فيها. ولم يكن هناك أي نقص في المناجل لقطع الرؤوس أو في القنابل المصنوعة من علب السردين والتي تملأ بالزجاج والمسامير والبراغي والديناميت من أجل بعثرة العدو.

قصفت الطائرات الأميركية كيفما اتفق ودمرت القرى. وطاف جنود المارينز في الغابات بين المهاوي والقمم المرتفعة وقد شوتهم الشمس وأغرقتهم الأمطار وخنقهم الغبار. ولقد حرقوا وقتلوا كل ما وجدوه. حتى القردة الصغيرة قذفتهم بأشياء.

عرضوا على ساندينو عفوا وعشرة دولارات عن كل يوم تمرد فيه. لمح الكابتن هاتفيلد باستسلام.

من معقله في شيبوتي، تلك القمة الغامضة المكللة بالضباب، جاء الجواب: *لا أبيع أو أستسلم*. ثم ختمه: *خادمك المطيع الذي يرغب أن يضعك في تابوت أنيق مع أصص من الأزهار الجميلة*. ثم توقيع ساندينو.

كان جنوده يعضون كاليغاور وينتقلون بسرعة كالطيور. وحيث لا يتم توقعهم يهجمون في قفزة يغور واحدة، وقبل أن يستطيع العدو أن يتحرك يهاجمون من الخلف أو الجوانب ثم يختفون بخفقة جناح.

1928: سان رافايل دي نوتي

جيش صغير مجنون

قصفت أربعة مراكب إل شيبوتي التي طوقتها وضربتها رشقات مدفعية المارينز ورعد الإقليم واهتز أياما وليالي إلى أن ثبت الغزاة حرابا وهاجموا الخنادق الحجرية المليئة بالبنادق. لم ينته هذا العمل البطولي بجرحى أو بقتلى لأن المهاجمين لم يعثروا إلا على جنود من القش وبنادق من العصي.

نقلت الصحف الأميركية خبر النصر دون أن تذكر أن المارينز دمروا فيلق دمى بقبعات عريضة ومناديل سوداء وحمراء. ولقد أفادت الصحف، على أي حال، أن ساندينو نفسه كان بين الضحايا.

في قرية سان رافايل البعيدة أصغى ساندينو إلى رجاله يغنون في ضوء نيران المعسكر وهناك سمع بنبأ موته.

إن الله وجبالنا معنا وبعد كل ما قيل وفعل ليس الموت أكثر من لحظة ألم قصيرة.

في الأشهر الماضية وصلت ست وثلاثون سفينة حربية وستة آلاف من قوات المارينز كتعزيزات إلى نيكاراغوا. مع ذلك، من بين سبع وخمسين من المعارك الصغيرة والكبيرة التي خسرت جميعها انزلقت الطريدة من بين أصابعهم ولم يعرف أحد كيف حدث ذلك.

إنه جيش صغير مجنون كما قالت الشاعرة التشيلية غابرييلا ميسترال عن محاربي ساندينو الذين يتواصل الهجوم ضدهم، سادة الجسارة والسلوك الشيطاني.

كان كله أخويا جدا

خوان بابلو راميريث: *صنعنا دمى من القش ونصبناها هناك. ونصبنا أشراكا من العصي ووضعنا على رؤوسها قبعات وكان شيئا مسليا... أمضوا أسبوعا يطلقون النار عليها ويقصفونها حتى أنني بلت في بنطالي من الضحك.*

ألفونسو أليكسندر: *كان الغزاة كالفيل وكنا كالأفعى. كانوا ثباتا وكنا حركة.*

بدرو أنطونيو أروث: *مات اليانكيون ميتات محزنة، الجاحدون. لم يعرفوا كيف تسير الأشياء في جبال بلادنا.*

سنفوروسو غونزاليس ثيليدون: *ساعدنا الفلاحون، عملوا معنا، شعروا بنا.*

كوسمي كاسترو أندينو: *لم نأخذ أي مال. حين نصل إلى قرية ويمنحنا الفلاحون الطعام نقتسمه. كان هذا أخويا جدا.*

1928: واشنطن

جريدة السينما

تلقى عشرة من ضباط المارينز وسام الاستحقاق في طقس عاطفي في واشنطن *من أجل الخدمة المميزة والبطولة الفائقة للعادة في الحرب ضد ساندينو.*

كرست الواشنطن هيرالد، وصحف أخرى، صفحات لجرائم *العصابة الخارجة عن القانون* التي ذبحت حناجر المارينز. نشرت أيضا وثائق وصلت حديثا من المكسيك، بأرقام مؤثرة من الأخطاء الإملائية، برهنت أن الرئيس المكسيكي كاليس يرسل أسلحة بلشفية ودعاية إلى ساندينو

من خلال دبلوماسيين روس. أضافت مصادر رسمية في وزارة الخارجية الأميركية أن كاليس بدأ يظهر عواطفه الشيوعية حين فرض ضرائب على شركات النفط الأميركية التي تعمل في المكسيك وأكدتها بشكل كامل حين بنت حكومته علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي.

حذرت الحكومة الأميركية أنها *لن تسمح للجنود الروس والمكسيكيين أن يدخلوا السوفييت إلى نيكاراغوا*. أسهب الناطق باسم وزارة الخارجية قائلا: *المكسيك تستورد البلشفية*. وبعد نيكاراغوا الهدف الثاني للتوسع السوفييتي في أميركا الوسطى سيكون قناة بنما.

صرح السيناتور شورتريدج *أن مواطني الولايات المتحدة يستحقون الحماية كمواطني روما القديمة*. وقال السيناتور بينجهام: *نحن مرغمون على أن نقبل وظيفتنا كشرطي كوني*. السيناتور بينجهام، عالم الآثار المشهور الذي اكتشف منذ ستة عشر عاما آثار ماتشو بيكتشو في بيرو، لم يخف مطلقا إعجابه بأعمال الهنود الموتى.

من أجل المعارضة، أنكر السيناتور بورها حق بلاده في أن تتصرف كرقيب على أميركا الوسطى، واقترح السيناتور ويلر أن ترسل الحكومة المارينز إلى شيكاغو، لا إلى نيكاراغوا، إذا كانت فعلا تريد التخلص من العصابات. من ناحيتها، تبنت مجلة *الأمة* وجهة نظر مفادها أن تسمية الرئيس الأميركي لساندينو بمجرم هي كمثل تسمية جورج الثالث الإنكليزي لجورج واشنطن بلص.

1928: ماناغوا

لمحة مختصرة عن القوة الكولونيالية

كان الأطفال الأميركيون الشماليون يدرسون الجغرافيا من خلال خرائط تظهر نيكاراغوا كنقطة ملونة تسمى *محمية الولايات المتحدة الأميركية*.

حين قررت الولايات المتحدة أن نيكاراغوا لا تستطيع أن تحكم نفسها كانت هناك أربعون مدرسة عامة في منطقتها الواقعة على ساحل الأطلسي. ثمة ست مدارس الآن. نصبت القوة الحارسة سكة حديد وشقت طريقا عاما واحدا وأنشأت جامعة. في الوقت نفسه ازدادت ديون البلاد المحتلة ودفعت كلفة وقوعها تحت الاحتلال بينما استمر المحتلون بالاحتلال كي يضمنوا دفع كلفة الاحتلال.

كانت مكاتب الجمارك النيكاراغوية تحت سيطرة البنوك الأميركية الشمالية الدائنة التي عينت كليفورد د. هام مراقبا للنفقات والحسابات وجابيا عاما للضرائب. هام هو أيضا المراسل النيكاراغوي لوكالة الأنباء المتحدة. وكان نائب مراقب النفقات ونائب جابي الضرائب هو إرفينغ ليندبيرج الذي هو أيضا مراسل الأسوشييتد برس. وهكذا لم يغتصب هام وليندبيرج تعريفات نيكاراغوا فحسب بل اغتصبا الإعلام كذلك. إنهما هما اللذان يعلمان الرأي العام العالمي عن أفعال ساندينو السيئة، *قاطع الطريق الخارج عن القانون والعميل البلشفي*. قاد عقيد أميركي شمالي الجيش النيكاراغوي ـ الحرس الوطني ـ وقاد نقيب أميركي شمالي الشرطة النيكاراغوية.

أدار الجنرال الأميركي الشمالي فرانك مكوي مجلس الانتخاب الوطني وحرس طاولات التصويت أربعمائة واثنان وثلاثون جنديا من المارينز واثنا عشرة طائرة أميركية. ولم يكد الرئيس الجديد ينتخب حتى أعلن أن المارينز سيبقون.

نظم تلك الحفلة المدينية الجنرال لوجان فيلاند قائد القوات المحتلة. الجنرال فيلاند ذو العضلات، والحاجبين الكثين وضع ساقا فوق أخرى تحت طاولة المكتب. حول مسألة ساندينو، تثاءب وقال: «*سيسقط هذا الطائر يوما ما.*»

1928: مكسيكو سيتي

أوبريغون

نبحت الكلاب في مزرعة نيناري في وادي ياكوي بمكسيكو.

أمر الجنرال ألبارو أوبريغون: *أخرسوها!*

لكن الكلاب زادت من نباحها.

أمر الجنرال: *أطعموها!*

تجاهلت الكلاب الطعام وواصلت نباحها.

قدموا لها لحما طازجا.

لم يؤثر اللحم الطازج، ورغم الضرب، لم تتوقف عن النباح.

قال أوبريغون متذمرا: *أعرف ماذا تريد.*

حدث ذلك في 17 أيار. في التاسع من تموز، في كولياكان، كان أوبريغون يرتشف شراب التمر الهندي في ظل رواق حين قرعت أجراس الكاتدرائية وقال الشاعر شاي أندريدي الثمل قليلا: *إنها تقرع من أجلك يا صديقي.*

في اليوم التالي، في إسكينابا، بعد وليمة من القريدس، كان أوبريغون يستقل القطار حين ضغطت الصديقة الجيدة إليسا بيفن على ذراعه وتوسلت إليه بصوتها الأجش: *لا تذهب. سوف يقتلونك.*

لكن أوبريغون دخل القطار على أية حال متجها إلى العاصمة. بعد كل شيء، عرف كيف يشق طريقه عنوة إلى الأمام في الأيام التي كان الرصاص يطن فيها كالدبابير. كان قاتلا للقتلة، وغازيا للغزاة ولقد حظي بالسلطة والمجد والمال دون أن يفقد أي شيء إلا اليد التي قطعها بانتشو بيا.

وهكذا قرر ألا يتراجع لأنه كان يعرف أن أيامه معدودة. واصل طريقه، ببساطة، بمرح يشوبه حزن. لقد فقد في النهاية براءته الوحيدة: سعادة اللامبالاة حيال موته.

اليوم، 17 تموز، 1928، بعد شهرين من نباح الكلاب في نيناري، قتل متعصب للملك والمسيح الرئيس الذي أعيد انتخابه، ألبارو أوبريغون، في مطعم بمكسيكو سيتي.

1928: بيـاإرمـوسـا Villahermosa

آكل الكاهن

لم يكد أوبريغون يموت بعد أن أسقطه رصاص كـاثوليكي متعصـب حتـى أصـدر حـاكم ولايـة تاباسكو المكسيكية، مانويل خاريدو، مرسوما يدعو إلى الانتقام. دمر الكاتدرائية حتى آخر حجـر فيها وشيد من برونز الأجراس تمثالا للفقيد الذي أعول عليه.

كان خاريدو يؤمن أن الدين الكاثوليكي يسجن العمال في قفص الخوف ويرهبهم بتهديد عذاب النار الأبدية. قال: من أجل حرية المجيء إلى تاباسكو، يجب أن يذهب الدين، ثـم طـرده بعـد أن ذبح القديسين، ودمر الكنائس، وانتزع الصلبان من المقابر، وأجبر الكهنـة علـى الـزواج وأعـاد تسمية جميع الأماكن التي سميت بأسماء القديسين. عاصمة الولاية سان خوان بوتيستا، أصبحت بياإرموسا. وفي موعظة وقورة سمى ثورا للاستيلاد أسقفا وسمى حمارا البابا.

1928: سانتـا مـارتـا الجنـوبيـة

عصر الموز

لم تكن إلا قرى ضائعة على الساحل الكولومبي، قطعة غبار بـين النـهر والمقـبرة، تثاؤبـا بـين قيلولتين حين جاء قطار شركة يونايتد فـروت. عـبر القطـار المسـتنقعات، اخـترق الغابـة سـاعلا الدخان، وظهر هنا، في غاية الوضوح، معلنا بصفرة أن عصر الموز قد جاء.

استيقظت المنطقة لتجد نفسها مزرعة ضخمة. حصلت ثيناغـا Cienaga وأراكاتاكـا وفنداثيـون Fundacion على تلغراف ومراكز بريد وشوارع جديدة بمكاتب للمراهنة وبيوت دعارة. الفلاحـون، الذين وصلوا بالآلاف، تركوا بغالهم عند مواقع الربط وذهبوا إلى العمل.

برهن هؤلاء العمال أنــهم مطيعـون ورخيصـون طيلـة سـنوات وهـم يقطعـون النباتـات المتطفلـة والجذور بمناجلهم بأقل من دولار في اليوم، وقبلوا أن يعيشوا في سقيفة قذرة، ويموتوا مـن الملاريـا والسل. ثم أسسوا اتحادا.

1928: أراكاتاكا

اللعنة

حر شديد ووهن وحقد. تعفن الموز على الأشجار ونـامت الثـيران أمـام عربـات فارغـة. وقفـت القطارات ميتة على سككها ولم يصلها عنقود واحد من الفاكهة. انتظرت سـبع سـفن راسـية عنـد أرصفة سانتا مارتا: في عنابرها التي تخلو من الفاكهة توقفت المراوح عن الطنين.

أربعمائة مضرب خلف القضبان لكن الإضراب تواصل بعناد.

أقامت يونايتد فروت في أراكاتاكا عشاء على شرف الزعيم العسكري والمدني للمنطقة. في أثناء تناول الحلوى لعن الجنرال كارلوس كورتيز بارغاس العمال، *مرتكبي الشر المسلحين ومحرضيهم البلاشفة* وأعلن أنه سيتقدم غدا إلى ثيناغا على رأس قوات حفظ النظام ليقوم بعمله.

1928: ثيناغا

مذبحة

ارتفع مد من الرايات على شواطئ ثيناغا. رجال يحملون مناجل على خصورهم، نساء يحملن الآنية وأطفال ينتظرون هنا وسط نيران المخيم. وعدت الشركة أنها ستوقع، الليلة، اتفاقية لإنهاء الإضراب.

بدلا من مدير يونايتد فروت جاء الجنرال كورتيز بارغاس، وبدلا من الاتفاقية قرأ عليهم إنذارا.

لم يتحرك أحد. دوى بوق التحذير ثلاث مرات ثم انفجر العالم وارتفع صخب الرعود فجأة بينما كانت الرشاشات والبنادق تفرغ مخازنها. فرشت الساحة بالجثث. كنس الجنود وغسلوا طول الليل بينما رميت الجثث في البحر. وفي الصباح لم يكن هناك شيء.

لم يحدث شيء في ماكوندو ولم يحدث شيء ولن يحدث أي شيء مطلقا.

1928: أراكاتاكا

غارسيا ماركيز

استمرت مطاردة المضربين الجرحى والمختبئين، اصطيدوا كالأرانب من بنادق قطار متحرك، وفي المحطات، وضعوا في شباك كالأسماك. أسر مائة وعشرون في أراكاتاكا في ليلة واحدة.

أيقظ الجنود الكاهن وانتزعوا مفتاح المقبرة. مرتجفا في سرواله أصغى الكاهن لإطلاق النار.

في مكان ليس بعيدا زعق طفل في مهده.

ستمر الأعوام وسيكشف ذلك الطفل للعالم أسرار منطقة هاجمها طاعون النسيان حتى أنها نسيت أسماء الأشياء. سيكتشف الوثائق التي تروي كيف أطلقت النار على العمال في الساحة وكيف أن الأم الكبيرة هي مالكة الحيوات والمزارع والمطر الذي سقط ويسقط وكيف أنه بين مطرة وأخرى تصعد ريمديوس الجميلة إلى السماء ويمر في الجو ملاك عجوز صغير ومنتوف ساقطا نحو قن الدجاج.

1928: بوغوتا

جريدة السينما

نقلت الصحافة أخبار الأحداث الأخيرة في منطقة الموز. قالت المصادر الرسمية إن تزايد المضربين أحرق أربعين مزرعة، ودمر خمسة وثلاثين ألف متر من أسلاك البرق وقتل ثمانية عمال حين حاولوا أن يهاجموا الجيش.

اتهم رئيس الجمهورية المضربين بالخيانة والجريمة مصرحا: *لقد طعنوا بخنجرهم المسموم القلب المحب للوطن*. ثم أصدر الرئيس مرسوما عين بموجبه الجنرال كورتيز بارغاس رئيسا للأمن الوطني ورفع وكافأ جميع من اشتركوا في الأحداث.

في خطبة دراماتيكية، ناقض المشرع الليبرالي الشاب خورخي إليسير غيتان القصة الرسمية واتهم الجيش الكولومبي بارتكاب المذبحة تنفيذا لأوامر شركة أجنبية. قال غيتان إن شركة يونايتد فروت التي أدارت المجزرة خفضت الأجر اليومي الذي كان يدفع في قسائم وليس نقدا. أكد المشرع أن الشركة تستغل أراضي تبرعت بها الدولة الكولومبية وهي غير خاضعة للضرائب.

1929: مكسيكو سيتي

ميا Mella

أمر ديكتاتور كوبا خيراردو ماشادو بقتله. كان خوليو أنطونيو ميا طالبا مكسيكيا آخر منفيا إلى مكسيكو ومشغولا جدا بالتحرك ونشر المقالات لقلة من القراء، وهي مقالات ضد التمييز العنصري والوجه الخفي للاستعمار. لم يخطئ الديكتاتور حين عده عدوه الأكثر خطرا. كان رجلا متألقا منذ أن ألقى خطبه النارية التي هزت طلاب هافانا. التهب ميا وهو يشجب الديكتاتورية ويسخر من شيخوخة الجامعة الكوبية التي هي مصنع للمحترفين الذي يملكون ذهنية دير استعماري.

وفي ليلة كان تينا يطوف فيها شابكا ذراع صديقته تينا مودوتي اغتاله القتلة.

صرخت تيما لكنها لم تبك. لم تبك إلى أن عادت إلى المنزل وشاهدت حذاءه الفارغ ينتظرها تحت السرير.

منذ بضع ساعات، كانت تلك المرأة سعيدة لأنها تغار من نفسها.

1929: مكسيكو سيتي

تينا مودوتي

لا علاقة للحكومة الكوبية بالمسألة كما أصرت الصحف اليمينية المكسيكية. كان ميا ضحية جريمة هوى وليس كما قال البلاشفة الموسكوفيون. كشفت الصحافة أن تينا مودوتي، المرأة ذات

السمعة الملتبسة، تصرفت ببرود إزاء الحادثة، وبالتالي، سقطت في تناقضات مثيرة للشبهة في إفاداتها للشرطة.

مودوتي، المصورة الفوتوغرافية الإيطالية، رسخت قدميها عميقا في مكسيكو في الأعوام القليلة التي قضتها فيها. عكست صورها عظمة في أشياء الحياة اليومية وفي البشر الذين يمارسون العمل اليدوي. لكنها مذنبة بخطيئة الحرية. كانت تعيش وحيدة حين عثرت على ميا مختلطا بالحشد المتظاهر من أجل ساكو وفانزيتي وساندينو وتنقلت معه بشكل غير رسمي. كانت في السابق ممثلة في هوليود وموديلا للرسامين وعشيقة لهم. جعلت كل رجل يراها عصبيا. باختصار، هي عاهرة. ولتتويج ذلك هي شيوعية وأجنبية. وزعت الشرطة صور جمالها الذي لا يغفر وهي عارية بينما بدأت الإجراءات لطردها من مكسيكو.

1929: مكسيكو سيتي

فريدا

ليست تينا مودوتي وحيدة أمام مفتشيها. كان يرافقها دائما دييغو ريبيرا وفريدا كاهلو: الرسام الضخم بوذا وفريدا الصغيرة الرسامة، أفضل صديقات تينا، التي تبدو كأميرة شرقية غامضة لكنها تقسم وتشرب التيكيلا مثل فرقة موسيقية في خاليسكو.

كانت كاهلو تمتلك ضحكة وحشية ورسمت لوحات زيتية رائعة منذ ذلك اليوم الذي حكم عليها فيه بالألم الذي لا ينتهي. عرفت ألما آخر منذ طفولتها حين ألبسها والداها جناحين من القش، لكن الألم المتواصل، والذي يشل، جاء فقط منذ الحادث الذي تعرضت له حين اخترقت شظية من سيارة متفجرة جسدها كالرمح وأصابت عظامها.

إنها الآن ألم يعيش كشخص. أجروا لها عدة عمليات عبثا. وبدأت ترسم في فراشها في المشفى صورا شخصية كانت تمجيدا يائسا للحياة المتبقية لها.

1929: كابيا

لامبياو

هاجم رجل العصابات الأكثر شهرة في الشمال الغربي للبرازيل بلدة كابيا. حدد الزعيم لامبياو، الذي لا يضحك مطلقا، مبلغا معقولا كفدية ثم قدم تخفيضا لأننا في فصل القحط. وبينما كانت شخصيات البلدة البارزة تجمع المال كان يطوف في الشوارع. تبعته البلدة كلها. كانت جرائمه المروعة قد سببت له إعجابا عاما.

كان لامبياو، الملك الأعور، سيد الأماكن المفتوحة، يلمع تحت الشمس. منحته نظارته ذات السلك الذهبي مظهر بروفيسور شارد الذهن. كان خنجره المتوهج طويلا كسيف. وعلى كل إصبع يتألق خاتم من الزمرد، وخيطت إلى طوق الشعر الذي حول جبهته باوندات إنكليزية ورقية.

اتجه لامبياو نحو السينما حيث يعرض فيلم لجانيت غينور. في تلك الليلة تناول العشاء في الفندق وإلى جانبه جلس عامل تلغراف البلدة يتذوق اللقمة الأولى من كل صحن. ثم تناول لامبياو عدة كؤوس من الكحول وهو يقرأ كتاب حياة يسوع من تأليف إلين ج. وايت. أنهى يومه في الماخور، اختار أكثرهن جمالا، إندينا ما، وأمضى معها الليلة كلها. فجرا أصبحت إندينا مشهورة وطوال أعوام كان الرجال يقفون في صف منتظرين أمام بابها.

1929: أتلانتيك سيتي

هيئة الجريمة

عقدت الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة مؤتمرها الأول في صالونات فندق بريسيدينت وحضر المثلون المؤهلون لعصابات إجرامية تعمل في كل من المدن الرئيسية.

غصن زيتون، راية بيضاء: قرر المؤتمر أن العصابات المتنازعة يجب أن تتوقف عن تصفية بعضها بعضا وصدر عفو عام. ومن أجل ضمان السلام اتبع منفذو صناعة الجريمة مثال صناعة النفط.

وكما فعلت ستاندارد أويل وشيل وزع رجال العصابات الأقوياء الأسواق وحددوا الأسعار واتفقوا على إبادة الصغار والمتوسطين.

في الأعوام الأخيرة نوع مدراء الجريمة اهتماماتهم وحدثوا أساليبهم، والآن لا ينشغلون بالابتزاز والقتل والدعارة والتهريب فحسب، وإنما أيضا يملكون مصانع التقطير والفنادق والكازينوهات والسوبرماركات ويستخدمون أحدث الرشاشات والآلات الحاسبة. يدير المهندسون والاقتصاديون وخبراء الدعاية فرق التقنيين الذين يتجنبون ضياع المصادر ويضمنون ارتفاعا متواصلا في الفوائد.

ترأس آل كابوني هيئة الشركة الأكثر ربحا في اللعبة وكان يكسب مائة مليون دولار في العام.

1929: شيكاغو

آل كابوني

تغنى عشرة آلاف طالب باسم آل كابوني في ملعب جامعة نورثويسترن الرياضي. حيا كابوني ذو الشعبية الحشد ملوحا بيديه. كان يرافقه اثنا عشر حارسا وتنتظره على الباب سيارة كاديلاك مصفحة. يضع كابوني وردة في طية صدر سترته ودبوسا ألماسيا في ربطة عنقه ولكنه يرتدي تحت هذا صدرة فولاذية ويخفق قلبه إزاء مسدس من عيار 45. إنه صنم. لا أحد يقدم مثله عملا كثيرا لردهات الجنازة، ولمحلات بيع الأزهار، ولخياطين يقومون بتصليح غير مرئي للثقوب الصغيرة. وكان يدفع رواتب كريمة لرجال الشرطة والقضاة والمشرعين ورؤساء البلديات. كابوني، رجل الأسرة النموذجي، مقت التنورة القصيرة ومساحيق التجميل وآمن أن مكان المرأة هو المطبخ. وكوطني متحمس كان يضع صور جورج واشنطن وأبراهام لنكولن على طاولته. وكمحترف مؤثر

كان يقدم أفضل خدمة متوفرة لإخماد الإضرابات وضرب العمال وإرسال المتمردين إلى العالم الآخر وهو دائما متيقظ للتهديد الأحمر.

آل كابوني يدعو إلى مقاومة الخطر الشيوعي

إن البلشفية تقرع بابنا ويجب أن لا نسمح لها بالدخول. يجب أن نبقى متحدين وندافع عن أنفسنا ضدها بشكل حاسم. يجب أن تبقى أميركا آمنة ودون فساد وينبغي أن نحمي العمال من الصحافة الحمراء والخيانة الحمراء ونضمن أن تبقى عقولهم معافاة...

1929: نيويورك

شعور بالنشاط والخفة

كان ملايين البشر يقرؤون كتاب **الرجل الذي يجهله الجميع** للمؤلف بروس بارتون، الكتاب الذي يصور وول ستريت على أنه فردوس. يقول المؤلف إن مسيح الناصرة أسس عالم المشاريع الحديث وكان مقاولاً غازياً للسوق، ذا موهبة بعبقرية إعلانية، يساعده اثنا عشر بائعاً على صورته وشبهه.

بإيمان يجاور الإيمان الديني، آمنت الرأسمالية بأبديتها الخاصة. أي مواطن أميركي شمالي لا يشعر بأنه واحد من النخبة؟ إن البورصة كازينو يلعب فيه الجميع ولا أحد يخسر. جعلهم الله مزدهرين. وكان المقاول هنري فورد يتمنى أن لا ينام مطلقاً لِكي يجمع المزيد من النقود.

من البيان الرأسمالي لهنري فورد صانع السيارة

فشلت البلشفية لأنها كانت غير طبيعية وغير أخلاقية أما نظامنا فقد صمد...

ليس ثمة سخف أو ضرر أكثر ضخامة للبشرية من الإصرار على أن جميع الناس متساوون.

يأتي المال بشكل طبيعي كنتيجة للخدمة ومن الضروري جداً أن نملك النقود ولكن لا نريد أن ننسى أن نهاية المال ليست الراحة بل فرصة إنجاز مزيد من الخدمة. في ذهني لا يوجد شيء أكثر مقتاً من حياة الراحة. لا أحد منا يمتلك حقاً بالراحة إذ لا مكان في الحضارة للعاطل..

أظهرنا في إعلاننا الأول أن السيارة هي منفعة. قلنا: نسمع دائماً الحكمة القديمة المقتبسة، الزمن هو النقود، مع ذلك كم من رجال الأعمال والمشاريع يتصرفون وكأنهم فعلاً آمنوا بحقيقتها...

1929: نيويورك

الأزمة

نمت المضاربة بوتيرة أسرع من الإنتاج وكان الإنتاج أسرع من الاستهلاك. انطلق كل شيء بوتيرة تبعث على الدوار إلى أن حدث فجأة، في يوم واحد، انهيار بورصة نيويورك محيلا إلى رماد فوائد أعوام.

أصبحت أغلى الأسهم قصاصات ورق لا تنفع حتى في تغليف الأسماك.

هبطت الأسعار والرواتب وأسعار الأسهم وسقط أكثر من رجل أعمال من برجه. أغلقت المعامل والبنوك وانهار المزارعون. فرك العمال أيديهم فوق أكوام القمامة المشتعلة ومضغوا العلكة ليهدئوا معداتهم. انهارت أضخم المشاريع وحتى آل كابوني تعرض للسقوط.

1930: لا باز

مغامرة مؤثرة لأمير ويلز بين المتوحشين

دفعت بورصة نيويورك كثيرا من الحكومات إلى الهاوية. تفتت الأسعار العالمية ومعها رؤساء أميركا اللاتينية ـ الريش الذي نتف من جناحي نسر ـ وولدت ديكتاتوريات جديدة لتجعل الجوع أكثر حدة.

وفي بوليفيا أدى انهيار سعر القصدير إلى سقوط الرئيس هرناندو سايلز ووضع مكانه جنرال على جدول رواتب باتينو، ملك القصدير. نهض مجرم يرافق الجيش، هاجم القصر الحكومي ومنح أذنا لنهبه. خارج السيطرة، سرقوا السجاد والأثاث واللوحات وكل شيء. أخذوا الحمامات كلها والمراحيض والحنفيات وأنابيب التصريف.

عندئذ زار أمير ويلز بوليفيا. توقع البشر وصول أمير على الطراز الذي أراده الله يمتطي جوادا أبيض مطهما ويتمنطق سيفا. خصلاته الذهبية تتدفق في الريح. خيب أملهم سيد يعتمر قبعة ويحمل عكازا ويهبط من القطار منهكا.

في ذلك المساء أقام الرئيس الجديد مأدبة للأمير في القصر الذي جرد من كل شيء. وفي أثناء تناول الحلويات وتماما حين كانت الخطب على وشك أن تبدأ، همس سيادته كلمات مؤثرة في أذن مترجمه الذي نقلها إلى الضابط المعاون الذي نقلها، بدوره، إلى الرئيس. شحب الرئيس. نقرت قدم الأمير بعصبية على الأرض. أمنياته أوامر ولكن لا يوجد مكان في القصر أو طريقة لتنفيذها. دون تردد عين الرئيس لجنة يرأسها وزير الخارجية وقائد القوات المسلحة.

رافقت الحاشية ذات القبعات والريش أمير ويلز بشكل مؤثر بخطوة مهيبة ورشيقة وهي تقريبا كالقفز، عبر ساحة دي أرماس. حين وصلوا إلى زاوية دخلوا جميعا إلى فندق باريس. فتح وزير

الخارجية الباب الذي كتب عليه مخصص للسادة وبيّن الطريق لوريث العرش الإمبراطوري البريطاني.

1930: بوينس آيرس

يريغوين Yrigoyen

تركت الأزمة العالمية أيضاً رئيس الأرجنتين هيبيليتو يريغوين مترنحاً على حافة جرف محكوماً بانهيار أسعار اللحوم والقمح.

صامتاً ووحيداً، هذا الثقل العنيد والقديم من زمن آخر وعالم آخر، لا يزال يريغوين يرفض أن يستخدم الهاتف ولم يدخل مطلقاً إلى السينما ولا يثق بالسيارات ولا يؤمن بالطائرات. لقد غزا الشعب بالثرثرة وأقنعه فرداً فرداً، وشيئاً فشيئاً دون خطب. والآن، يفك البشر نفسهم الأحصنة عن عربته ويجرونه بأيديهم ويلعنونه ويرمون أثاثه في الشارع.

طُبخ الانقلاب العسكري الذي أطاح به في نادي الجوكي وفي وثيركولو دي أرماس Circulo de Armas على ألسنة لهب الأزمة نفسها. ختم البطريرك المريض الذي يئن من الروماتيزم مصيره حين رفض أن يسلم النفط الأرجنتيني لستاندارد أويل وشل. والأسوأ من ذلك، أراد أن يخفف كارثة الأسعار من خلال إقامة المشاريع مع الاتحاد السوفياتي.

مرة أخرى، من أجل صالح العالم، دقت ساعة السيف، هذا ما كتبه الشاعر ليوبولدو لوغونيز معلناً الحقبة العسكرية في تاريخ الأرجنتين.

في أوج الانقلاب، لاحظ نقيب شاب يدعى خوان دومنغو بيرون أحد المتحمسين يندفع بسرعة هائلة من القصر الحكومي صارخاً: *يحيا الوطن! تحيا الثورة*!

كان المتحمس يحمل العلم الأرجنتيني ملفوفاً حول ذراعه وكانت هناك، داخل الراية، آلة كاتبة مسروقة.

1930: باريس

الصحفي أورتيث إتشاغي Ortiz Echague
يعلق على هبوط سعر اللحوم

في كل مرة أعود فيها من بوينس آيرس يسألني الأرجنتينيون الذين في باريس: كيف حال الأبقار؟

على المرء أن يجيء إلى باريس ليقدر أهمية البقرة الأرجنتينية. ليلة أمس، في كاباريه إل جارون - في مونمارتر حيث يجرب الأرجنتينيون الشبان المهن الفظة للحياة - سألني بعض

الأشخاص الذين يجلسون إلى طاولة مجاورة بتلك الألفة المعتادة في ساعات الصباح الأولى: «قل لنا أيها الصديق الحميم، كيف حال الأبقار في الوطن»

قلت: إنها في حالة عجز.

ولا تستطيع أن تنهض؟

لا يبدو الأمر جيدا.

ألا تملك أية أبقار؟

تحسست جيبي وقلت: لا.

أنت لا تعرف أيها الصديق القديم كم أنت محظوظ. عند هذه النقطة دخلت ثلاث كونسرتينات في بكاء حنيني مختصرة الحوار.

كيف حال الأبقار؟ سألني رئيس الخدم والموسيقيون وفتيات الأزهار والخدم وراقصات الباليه الشاحبات، حمالون بخصل ذهبية، سائسون مجتهدون، وقبل كل شيء، نساء مغطيات بالمساحيق، من تلك النساء البائسات المنتفخات الأعين والفقيرات الدم؟

1930: أبيانيدا Avellaneda

البقرة، السيف والصليب

تشكل البقرة والسيف والصليب الثالوث المقدس للسلطة في الأرجنتين، ويحرس الأشداء في الحزب المحافظ المذبح. في قلب بوينس آيرس، يستخدم المسلحون ذوو القفازات البيضاء، القوانين والمراسيم كالرشاشات في عمليات السلب. الخبراء في المحاسبة المضاعفة والأخلاق المضاعفة لم يحتاجوا إلى إزعاج أنفسهم بكسر الأقفال. إنهم لا يملكون شهادات دكتوراه من أجل لاشيء. يعرفون بدقة أية خلائط سرية تفتح صناديق نقد البلاد.

في الجانب الآخر النهر، في أبيانيدا، تمسك حزب المحافظين بإطلاق النار الشريف من أجل سياسته ومشاريعه. كان السيناتور الدون ألبيرتو بارسيلو يمنح الحياة ويقضي عليها وهو على عرشه هناك. يصطف المنبوذون ليتلقوا من الدون ألبيرتو بقشيشا قليلا، نصيحة أبوية وعناقا حميما. شقيقه إنريك ذو الذراع الوحيدة، يعتني بقسم الماخور. أما مسؤولية الدون ألبيرتو فهي اليانصيب والسلام الاجتماعي. يدخن بمشرب ويتجسس على العالم من تحت جفنين منتفخين. أتباعه ينهون الإضرابات ويحرقون المكتبات ويحطمون المطابع ويختصرون عمل الاتحادات التجارية وجميع الذين ينسون أن يدفعوا ويطيعوا في ساعة الأزمة هذه المفضية إلى الفوضى. فيما بعد، منح الإله الدون ألبيرتو مائة بيزوس.

1939: كاستيكس Castex

آخر متمرد من رعاة البقر

كان يدعى في السهوب الأرجنتينية بيروليتو، وهو ابن فلاحين من إيطاليا. أصبح خارجا عن القانون منذ شبابه بعد أن أطلق النار على شرطي وأصابه في جبهته لأنه أذله. والآن ليس أمامه خيار إلا أن ينام خارج المنزل. في الصحراء، حيث تضربه الريح، يظهر ويختفي كبرق أو سراب، ممتطيا حصانا أسود يقفز فوق سبعة أسيجة من الأسلاك دون جهد. يحميه الفقراء وينتقم لهم ضد الأقوياء الذين يستغلونهم ثم يبتلعون أراضيهم. في نهاية كل غارة ينقش حرف b بالرصاص على دولاب طاحونة مزرعة ويزرع الريح بمنشورات فوضوية تنبئ بالثورة .

1930: سانتو دومنغو

الإعصار

يضرب وهو يزأر محطما السفن على الأرصفة، هادما الجسور، مقتلعا الأشجار، قاذفا بها في الجو. تطير سقوف قصديرية كفؤوس مجنونة، ويتقطع بشر. تمهد الريح هذه الجزيرة، يجرفها البرق ويغرقها المطر والبحر. يضرب الإعصار كأنه ينتقم لنفسه أو ينفذ لعنة فنتازية ما. يمكن أن يعتقد المرء أنه حكم على جمهورية الدومينيكان أن تدفع، وحدها، دين كوكب بأكمله.

فيما بعد، حين تلاشى الإعصار بدأ الحرق وكان يجب أن تحرق الجثث والحطام وإلا ستقضي الأوبئة على أي شيء يبقى على قيد الحياة أو منتصبا. طول أسبوع تدلت سحابة كبيرة من الدخان الأسود فوق مدينة سانتو دومنغو.

هكذا كانت الأيام الأولى لحكومة الجنرال رافايل ليونيداس تروخيو الذي جاء إلى السلطة عشية الإعصار والذي عانى من انخفاض في أسعار السكر لم يكن أقل عنفا.

1930: إلوبانغو

ميغيل في سن الخامسة والعشرين

طالت الكارثة أيضا سعر البن دورة كاملة. فسدت الحبوب على الأشجار وخيمت رائحة كريهة من البن المتعفن في الجو. رمى المزارعون عمالهم على الطرقات في جميع أنحاء أميركا والقلة التي ظلت تملك عملا تلقت الحصص نفسها كالخنازير.

في أسوأ أوقات الأزمة ولد الحزب الشيوعي في السلفادور. كان ميغيل، الذي أصبح صانع أحذية ماهرا، ويعمل أينما يجد نفسه، هو أحد المؤسسين. كان يحرض البشر، يربح متطوعين، يختبئ ويهرب والشرطة تطارده دائما.

في صباح ما اقترب ميغيل من منزله متنكرا. بدا كأنه لم يكن مراقبا. سمع طفله الصغير يبكي فدخل. كان الطفل وحيدا ويصرخ بقوة. كان ميغيل قد بدأ يغير حفاضه حين نظر عبر النافذة ورأى الشرطة تحاصر المكان.

قال لطفله المتبرز ونصف المحفض: اعذرني، وقفز كقطة منزلقا عبر ثغرة بين قرميد السقف المحطم حين رنت الطلقات الأولى.

وهكذا حصلت الولادة الرابعة لميغيل مارمول في سن الخامسة والعشرين.

1930: نيو يورك

الحياة اليومية في أثناء الأزمة

بشكل لا يدعو إلى السرور، وكسلسلة من الصفعات الوقحة على الوجه، أوقظت الأزمة الأميركيين الشماليين. وخزت الكارثة التي حلت ببورصة نيويورك الحلم العظيم، الذي وعد أن يملأ جميع الجيوب بالنقود، والسماء بالطائرات، وكل إنش من الأرض بالسيارات وناطحات السحاب.

لا أحد يبيع التفاؤل في السوق. الأزياء تحزن. أوجه طويلة، فساتين طويلة، شعر طويل. انتهت العشرينيات ذات الزئير، ومعها السيقان المكشوفة والشعر القصير.

سقط الاستهلاك كله عموديا. ازدادت مبيعات السجائر، وخرائط البروج، ولمبات الـ 25 واط، التي لا تقدم الكثير من الضوء، لكنها لا تسحب الكثير من التيار. أنتجت هوليود أفلاما عن الوحوش العملاقة المفلتة، كنغ كونغ، وفرانكشتاين، اللذين لا يشرحان كالاقتصاد، ولا يمكن إيقافهما كالأزمة التي تبذر الرعب في شوارع المدينة.

1930: أتشوابا Achuapa

تقلص قوس قزح

نيكاراغوا، البلاد التي حكم عليها أن تنتج حلويات رخيصة ـ الموز، القهوة، السكر ـ تابعت تحطيم هضم زبائنها.

احتفل رئيس الجبهة الساندينية ميغيل أنغيل أورتيث بالعام الجديد بالقضاء على دورية بحرية في أودية أتشوابا الموحلة، وفي اليوم نفسه سقطت دورية أخرى عن الجرف في جوار أوكوتال.

عبثا، حاول الغزاة الانتصار من خلال التجويع، وحرق الأكواخ والمحاصيل. أجبرت أسر كثيرة أن تذهب إلى الجبال، متجولة ودون حماية. تركت خلفها أعمدة من الدخان والحيوانات المقتولة بالحراب.

اعتقد الفلاحون أن ساندينو يعرف كيف يغري قوس قزح، وحين يأتي يتقلص إلى أن يصبح بوسعه أن ينخسه بإصبعين فحسب.

1931: بوكاي Bocay

الأبواق ستصدح

في ضوء رقاقات خشب الصنوبر العطرية، كتب ساندينو الرسائل، الأوامر، والتقارير التي ستقرأ بصوت مرتفع في المعسكر حول الوضع العسكري والسياسي في نيكاراغوا (*حالا سيحرق العدو نفسه كمفرقعة ...*). كتب بيانات تشجب الخونة (*لن يجدوا مكانا لكي يعيشوا فيه إلا تحت سبعة أشبار من التراب ...*). وخط نبوءات أعلنت أن أبواق الحرب ستصدح حالا ضد الظالمين في كل مكان، وعاجلا لا آجلا، سيقضي يوم القيامة على الظلم لكي يصبح العالم في النهاية ما أراد أن يكونه حين لم يكن هناك أي شيء.

كتب ساندينو لأحد ضباطه:

«لن يكون بوسعنا أن نسير

بسبب جميع الأزهار...»

إذا أدركك النوم، الجوع أو المخاوف التافهة، اسأل الله أن يريحك... سيمنحنا الله هذا النصر الآخر، الذي سيكون النصر الحاسم، لأنني متأكد أنه بعد هذه المعركة لن يعودوا لكي يحصلوا على فكتهم، وسوف تغطى بالمجد! حين ندخل ماناغوا، لن نكون قادرين أن نسير بسبب جميع الأزهار...

1931: بوكي

سانتوس لوبيث

كان كل من ينضم إلى الجيش المحرر لا يحصل على راتب مطلقا، لا يحصل إلا على حق أن يدعى بالأخ. عليه أن يعثر على بندقية بطريقته الخاصة، في المعركة، وربما على بدلة تنتزع من جندي، كي يرتديها حالما يتم تقصير البنطلون بشكل ملائم.

كان سانتوس لوبيث مع ساندينو من اليوم الأول. عمل لدى المزارعين الذين امتلكوه منذ أن كان في الثامنة من عمره. كان في سن الثانية عشرة حين نشب تمرد سان ألبينو، وأصبح فتى مائيا ورسولا في جيش ساندينو، جاسوسا بين السكارى أو الأعداء المخبلين، ومع أصدقائه الآخرين، تخصص في إعداد الكمائن وابتكار الهجمات المضللة بالصفائح ونثريات مختلفة يستطيع أن يعثر عليها ليجعل بضعة أشخاص يبدون كحشد.

وصل سانتوس لوبيث إلى سن السابعة عشرة في اليوم الذي رفعه فيه ساندينو إلى عقيد.

1931: بوكي

ترانكيلينو

كان السلاح الأروع في ترسانة ساندينو الواهنة رشاش براوننغ آخر موديل، انتزع من طائرة أميركية شمالية أسقطت بالبنادق.

وكان هذا البراوننغ يطلق ويغني بين يدي ترانكيلينو جاركين.

كان ترانكيلينو هو الطباخ. يظهر سنا واحدا حين يبتسم، يضع نبتة سحلبية في قبعته، وحين يحرك الإناء الكبير الذي يتصاعد منه البخار، الفقير باللحوم، لكن الغني بالرائحة الطيبة، يتناول جرعة رم جيدة.

كان تناول الكحول ممنوعا في جيش ساندينو إلا أن ترانكيلينو استثني من ذلك. والحصول على ذلك الامتياز استغرق طويلا. ولكن بدون تلك الجرعات القليلة لا يعمل فنان الملعقة الخشبية والزناد. حين يفرضون عليه الحمية، تكون صحونه فارغة وطلقاته طائشة.

1931: بوكي

كابريرا الصغير

يعزف ترانكيلينو الموسيقى على الرشاش، ويصنعها بدرو كابريرا بالبوق. بالنسبة لبروااننغ ترانكويلينو إنها تفجرات تانغو ومارشات وأناشيد رعوية، بينما يئن بوق كابريرا الصغير مصدرا احتجاجات ويعلن أفعالا جسورة.

ولكي يقبل بوقه السماوي كل صباح، يجب على كابريرا الصغير أن يجمد جسده ويغمض عينيه. يوقظ الجنود قبل الفجر، وفي الليل يهدهدهم كي يناموا، نافخا ألحانا بسيطة متريثة.

هذا الموسيقي والشاعر، ذو القلب الدافئ والقدمين المصابين بالحكة، كان معاون ساندينو منذ أن بدأت الحرب. ولقد منحته الطبيعة قامة طولها ياردة ونصف وسبع نساء.

1931: هانويل

الرابع

زار شارلي المتجول مدرسة هانويل. سار على رجل واحدة، وكأنه يتزحلق. لوى أذنه فاندفع تيار من الماء خارجا. مئات من الأطفال، الميتمين، الفقراء، أو المهجورين، انفجروا من الضحك.

منذ خمسة وثلاثين عاما، كان شارلي شابلن أحد أولئك الأطفال. والآن تعرف على الكرسي الذي اعتاد أن يجلس عليه وعلى زاوية مبنى الألعاب الرياضية الكريه حيث كان يجلد.

فيما بعد هرب إلى لندن. في تلك الأيام، كانت نوافذ الحوانيت تعرض قطع لحم خنزير حارة جدا وبطاطا ذهبية مغمسة بالصلصة. كان أنف شابلن لا يزال يتذكر الرائحة التي تسللت عبر الزجاج لتسخر منه. ولا تزال تنتقش في ذاكرته أسعار متع لا يمكن الحصول عليها: كوب من الشاي، نصف بنس، قطعة من الرنكة، ترتة، بنسان.

ومنذ عشرين عاما غادر انكلترة في قارب للماشية. والآن يعود هذا الرجل الأكثر شهرة في العالم. تتبعه سحابة من الصحفيين كظله، وأينما يذهب يتجمع البشر لكي يشاهدوه ويلمسوه. يستطيع أن يفعل ما يريد. في قمة فورة الأفلام السينمائية الناطقة، حققت أفلامه الصامتة نجاحا ساحقا. وأصبح بوسعه أن يصرف ما يريد على الرغم من أنه لم يرغب بذلك مطلقا. على الشاشة، شارلي المتجول، الورقة الفقيرة في الريح، لا يعرف أي شيء عن النقود، وفي الحقيقة، شارلي شابلن، الذي يتعرق الملايين، يراقب البنسات، ولا يقدر أن ينظر إلى لوحة دون أن يحسب سعرها. لن يتقاسم أبدا مصير بستر كيتون، الرجل ذي الجيبين المفتوحين، الذي يطير منه كل شيء حالما يكسبه.

1932: هوليود

الخاسر

وصل بستر كيتون إلى استوديوهات مترو متأخرا ساعات، يجر ثقل فورة شراب البارحة: عينان محمومتان، لسان نحاسي، عضلات قماشية. من يعرف كيف نجح في تنفيذ دوران المهرج وكيف قرأ النكات البلهاء التي اقتضاها النص.

والآن أفلامه ناطقة ولا يسمح له بالارتجال، ولا يمكن أن يصور باحثا عن تلك اللحظة الخادعة حين يكتشف الشعر الضحك المسجون ويحرره. كيتون، عبقري الحرية والصمت، يجب أن يتبع حرفيا سيناريوهات الدجال التي كتبها آخرون. بتلك الطريقة تهبط التكاليف إلى النصف، ويقضى على الموهبة، استنادا إلى معايير إنتاج مصانع الأفلام في حقبة الفيلم الصاخب. تركت في الخلف إلى الأبد، الأيام التي كانت فيها هوليود مغامرة مجنونة.

كل يوم يشعر كيتون أنه مع الكلاب والأبقار. وكل ليلة يفتح زجاجة بوربون ويتوسل إلى ذاكرته أن تشرب وتبقى هادئة.

1932: مكسيكو سيتي

أيزنشتاين

حين كان في مكسيكو اتهم بأنه *بلشفي*، *شاذ جنسيا*، *وخليع*. في هوليود، سموه *كلبا أحمر وصديق القتلة*.

جاء سيرجي أيزنشتاين إلى مكسيكو ليصور ملحمة محلية. وقبل أن ينتج نصفها، استأصلت الأحشاء. حظر الرقيب المكسيكي بعض المشاهد لأن الحقيقة كلها جيدة جدا، ولكن ليس كثيرا منها، شكرا. ترك المنتج الأميركي الشمالي الشريط المصور بين يدي كل من يريد أن يقطعه إلى قطع.

انتهى فيلم أيزنشتايين تعيش المكسيك Que Viva Mexico كومة من القصاصات المتكلفة والصور التي تفتقد إلى التمفصل وضعت مع بعضها دون تناغم أو بخداع، حروف مدهشة مزقت وحررت من كلمة لم تنطق بتاتا من قبل عن هذه البلاد، هذا المكان الذي قفز من المكان الذي يقابل فيه قاع البحر مركز الأرض: الأهرامات التي هي براكين على وشك الانفجار، زواحف متداخلة كأجساد جائعة، أحجار تتنفس...

1932: طرق سانتافه

محرك الدمى

لم يعرف محرك الدمى أنه محرك للدمى حتى ذلك المساء عندما لاحظ، حين كان مع صديق على شرفة في بوينس آيرس، عربة محملة بالقش تعبر الشارع، وعلى القش كان يتمدد فتى صغير يدخن مديرا وجهه إلى السماء، يداه خلف عنقه، ويضع رجلا فوق أخرى. شعر هو وصديقه بالحاح لا يقاوم للخروج. هرب الصديق مع امرأة نحو الأراضي الغامضة المتجمدة في جنوب الجنوب، واكتشف محرك الدمى لعبة تحريك الدمى، حرفة الأحرار، وانطلق في عربة يجرها حصانان.

ومن بلدة إلى أخرى على ضفتي نهر البارانا تركت عجلات العربة الخشبية ندوبا طويلة. كان اسم محرك الدمى، ومستحضر السعادة، خابيير بيلافيني. كان خابيير يسافر مع أولاده ذوي الأجساد المصنوعة من المعجون والورق. وكان يحب من بينهم، بشكل خاص، ماستر غلوبتروتر ذا الأنف الطويل والحزين، القبعة السوداء، وربطة العنق الطائرة. في أثناء العرض يكون امتدادا ليد خابيير، وفيما بعد، ينام ويحلم على قدميه، في صندوق عرض.

1932: إثالكو

حق الانتخاب ومضاعفاته المؤلمة

الجنرال ماكسيميليانو إرنانديث مارتينيث، الذي أصبح رئيسا بسبب انقلاب عسكري، دعا شعب السلفادور إلى انتخاب نواب ورؤساء بلديات. وعلى الرغم من نصب ألف فخ، فاز الحزب الشيوعي الصغير بالانتخابات. شعر الجنرال بالإهانة. علق تدقيق أوراق الاقتراع إلى أجل غير مسمى.

تمرد الشيوعيون بسبب الخدعة وانتفض السلفادوريون في اليوم نفسه الذي ثار فيه بركان إثالكو. وبينما كانت الماغما الحارقة تتدفق على المنحدرات وغيوم الرماد تحجب السماء، هاجم الفلاحون الحمر الثكنات بالمناجل في إثالكو، وناهيثالكو، وتاكيوبا، وخوايوا Juayua، وبلدات أخرى. وللمرة الأولى استلم سوفييت أميركا السلطة مدة ثلاثة أيام.

ثلاثة أيام. تبع ذلك ثلاثة أيام من الذبح. واجه فارابندو مارتي وقواد شيوعيون آخرون فرق الإعدام. ضرب الجنود حتى الموت الزعيم الهندي خوسيه فيليسيانو أما، قائد الثورة في إثالكو. علقوا جثته في الساحة الرئيسية وأجبروا طلاب المدارس على مراقبة المشهد. ثلاثون ألف فلاح، شجبهم مستخدموهم، أو حكم عليهم لمجرد الشبهة أو بسبب كلام عجائز، حفروا قبورهم بأيديهم. مات أطفال أيضاً، لأن الشيوعيين، يحتاجون، كالأفاعي، إلى أن يقتلوا وهم صغار. وأينما نبش كلب أو خنزير التراب، تظهر بقايا البشر. كان أحد ضحايا فرقة الإعدام الحذّاء ميغيل مارمول.

1932: سويابانغو Soyapango

ميغيل في السادسة والعشرين

حين كانوا ينقلونهم في شاحنة وهم مقيدون، تعرف ميغيل على أشباح طفولته.

فكر: «*أي حظ، أنا ذاهب لأموت حيث دفن حبل سرتي*».

أركعوهم على الأرض بأعقاب البنادق ثم أطلقوا عليهم النار زوجاً زوجاً. كانت أضواء الشاحنة الأمامية والقمر تمنح من الضوء أكثر من الحاجة.

بعد بضع زخات، جاء دور ميغيل مع رجل كان يبيع نقوشاً حكم عليه بأنه روسي. أمسك الروسي وميغيل، الواقفان أمام فرقة الإعدام، أيديهما المقيدة خلف ظهريهما. اعترت حكة جسم ميغيل كله واحتاج بيأس إلى أن يحك، وهذا ملأ ذهنه حين سمع: «*استعداد! سددوا! أطلقوا النار!*»

استعاد ميغيل وعيه تحت كومة من الأجساد التي كانت تقطر دماً. شعر برأسه ينتفض وينزف وشعر بألم الرصاصات في جسمه وروحه وثيابه. سمع طقطقة بندقية تُذَخَّر من جديد: إنها رصاصة الرحمة. غامت عيناه بالدم. انتظر ميغيل الطلقة الأخيرة، لكنه شعر بدلاً من ذلك بمنجل يقطّع فيه.

رفس الجنود الجثث ورموها في حفرة ورموا فوقها التراب. بعد ذلك سمع الشاحنة تنطلق. حاول ميغيل، الجريح والمقطع، أن يتحرك. استغرق قروناً كي يزحف من تحت كثير من الموت والتراب، وأخيراً نجح في أن يسير بخطوة بطيئة جداً وكان يسقط أكثر مما ينتصب، خرج ببطء، معتمراً صمبريرة رفيق اسمه سيرافين.

وهكذا حصلت الولادة الخامسة لميغيل مارمول، في سن السادسة والعشرين.

1932: ماناغوا

ساندينو يتقدم

تقدم ساندينو في هجوم وصل إلى ضفاف بحيرة ماناغوا وشتت قوات الاحتلال. في غضون ذلك، ظهرت صورتان في الصحف العالمية. إحداهما تظهر الملازم أول بنسغتون من البحرية الأميركية يحمل كغنيمة، رأساً مقطوعاً لفلاح نيكاراغوي. في الأخرى تبتسم هيئة الأركان العامة للحرس الوطني النيكاراغوي، ضباط ينتعلون أبواطاً مرتفعة وأغطية للرأس خاصة برحلات القنص. في مركزهم أجلِسَ مدير الحرس، العقيد كالفن. ب.ماثيوز. كانت الغابة خلفهم. عند أقدام المجموعة، كان يتمدد على الأرض، كلب. الغابة والكلب هما النيكاراغويان الوحيدان.

1932: سان سلفادور

ميغيل في السابعة والعشرين

من بين أولئك الذين أنقذوا ميغيل، لم يبق أحد. ثقب الجنود بالرصاص الرفاق الذين عثروا عليه في حفرة، أولئك الذين حملوه عبر النهر على كرسي من الأيدي، أولئك الذين أخفوه في كهف، وأولئك الذين أحضروه إلى منزل شقيقته في سان سلفادور. حين رأت شقيقته طيف ميغيل المثقب بالرصاص والمليء بجروح المنجل المتصالبة، تم إيقاظها من الإغماء بالمروحة. ثم صلت وبدأت تاسوعية من أجل راحته الأبدية.

تواصلت خدمة الجنازة. بدأ ميغيل يستعيد صحته قدر استطاعته، مختبئاً خلف المذبح الذي شيد في ذاكرته، دون أي شيء إلا من مرهم عصير التشيشيبنثي chichipince الذي تضعه أخته بصبر كصبر القديسين على جراحه المتقيحة. مستلقياً وراء الستارة، مشتعلاً من الحمى، أمضى ميغيل عيد ميلاده مصغياً إلى أقرباء وجيران يبعثون الغم يغسلهم محيط من الدموع، يطرون ذكراه بصلوات لا تتوقف.

في إحدى تلك الليالي توقفت دورية على الباب.

«لمن تصلون؟»

«لروح أخي الذي مات».

دخل الجنود، اقتربوا من المذبح، وجعدوا أنوفهم.

تشبثت شقيقة ميغيل بمسبحتها. ارتعشت الشموع أمام صورة سيدنا يسوع المسيح. رسم الجنود صورة الصليب وقالوا: «لترقد روحه بسلام» ثم خرجوا.

وهكذا حصلت الولادة السادسة لميغيل مارمول في سن السابعة والعشرين.

1932: ماناغوا

الهزيمة العسكرية الأولى للولايات المتحدة الأميركية في أميركا اللاتينية

في اليوم الأول من العام غـادر المـارينز نيكـاراغوا مـع جميـع سـفنهم وطائراتـهم. إن الجـنرال الضامر، الرجل الصغير، الذي يبدو كحرفT كبير، ويعتمر صمبريرة ذات حـواف عريضـة، أذل إمبراطورية.

رثت الصحف الأميركية الموتى الكثيرين الذين سقطوا في أعوام كثيرة من الاحتلال، لكنها شددت على قيمة تدريب الطيارين. وبفضل الحرب ضد ساندينو استطاعت الولايات المتحدة، للمرة الأولى، أن تجرب القصف الجوي من طائرات فوكر وكرتيس التي صممت خصيصاً للقتال في نيكاراغوا.

عُين مكان العقيد المغادر ماثيوز ضابط محلي متعاطف ومخلص هـو أناستاسـيو تاتشـو سـوموزا كرئيس للحرس الوطني، الذي يدعى الآن الغارديا ناسيونال.

وحالما وصل إلى ماناغوا قال ساندينو المنتصر: «*الآن نحن أحرار، لن أطلق رصاصة أخرى.*»

حياه رئيس نيكاراغوا خوان بوتيستا ساكاسا وعانقه. عانقه أيضاً الجنرال سوموزا.

1933: معسكر خوردان Camp Jordan

حرب تشاكو Chaco

نشبت الحرب بين بوليفيا والباراغواي، البلدين الأكثر فقراً في أميركا الجنوبية واللذين لا منفذ لهما على المحيط، إنهما البلدان اللذان تعرضا أكثر من غيرهما للغزو والنهب، أزالا بعضـهما عـن الخريطة. كانت شركتا ستاندارد أويل ودتش شيل تختبئان في طيـات العلمـين، وتتنازعـان علـى النفط في تشاكو.

في تلك الحـرب، أجـبر البـاراغويون والبوليفيـون علـى كراهيـة بعضـهم بعضـاً باسـم أرض لا يحبونها، ولا يحبها أحد. تشاكو صحراء رمادية تسكنها الأشواك والثعابين، لا يبين فيـها طـائر غريد أو شخص. كل شيء ظامئ في هذا العالم المرعب حيث تشكل الفراشات خثرات يائسة علـى قطرات الماء القليلة.

بالنسبة للبوليفيين كانت المنطقة تتحول من ثلاجـة إلـى فـرن: لقـد قذفـوا مـن أعـالي جبـال الأنديز وغمسوا في تلك الأراضي ذات الأشجار الخفيضة المشوية. هنا يموت البعض مـن الرصـاص وكثيرون من الظمأ.

كانت سحب ذباب وبعوض تطارد الجنود، الذين يهجمون عبر الأجمات برؤوس منحنية، في مسير إجباري ضد خطوط العدو. على الجانبين، بشر حفاة هم النقد الذي يدفع بسبب أخطاء ضباطهم. مات عبيد المالك الإقطاعي والكاهن القروي في بدلات مختلفة، في خدمة الجشع الإمبريالي.

تحدث أحد الجنود البوليفيين وهو يسير إلى حتفه. لم يقل شيئاً عن المجد، أو عن مسقط الرأس. قال وهو يتنفس بتثاقل: «*اللعنة على الساعة التي ولدت فيها ذكراً*».

ثيسبيدس Cespedes

من الجانب البوليفي، سيروي أوغوستو ثيسبيدس تلك الملحمة المثيرة للشفقة:

سرية من الجنود تبحث عن الماء بدأت تحفر بئراً بالمعاول والرفوش. المطر القليل الذي سقط تبخر مسبقاً، وليس هناك ماء في أي مكان. على عمق اثني عشر متراً عثر صيادو الماء على الوحل. حفروا إلى ثلاثين متراً، ثم على عمق خمسة وأربعين متراً أخرجت البكرة سطولاً من الرمل، وكل منها أكثر جفافاً من الآخر. تابع الجنود الحفر، يوماً بعد آخر، في بئر الرمل، تغلغلوا إلى أعمق وهم أكثر صمتاً. وحين شن الباراغويون، الذي أنهكهم الظمأ، هجوماً، مات البوليفيون وهم يدافعون عن البئر وكأنها تحتوي على الماء.

روا باستوس Roa Bastos

من الجانب البارغوايي، سيروي أوغوستو روا باستوس القصة. تحدث هو كذلك عن آبار أصبحت قبوراً، وعن حشد الموتى، وعن الأحياء الذين يمكن تمييزهم عنهم من حقيقة أنهم يتحركون، كسكارى نسوا الطريق إلى المنزل. رافق الجنود الضائعين، الذين ليس لديهم قطرة ماء، ليس لديهم دمعة ليبكوا.

1934: ماناغوا

فيلم رعب:

سيناريو لممثلين وبعض الكومبارس

غادر سوموزا منزل آرثر بليس لين، سفير الولايات المتحدة الأميركية.

وصل ساندينو إلى منزل ساكاسا، رئيس نيكاراغوا.

حين جلس سوموزا ليعمل مع ضباطه، جلس ساندينو ليتناول العشاء مع الرئيس.

قال سوموزا لضباطه إن السفير قدم، لتوه، دعمه غير المشروط من أجل قتل ساندينو.

تحدث ساندينو مع الرئيس عن مشكلات تعاونية ويويلي، حيث كان يعمل هو وجنوده في الأرض مدة عام.

شرح سوموزا لضباطه أن ساندينو عدو شيوعي للنظام، لديه أسلحة أخرى كثيرة مخبأة أكثر من تلك التي سلمها.

شرح ساندينو للرئيس أن سوموزا لن يدعه يعمل بسلام.

ناقش سوموزا مع ضباطه فيما إذا كان يجب أن يموت ساندينو بالسم، بإطلاق النار، في حادث طائرة، أو كمين في الجبال.

ناقش ساندينو مع الرئيس القوة المتنامية للحرس الوطني، الذي يقوده سوموزا، وحذر من أن سوموزا سيطيح به حالاً ليجلس على الكرسي الرئاسي.

أنهى سوموزا ترتيب بعض التفاصيل العملية وغادر ضباطه.

أنهى ساندينو قهوته واستأذن من الرئيس لكي يغادر.

ذهب سوموزا إلى أمسية شعرية وذهب ساندينو إلى موته.

وبينما كان سوموزا يصغي إلى سونيتات ثويلا روزا كاردينا‌س، النجمة الفتية للآداب البيروفية، التي شرفت هذه البلاد بزيارتها، أطلقت النار على ساندينو في مكان يدعى الجمجمة، على طريق لونسوم.

1934: ماناغوا

قررت الحكومة عدم حدوث جريمة

في تلك الليلة نجا العقيد سانتوس لوبيث من المصيدة في ماناغوا. على رجل نازفة، جرحه الثامن من الرصاص في سنوات الحرب تلك، تسلق إلى الأسطح، قفز إلى الأرض، وقفز فوق الجدران، وأخيراً بدأ زحفاً كابوسياً إلى الشمال على طول سكة الحديد.

في اليوم التالي، وبينما كان سانتوس لوبيث لا يزال يجر رجله المجروحة على شاطئ البحيرة، حدثت مجزرة بالجملة في الجبال. أمر سوموزا بتدمير تعاونية ويويلي فهاجمها الحرس الوطني الجديد بشكل مفاجئ، وقضى على جنود ساندينو السابقين، الذين كانوا يرشون بذار التبغ والموز وشيدوا مستشفى إلى نصفه. أنقذت البغال لكن الأطفال قتلوا.

بعد ذلك حالاً، أقيمت ولائم تبجيلية لسوموزا في سفارة الولايات المتحدة في ماناغوا وأيضاً في النوادي الحصرية لليون وغرانادا.

أصدرت الحكومة أوامر بالنسيان. مسح عفو عام جميع الجرائم التي ارتكبت منذ ذلك المساء الذي قتل فيه ساندينو.

1934: سان سلفادور

ميغيل في التاسعة والعشرين

كما يحدث دائما، طارده البوليس السلفادوري فالتجأ ميغيل إلى بيت عشيقة القنصل الإسباني.

في إحدى الليالي هبت عاصفة. من النافذة، شاهد ميغيل، بعيدا هناك، حيث ينعطف النهر، المياه المرتفعة تهدد كوخ زوجته المصنوع من القصب والطين. ترك ميغيل مخبأه متحديا العاصفة والدورية الليلية، وأسرع إلى أسرته.

أمضوا الليل جاثمين سوية داخل الجدران الهشة، وهم يصغون إلى زئير الريح والنهر. فجرا، حين انحسرت المياه وهمدت الرياح، كان الكوخ منحرفا قليلا ومبللا، لكنه كان لا يزال منتصبا. وهكذا ودع ميغيل أسرته وعاد إلى ملاذه.

لكنه لم يعثر على ذلك البيت، لم يبق أثر من ذلك البيت القوي. دمر غضب النهر الوهد، مزق الأساسات، وحمل إلى الشيطان، المنزل وعشيقة القنصل، والفتاة الخادمة.

وهكذا حصلت ولادة ميغيل مارمول السابعة في سن التاسعة والعشرين.

1935: طريق بياموتتيس ـ بويوبي Vellamontes - Boyuibe

بعد تسعين ألف قتيل

انتهت حرب تشاكو بسقوط تسعين ألف قتيل. مرت ثلاث سنوات على تبادل الطلقات الأولى بين الباراغويين والبوليفيين في قرية صغيرة تدعى ماسامالكي، والتي تعني، في اللغة الهندية، *المكان الذي تقاتل فيه شقيقان.*

وصلت الأنباء إلى الجبهة ظهرا. صمتت البنادق. نهض الجنود، ببطء، وخرجوا من الخنادق. أشباح بثياب ممزقة، أعمتهم الشمس، اندفعوا عبر الأرض الخالية بين فوج بوليفيا سانتا كروز وفوج الباراغواي توليدو ـ القصاصات، المزق. منعت أوامر صادرة حديثا التآخي مع أولئك الذين كانوا أعداء منذ برهة. لم يسمح إلا بالتحية العسكرية، وهكذا حيا بعضهم بعضا. أطلق أحدهم صرخة عظيمة لكنها لم تتوقف. حطم الجنود الرتب، رموا القبعات، والأسلحة، أي شيء، كل شيء، في الجو وركضوا في فوضى جنونية، باراغويين إلى بوليفيين، وبوليفيين إلى باراغوايين، وهم يصيحون، يغنون، يبكون، يعانق بعضهم بعضا ويتدحرجون على الرمال الحارة.

1935: ماراكي

غوميث

مات ديكتاتور فنزويلا خوان بيثنتي غوميث لكنه تابع حكمه. لم يقدر أحد على زحزحته طول سبعة وعشرين عاماً، والآن لا أحد يجرؤ أن ينكت على جثته. حين دفن تابوت العجوز المرعب تحت كومة من التراب، حطم السجناء أبواب السجن وعندئذ فقط بدأ الابتهاج والنهب.

مات غوميث عازباً. أنجب جبالاً من الأطفال، وكان يعشق كأنه يريح نفسه، لكنه لم يكن يُمْضي مطلقاً ليلة بأكملها بين ذراعي امرأة. كان ضوء الفجر يجده دائماً وحيداً في سريره الحديدي تحت صورة العذراء مريم وإلى جانبه خزائنه المليئة بالنقود.

لم يصرف بنساً بتاتاً، وكان يدفع نفطاً مقابل كل شيء ويوزع النفط بغزارة على غلف وستاندارد وتيكساكو وشل. وبآبار النفط دفع للطبيب الذي فحص مثانته، وللشعراء الذين مجدته سونيتاتهم، وللجلادين الذين حمت مهماتهم السرية نظامه.

1935: بوينس آيرس

بورخيس

كان يشعر بالرعب من كل ما يجمع البشر سوية ككرة القدم أو السياسة، ومن كل شيء يكثر عددهم كالمرآة وفعل الحب. لم يعترف بأي واقع إلا ذلك الذي وجد في الماضي، ماضي أجداده، وفي كتب ألفها أولئك الذين كانوا يعرفون كيف يفسرون ذلك الواقع. ما تبقى دخان.

بدقةٍ عظيمة وذكاء حاد، روى خورخي لويس بورخيس *التاريخ الكوني للعار*. لكنه لم يتحقق مطلقاً من العار القومي الذي كان يحيط به.

1935: بوينس آيرس

تلك الأعوام المهينة

وقعت الحكومة الأرجنتينية في لندن اتفاقية تجارية باعت البلاد بنصف بنس. في العقارات الغنية شمال بوينس آيرس، كان مالكو الماشية يرقصون الفالس في ظل الأشجار. ولكن إذا كانت البلاد برمتها بقيمة نصف بنس، فما هو سعر أبنائها الأكثر فقراً؟ ذهبت الأيدي العاملة في المساومات وبوسعك العثور على فتاة تتعرى مقابل فنجان من القهوة. بزغت معامل جديدة، وحولها منازل من الصفيح يغزوها البوليس والسل، حيث متة البارحة، المجففة تحت الشمس، تدرأ الجوع. ابتكر البوليس الأرجنتيني النخس الكهربائي ليقنع أولئك الشكاكين ويُقوِّم من يَلْتوون.

في ليل بوينس آيرس، كان القواد يبحث عن فتاة تريد أن تمضي وقتاً جيداً، وتبحث الفتاة عن رجل يقدم لها وقتاً كهذا. كان المقامر يبحث في حلبة السباق عن بقشيش حار، والمخادع يصبح قواداً، العاطل عن العمل، يبحث عن عمل في الطبعات الأولى. أما البوهيميون فيروحون ويغدون في الشوارع، وأيضاً الخلعاء والغشاشون، جميعهم منعزلون في عزلتهم، بينما يغني لحن التانغو الأخير لديسثيبولين: إن العالم كان وسيستمر نكتة قذرة.

1935: بوينس آيرس

ديسثيبولين Discepolin

إنه عظم طويل واحد بأنف، نحيل إلى درجة أنه يُحْقَن عَبْر معطفه، هذا الشاعر الكئيب لبوينس آيرس في الأعوام الشائنة.

إنريكي سانتوس ديسثيبولو Enrique Santos Discepolo أبدع ألحانه الأولى من التانغو، وهي أفكار حزينة يمكن أن يُرْقص عليها، حين عملَ كممثل هزلي لدى شركة متجولة في الأقاليم. تعرف في حجرات تبديل الملابس المتداعية للسقوط على براغيث ضخمة بحجم الإنسان تقريباً، ودندن لها ألحان تانغو تحدثت عن أولئك الذين لا يملكون نقوداً ولا يؤمنون.

1935: بوينس آيرس

إيفيتا

إذا نظرت إليها لن تبدو إلا فتاة عادية وبليدة، شاحبة وباهتة، غير دميمة وغير جميلة، ترتدي ثياباً من البالة وتكرر كل يوم، بكآبة، الأعمال الروتينية للبؤس. ومثل الآخرين، تعيش مولعة بالمسلسلات الإذاعية التافهة، وتحلم، كل يوم أحد، بأنها نورما شيرر، وتذهب، كل مساء، إلى محطة القطار، لترى قطار بوينس آيرس وهو يعبر. ولكن إيفا دوارتي وصلت إلى سن الخامسة عشرة وفقدت قدرتها على الاحتمال، فصعدت إلى القطار وسافرت.

لم تكن تلك المخلوقة الصغيرة تملك نقوداً أو أباً أو ذكريات تتمسك بها. منذ أن ولدت في بلدة لوس تولدوس من أم غير متزوجة، حكم عليها بالذل، وهي الآن رقم بين آلاف من الأرقام الذين تصبهم القطارات في بوينس آيرس كل يوم، وهي حشود من سكان الأقاليم ذوي الشعر الأشعث والجلد الداكن، عمال وخادمات يمتصهم فم المدينة ويلتهمهم على عجل. وفي أثناء الأسبوع تمضغهم بوينس آيرس، وتبصقهم في أيام الأحد قطعاً.

عند قدم مولوخ[1] المتعجرف، قمم الإسمنت الكبيرة، شلت إفيتا من ذعر جعلها تغلق يديها المحمرتين، والباردتين بشدة، وبكت ثم جففت دموعها، صرت أسنانها، وضغطت بشدة على قبضة حقيبتها الكرتونية ودفنت نفسها في المدينة.

1935: بوينس آيرس

ألفونسينا

تجف مبيضات المرأة التي تفكر. تولد المرأة لكي تنتج الحليب والدموع، لا الأفكار، تولد لا لكي تعيش الحياة وإنما لتتلصص عليها من خلال الستائر الفينيسية المضلعة. شرحوا لها ذلك ألف مرة لكن ألفونسينا ستورني لم تصدقهم مطلقاً، وأشعارها الأكثر شهرة تحتج ضد السجان الفحل.

حين جاءت ألفونسينا إلى بوينس آيرس من الأقاليم، كان كل ما تمتلكه حذاء وطفلاً في بطنها ليس له أب شرعي. ولقد عملت في هذه المدينة في أي عمل حصلت عليه وسرقت أوراق البنك الخاصة بالبرقيات لتكتب آلامها. وبينما كانت تصقل كلماتها قصيدة قصيدة، ليلة بعد أخرى، شابكتْ أصابعها وقبلت البطاقات التي أعلنت عن رحلات وإرث وعلاقات حب.

مر الوقت، مر تقريباً ربع قرن ولم يقدم لها القدر هدايا. لكن ألفونسينا شقت طريقها، نوعاً ما، في عالم الذكور. وجهها، الذي يشبه فأرة لعوباً، لم يغب مطلقاً من الصور الجماعية لكتاب الأرجنتين البارزين.

في صيف ذلك العام، اكتشفت أنها مصابة بالسرطان فبدأت تكتب عن عناق البحر والمنزل الذي ينتظرها في الأعماق، في جادة كورالس.

1935: مديين Medellin

غاردل

كلما غنى بصوت ألوان كثيرة، يغني بطريقة لم يقم بها سابقاً. يصنع ألحاناً سوداء، وتتألق أغانيه المبهمة. إنه الساحر، الأعظم، كارلوس غاردل.

ظلُّ صمبريرة فوق عينيه، ابتسامةٌ أبدية ومكتملة فتية دائماً، يبدو كرابح لم يخسر مطلقاً. أصله لغزٌ، حياته أحجية، ولم يكن للمأساة خيار سوى أن تنقذه من الشرح والتآكل. لم يسامحه عابدوه على التقدم في السن. الطائرة التي سافر فيها أقلعت من مطار ميدييِّن Medellin وانفجرت في الجو.

---

[1] إله سامي كان يعبد من خلال تضحية الأطفال على مذبحه.

1936: بوينس آيرس

باتوروثو

طول عشر سنوات نشرت المسلسلة الهزلية التي كتبها دانتي كينتيرو في صحف بوينس آيرس اليومية. فيما بعد، ظهرت مجلة شهرية مخصصة بشكل كامل للشخصية. باتوروثو، مالك أراض كبير يمتلك نصف باتوغونيا ويعيش في فنادق خمس نجوم في بوينس آيرس ويبدد الملايين، ويؤمن، بولع، بالملكية الخاصة وحضارة المستهلك. شرح دانتي كينتيرو أن باتوروثو هندي أرجنتيني نموذجي.

1936: ريو دي جانيرو

أولغا وهو

عبر لويس كارلوس بريستيس، هو وجيشه المتمرد، البرازيل كلها سيراً على الأقدام، من النهاية إلى النهاية، من البراري الجنوبية، إلى الصحارى الشمالية الشرقية، وعبر غابة الأمازون كلها. طيلة ثلاث سنوات حارب جيش بريستيس بارونات البن والسكر دون أن يتعرض لهزيمة واحدة. وهكذا تخيلته أولغا بيناريو عملاقاً مدمراً ودهشت حين ظهر أنه شخص صغير وهش يحمر خجلاً حين تنظر في عينيه.

هي التي اشتد عودها في الصراعات الثورية في ألمانيا، تلك المقاتلة بلا حدود، كانت تحب وتغذي ذلك المتمرد الذي لم يعرف امرأة مطلقاً. أسرا في الوقت نفسه. ووضعا في سجنين منفصلين.

من ألمانيا طالب هتلر بأولغا، تلك الشيوعية ـ ذات الدم الفاسد والأفكار الفاسدة ـ وسلمها رئيس البرازيل خيتوليو بارغاس. حين جاء الجنود إليها بدأ السجناء أعمال الشغب. أوقفتهم أولغا، التي لم تجد جدوى في الذبح الذي لا فائدة منه، وسلمت نفسها. من بين قضبان زنزانته، رآها الروائي غراثيليانو راموس تعبر، مقيدة اليدين، وحاملاً.

على رصيف المرفأ كانت تنتظرها سفينة تحمل علم الصليب المعقوف، وكان لدى الكابتن أوامر بالاتجاه مباشرة إلى هامبورغ. هناك ستوضع أولغا في معسكر تعذيب، وتُخْنَق في غرفة غاز، وتُحَوَّل إلى فحم في فرن.

1936 : مدريد

الحرب الإسبانية

فقس التمرد ضد الجمهورية الإسبانية في الثكنات، وغرف المقدسات والقصور. كان أبطاله الضبابيون هم الجنرالات والرهبان، وأتباع الملوك، والإقطاعيون أصحاب المشانق والسكاكين.

لعنهم الشاعر التشيلي بابلو نيرودا، محرضاً الطلقات التي ستجد يوماً ما مسكناً في قلوبهم. في غرناطة كان الفاشيون قد أطلقوا النار لتوهم على أخيه الحبيب فيديريكو غارثيّا لوركا، شاعر الأندلس، لمعة البرق الحرة دائماً، لكونه أو لأنه بدا شاذاً وشيوعياً.

طاف نيرودا أرض إسبانيا المبللة بالدم وطرأ عليه تحول. طلب الشاعر، الذي ضللته السياسة، من الشعر الذي يجعل نفسه مفيداً مثل المعدن أو الطحين، أن يستعد ليلطخ وجهه بهباب الفحم ويقاتل جسداً لجسد.

1936: سان سلفادور

مارتينيث

على رأس التمرد أعلن فرانسيسكو نفسه جنرالاً ورئيساً إسبانياً للدولة. جاء الاعتراف الدبلوماسي الأول إلى مدينة بورغوس Burgos من الكاريبي البعيد. هنأ الجنرال ماكسيميليانو إرنانديث مارتينيث، ديكتاتور السلفادور، ديكتاتورية زميله المولودة حديثاً.

كان مارتينيث، الجد اللطيف الذي قتل ثلاثين ألف سلفادوري، يؤمن أن قتل النمل إجرامي أكثر من قتل البشر، لأن النمل، كما يقول، لا يمكن أن يتناسخ. كان المايسترو مارتينيث يتحدث كل يوم أحد إلى البلاد، عبر الإذاعة، عن الوضع السياسي الدولي، الديدان المعوية، تناسخ الأرواح، والخطر الشيوعي. كان يعالج روتينياً أمراض وزرائه ومسؤوليه بمياه ملونة محفوظة في قوارير كبيرة في فناء القصر الرئاسي، وحين ينتشر داء الجدري يخيفه ويبعده بتغليف مصابيح الشوارع بورق السيلوفان.

ولكي يكتشف المؤامرات، يعلق بندول ساعة فوق حساء يتصاعد منه البخار. ومن أجل المشكلات الأكثر جدية، كان يلجأ إلى الرئيس روزفلت، ويتصل مباشرة مع البيت الأبيض من خلال التخاطر.

1936: سان سلفادور

ميغيل في الواحد والثلاثين

كان ميغيل، الذي أطلق سراحه لتوه ـ وقيدت يداه لمدة عامين تقريباً في الزنزانة المنفردة ـ يتجول على الطرقات، منبوذاً، يرتدي الأسمال ولا يملك أي شيء. ليس لديه حزب، لأن رفاقه في الحزب الشيوعي شكوا أنه عقد صفقة مع الديكتاتور مارتينيث. ليس لديه عمل لأن الديكتاتور مارتينيث يرى أنه لا يستطيع أن يحصل على أي عمل. ليس لديه زوجة، لأنها تركته وأخذت الأطفال معها، ولا يملك بيتاً، أو طعاماً، أو حذاء أو حتى اسماً. ولقد أقر رسمياً أن ميغيل مارمول ليس حياً لأنه أعدم في 1932.

قرر أن ينهي الأمر مرة واحدة وإلى الأبد. كفى أفكاراً كهذه. ضربة منجل واحدة ستفتح شرايينه. كان قد رفع المنجل حين ظهر على الدرب فتى يركب على حمار. حياه الفتى بحركة من صمبريرته القشية الكبيرة، وطلب منه المنجل لكي يفتح جوزة هند، ثم قدم له نصفها، وماء ليشرب، وجوز هند ليأكل. أكل ميغيل وشرب كأن ذلك الفتى المجهول دعاه إلى وليمة، ثم نهض وسار بعيداً عن الموت.

وهكذا حصلت الولادة الثامنة لميغيل مارمول، في سن الواحد والثلاثين.

1936: غواتيمالا سيتي

أوبيكو

كان مارتينيث قد سبقه بضع ساعات، لكن أوبيكو كان الشخص الثاني الذي اعترف بفرانكو. قبل هتلر وموسوليني بعشرة أيام، وضع أوبيكو طابع شرعية على الانتفاضة ضد الديموقراطية الإسبانية.

حكم الجنرال خورخي أوبيكو، زعيم غواتيمالا، محاطاً بتماثيل نابليون بونابرت، الذي يشبهه، كتوأم، كما قال. لكن أوبيكو كان يركب الدراجات النارية والحرب التي يشنها لا علاقة لها بفتح أوروبا. كانت حربه حرباً ضد أفكار سيئة.

ضد الأفكار السيئة، انضباط عسكري. عسكر أوبيكو موظفي مركز البريد، موسيقيي الأوركسترا، وأطفال المدارس. وبما أن البطن الممتلئة هي أم الأفكار السيئة، أنزل أجور المستعمرة الزراعية ليونايتد فروت إلى النصف. عاقب الكسل، أب الأفكار السيئة، بإجباره أولئك المذنبين به أن يعملوا في أراضيه دون مقابل. ولكي يطرد الأفكار السيئة من أذهان الثوريين، ابتكر تاجاً فولاذياً يعصر رؤوسهم في زنزانات البوليس.

فرض أوبيكو على الهنود إسهاماً إجبارياً يتألف من خمسة قطع نقدية شهرياً لكي يشيد نصباً عظيماً لأوبيكو. واضعاً يده في جيب سترته، يأخذ وضعية أمام النحات.

1936: تروخيو سيتي

في العام السادس من عصر تروخيو

صحح اسم عاصمة جمهورية الدومينيكان في العام السادس من عصر تروخيو. أصبحت سانتو دومنغو، كما عمدها مؤسسوها، تروخيو سيتي. أصبح الميناء يدعى الآن تروخيو كما هو الأمر مع بلدات كثيرة، وساحات، وأسواق، وجادات. من تروخيو سيتي، أرسل الجنرال رافايل ليونيداس تروخيو إلى الجنرال فرانكو دعمه الأكثر حماسية.

تروخيو، الهلاك الذي لا يتعب للحمر والمهرطقين، ولد مثل أناستاسيو سوموزا من احتلال عسكري أميركي. لم يمنعه وقاره الطبيعي من السماح لاسمه بالظهور على جميع نمر السيارات،

ولصورته على جميع الطوابع البريدية، ولم يعارض منح رتبة عقيد لابنه رامفيس الذي في الثالثة من عمره، كفعل عدالة بسيط. وأرغمه حسه بالمسؤولية أن يعين شخصياً جميع الوزراء، والبوابين، والأساقفة، وملكات الجمال. ولكي يحرض روح المشاريع، منح تروخيو لتروخيو احتكارات الملح، والتبغ، والنفط، والإسمنت، والطحين، والكبريت. ودفاعاً عن الصحة العامة، أغلق تروخيو المشاريع التي لا تبيع اللحم من مسالخ تروخيو أو الحليب من مزارعه، ومن أجل الأمن العام جعل الحصول على سندات التأمين التي يبيعها تروخيو إجبارياً. ممسكاً خوذة التقدم بشدة، حرر تروخيو مشروعات تروخيو من الضرائب بينما زود أملاكه بالري والطرقات ومعامله بالزبائن. وبأمر من تروخيو، صانع الأحذية، كل من يقبض عليه حافياً في شوارع بلدة أو مدينة يذهب إلى السجن.

كان هذا الجبار يمتلك صوتاً كالصفير، معه ليس هناك نقاش.على العشاء، يقرع الكؤوس مع محافظ أو نائب سيذهب إلى المقبرة بعد القهوة. حين تهمه قطعة أرض لا يشتريها وإنما يحتلها. وحين تروقه امرأة، لا يغويها وإنما يشير إليها.

إجراء ضد المطر

ما تحتاجه جمهورية الدومينيكان حين تغرق الأمطار الجارفة المحاصيل هو متضرع مناسب يستطيع أن يسير تحت المطر دون أن يتبلل لكي يرسل توسلات مستعجلة إلى الله والقديسة المباركة بربارة.

التوأمان جيدان، بشكل خاص، في كبح المطر وإخافة الرعد.

في إقليم سالثيدو الدومينيكاني استخدموا أسلوباً آخر. كانوا يبحثون عن حجرين بيضويين كبيرين، من النوع الذي يصقله النهر، ويحكمون ربطهما بحبل، ويعلقانهما على غصن شجرة. يعصرون البيضتين الحجريتين ويشدونهما بقوة ويصلون لله، الذي يطلق صرخة ويتحرك إلى مكان آخر آخذاً معه سحبه السوداء.

إجراء ضد العصيان

إنها امرأة قداسات يومية وصلاة مستمرة. كشطت أم (ماريا لا أو) جلد ركبتيها وهي تتوسل إلى الله كي تحدث معجزة تجعل ابنتها مطيعة وجيدة، وتعتذر عن الوقاحات الصفيقة للفتاة الصغيرة.

في مساء أحد أيام الجمعة، ذهبت (ماريا لا أو) إلى النهر. حاولت أمها أن تمنعها دون جدوى. «فكري وحسب. إنهم يقتلون سيدنا يسوع المسيح...»

إن غضب الله يترك إلى الأبد أولئك الذين يمارسون الحب في يوم الجمعة الحزينة ملتصقين ببعضهم، ورغم أن (ماريا لا أو) لم تكن ذاهبة لتقابل حبيبا، لم ترتكب خطيئة. سبحت عارية في النهر، وحين كركر الماء أعضاء جسدها الممنوعة، ارتجفت من المتعة.

فيما بعد حاولت أن تخرج من النهر لكنها لم تقدر لأنها كانت مغطاة بالحراشف وامتلكت زعانف حيث كانت قدماها.

ولا تزال (ماريا لا أو) تسبح، إلى هذا اليوم، في مياه أنهار الدومينيكان: ولم يغفر لها مطلقاً.

1937: داخابون Dajabon

إجراء ضد التهديد الأسود

كان المحكومون سوداً من هاييتي يعملون في جمهورية الدومينيكان. استمر التطهير العسكري، الذي خطط له إلى التفصيل الأخير، الجنرال تروخيو، يوماً ونصف يوم. في إقليم السكر، سجن الجنود العمال النهاريين في الزرائب ـ قطعان رجال ونساء وأطفال ـ وقضوا عليهم، فوراً وفي المكان نفسه، بالحراب، أو قيدوا أيديهم وأرجلهم وساقوهم بتهديد الحراب، إلى البحر.

تروخيو، الذي يبودر وجهه عدة مرات في اليوم، يريد جمهورية الدومينيكان بيضاء.

1937: واشنطن

جريدة السينما

بعد أسبوعين، نقلت حكومة هاييتي إلى جمهورية الدومينيكان *قلقها حيال الأحداث الأخيرة على الحدود. وعدت* جمهورية الدومينيكان بإجراء *تحقيق شامل*.

باسم الأمن القاري، اقترحت حكومة الولايات المتحدة على الرئيس تروخيو أن يدفع تعويضاً من أجل تجنب نزاع محتمل في المنطقة. اعترف تروخيو، بعد مفاوضات مطولة، بموت ثمانية عشر ألف هاييتي على الأراضي الدومينيكانية. وكما قال، إن رقم الخمسة وعشرين ألف ضحية، الذي تناقلته بعض المصادر، يعكس نية التلاعب بالأحداث بشكل غير شريف. وافق تروخيو أن يدفع لحكومة هاييتي تعويضاً قدره 522,000 $ أو تسعة وعشرين دولاراً مقابل كل ميت معترف به رسمياً.

هنأ البيت الأبيض نفسه على اتفاقية تم التوصل إليها في إطار اتفاقيات وإجراءات أميركية داخلية. وأعلن وزير الخارجية كوردل هل في واشنطن أن الرئيس تروخيو هو أحد أعظم الرجال في أميركا الوسطى وفي معظم أميركا الجنوبية.

دفع التعويض في حينه نقداً، وتعانق رئيس الدومينيكان مع رئيس هاييتي على الحدود.

1937: ريو دي جانيرو

إجراء ضد التهديد الأحمر

لم يكن أمام رئيس البرازيل خيتوليو بارغاس بديل سوى أن ينصب ديكتاتورية. ذلك أن صخب الصحافة والتقارير الإذاعية فضح خطة كوهين الشريرة، وأجبر بارغاس على قمع البرلمان

والعملية الانتخابية. لن يستسلم مسقط الرأس لتقدم حشود موسكو. خطة كوهين، التي اكتشفتها الحكومة في أحد الأقبية منحت التفاصيل الكاملة ـ التكتيك والاستراتيجية ـ للمؤامرة الشيوعية ضد البرازيل.

دعيت الخطة كوهين بسبب خطأ اختزالي. واضع الخطة، الكابتن أولمبيو موراو فيلهو، عمدها باسم خطة كن، بعد أن بناها على وثائق من الثورة الهنغارية القصيرة التي قادها بيلا كن.

لكن الاسم ثانوي. لقد حصل على ترقية استحقت بجدارة ومنح رتبة رائد.

1937: وادي كاريري

جريمة الجماعة

من الطائرات قصفوهم وحصدوهم بنيران الرشاشات. وعلى الأرض ذبحوهم، دفنوهم أحياء، وصلبوهم. بعد أربعين عاماً من القضاء على جماعة كانيودس، فعل الجيش البرازيلي الشيء نفسه مع كالديراو، الجزيرة الخضراء في الشمال الشرقي، وللسبب نفسه: رفض مبدأ الملكية الخاصة.

في كالديراو لم يمتلك أحد أي شيء: لا أنوال نسيج، ولا أفران قرميد، لا بحر حقول الذرة حول القرية، ولا حقول القطن الشاسعة التي وراءها. كان المالكون الجميع ولا أحد، ولم يكن هناك عار أو جائع. أسس المحتاجون تلك الجماعة بدعوة من صليب الصحراء المقدس، الذي حمله خوسيه لورينكو الطاهر، حاج الصحراء، إلى هناك على كتفه. ولقد اختارت العذراء مريم موضع الصليب والرجل المقدس الذي حمله. حيث نصب الصليب، تدفق الماء بشكل متواصل.

قالت صحف المدن البعيدة، إن هذا الرجل القذر هو سلطان لحريم يتألف من إحدى عشرة ألف عذراء، وإذا لم يكن هذا كافياً، كان أيضاً عميلاً لموسكو ويمتلك ترسانة أسلحة مخبأة في مخازنه.

لم يترك شخص أو شيء من جماعة كالديراو. أما المهر ترانسلم الذي لم يمتط الرجل المقدس شيئاً غيره، فقد هرب إلى الجبال الصخرية. عبثاً بحث عن شجرة تقدم ظلاً تحت تلك الشمس الجحيمية.

1937: ريو دي جانيرو

مونتيرو لوباتو

منع الرقباء *فضيحة النفط* لمونتيرو لوباتو. الكتاب يسيء للاتحاد النفطي الاحتكاري وتقنييه، المستأجرين أو المشترين، الذين ادعوا أن البرازيل ليس فيها نفط.

حطم المؤلف نفسه محاولاً أن يؤسس شركة نفط برازيلية. قبل ذلك، فشل في مهنة النشر، حين جاءته الفكرة المجنونة بأن يبيع الكتب لا في المكتبات فحسب، وإنما في الصيدليات والأسواق وأكشاك الصحف في الوقت نفسه.

لم يولد مونتيرو لاباتو لينشر كتباً وإنما ليؤلفها. موطن قوته هو روايــة الحكايـات للأطفـال. في مزرعة بينتيبو أماريو هنــاك خـنزير بذكـاء محـدود هـو مركـيز رابيكـو وثمـة عرنـوس ذرة يصبح فيسكونتاً مميزاً يستطيع أن يقرأ التوراة في اللاتينية ويتحدث الإنكليزيـة للدجـاج الكثـير البيـض. يلقي المركيز نظرة دافئة على إميليا، الدمية الرثة، التي تثرثر دون توقف، لأنها بدأت متأخرة في الحياة ولديها الكثير من الثرثرة المخزونة.

1937: مدريد

همنغواي

تصف تقارير همنغواي الحرب التي تندلع على بعد خطوة من فندقـه في هـذه العاصمـة التـي يحاصرها جنود فرانكو وطائرات هتلر.
لماذا ذهب همنغواي إلى إسبانيا الوحيدة؟ إنه ليس محارباً مثل الأشـخاص الذيـن جـاؤوا مـن أنحاء العالم لينضموا إلى الفرق العالمية. ما يكشفه همنغواي في رواياته هو شيء آخر - البحث اليائس عن الكرامة بين الرجال. والكرامة هي الشيء الوحيد غير المتوفر في خنادق الجمهورية الإسبانية.

1937: مكسيكو سيتي

البوليرو

منعت وزارة التربية العامة المكسيكية رقصات أوغستن لارا في المدارس، لأن أغانيها *الفاحشة*، و*غير الأخلاقية*، و*المنحطة* يمكن أن تفسد الأطفال.
مَجَّدَ لارا المرأة الضائعة التي تبدو في عينيها أشجار نخيل ثملة من الشمس، التمس الحب من المنحطة، التي ينتشر الضجر من بؤبؤيـها كذيـل طـاووس، حلـم بالسـرير المـترف للمحظيـة ذات الجلد الحريري، وبنشوة رفيعة وضـع ورداً عنـد قـدم المذنبـة، وغطـى العـاهرة الموصومـة بالعـار بالبخور والمجوهرات مقابل عسل فمها.

1937: مكسيكو ستي

كانتينفلاس Cantinflas

من أجل الضحك، انطلق البشر حشوداً إلى خيام الضواحي، المسارح الفقيرة والبديلـة، حيـث جميع أضواء مقدمة المسرح تشع علـى كـانتينفلاس. «ثمـة لحظـات في الحيـاة هـي في الحقيقـة خاطفة»، يقول كانتينفلاس، بشاربه الذي كقلم الرصـاص وبنطلونـه الفضفـاض، متفوهـاً بحديثـه بسرعة قصوى.

كان وابل الهراء الذي يطلقه يقلد بلاغة مفكرين وسياسيين نصف ناضجين، أطباء مصابين بإسهال كلامي لا يقولون شيئاً، يتابعون فكرة بعبارات لا تنتهي، لا يمسكون بها مطلقاً.
في هذه الأراضي، يعاني الاقتصاد من تضخم نقدي، وتعاني السياسة والثقافة من تضخم لفظي.

1937: مكسيكو ستي

كارديناس

لا تغسل المكسيك يديها من الحرب في إسبانيا. لم يعلن لاثارو كارديناس ـ الرئيس النادر، صديق الصمت وعدو الإسهاب ـ تضامنه فحسب وإنما مارسه، وأرسل أسلحة إلى الجبهة الجمهورية عبر البحر، وتلقى أطفالاً ميتمين من حمولات السفن.
كان كارديناس يصغي وهو يحكم. يتجول ويصغي. يذهب من بلدة إلى أخرى، يسمع الشكاوى بصبر لا ينتهي، ولا يعد بأكثر مما هو ممكن. رجل يحترم كلمته، يتحدث قليلاً. قبل أن يجيء كارديناس، كان فن الحكم في المكسيك يتألف من تحريك اللسان، وحين يقول نعم أو لا يصدقه الناس.
في الصيف الماضي أعلن برنامجاً للإصلاح الزراعي ومنذ ذلك الوقت لم يتوقف عن منح الأراضي للجماعات المحلية.
كرهه أولئك الذين كانت الثورة بالنسبة إليهم مشروعاً تجارياً. قالوا إن كارديناس يبقى صامتاً لأنه، بعد أن أمضى وقتاً طويلاً بين الهنود، نسي الإسبانية، وأنه سيظهر في أحد الأيام بثياب كوجر وريش.

1938: أنينيكويلكو Anenecuilco

نيكولاس، ابن زاباتا

قبل أي شخص آخر، وأقسى من أي شخص آخر، قاتل فلاحو أنينيكويلكو من أجل الأرض، لكن بعد الكثير من الوقت وسفح الدماء، لم يتغير شيء يذكر في الجماعة حيث ولد إميليانو زاباتا وترعرع في التمرد.
كانت مجموعة أوراق، أكلها العث والقرون، ترقد في قلب الصراع. هذه الوثائق، التي تحمل ختم نائب الملك، تبرهن أن هذه الجماعة هي مالكة أرضها. ترك إمليانو زاباتا الأوراق مع أحد جنوده، بانشو فرانكو وقال له: «*إذا فقدتها ستجف وأنت متدل على غصن.*»
وفعلاً، في مناسبات عديدة، أنقذ بانشو فرانكو الأوراق وحياته بشعرة.

كان أفضل صديق لأنينيكويلكو هو الرئيس لاثارو كارديناس، الذي زار الفلاحين واستمع إليهم واعترف بحقوقهم ووسعها. كان العدو الأسوأ هو النائب نيكولاس زاباتا، ابن إميليانو الأكبر، الذي يملك أغنى الأراضي، ويخطط أيضاً للاستيلاء على المتبقية.

1938: مكسيكو سيتي

تأميم النفط

إلى الشمال من تامبيكو، ينتمي نفط مكسيكو إلى ستاندارد أويل، وإلى الجنوب تمتلكه شيل. تدفع المكسيك غالياً من أجل نفطها الذي تشتريه أوروبا والولايات المتحدة بثمن رخيص. كانت الشركتان تنهبان ما تحت التربة وتسرقان الضرائب والرواتب من المكسيك طول ثلاثين عاماً ـ إلى أن جاء يوم رائع قرر فيه كارديناس أن المكسيك هي مالكة التربة المكسيكية.

منذ ذلك اليوم، لم يستطع أحد أن ينام. أيقظ التحدي البلاد. في مظاهرات لا تنتهي، تدفقت حشود ضخمة في الشوارع حاملة توابيت لستاندارد وشيل على ظهورها. على قرع الماريمبا والأجراس، احتل العمال الآبار والمصافي. لكن الشركتين ردتا بلطف: سحبتا جميع التقنيين الأجانب، أسياد اللغز. لم يتبق أحد للعناية بأدوات الإدارة التي لا يمكن فك شيفرتها. رفرف العلم الوطني فوق أبراج صامتة. توقفت الحفارات، فرغت الأنابيب، انطفأت النيران. إنها الحرب: حرب ضد تراث أميركا اللاتينية العاجز، وضد الجهل وغياب الفعل الناجمين عن الاستعمار.

1938 : مكسيكو سيتي

الحسم

طلبت ستاندارد أويل غزواً فورياً للمكسيك.

حذر كارديناس أنه إذا ظهر جندي واحد على الحدود فإنه سيأمر بإحراق الآبار. صفر الرئيس روزفلت ونظر إلى الجانب الآخر، لكن التاج البريطاني الذي تبنى غضب شيل، أعلن أنه لن يشتري قطرة واحدة من النفط المكسيكي. تعاونت فرنسا. انضمت بلدان أخرى إلى الحصار. لم تجد المكسيك أحداً يبيعها قطعة غيار، واختفت السفن من مرافئها.

لا يزال كارديناس يرفض النزول عن البغل. بحث عن زبائن في الأمكنة الممنوعة ـ روسيا الحمراء، ألمانيا النازية، إيطاليا الفاشية ـ بينما كانت التجهيزات تعود إلى الحياة قطعة بعد أخرى. العمال المكسيكيون يصلحون، يرتجلون، يبتكرون، بحماسة هائلة، وهكذا بدأ سحر الإبداع يجعل الكرامة ممكنة.

1938: كويواكان Coyoacan

تروتسكي

كل صباح كان يدهشه بقاؤه على قيد الحياة. ورغم أن منزله محاط بأبراج حراسة وأسيجة مكهربة، كان ليون تروتسكي يعرف أنه قلعة لا فائدة منها. شكَرَ مؤسس الجيش الأحمر المكسيك لأنها منحته ملاذاً، لكنه شكر القدر أكثر. كان يقول لزوجته كل صباح: «انظري يا ناتاشا، لم يقتلونا البارحة، ومع ذلك أنت تشكين.»

بعد موت لينين، أباد ستالين الرجال الذين صنعوا الثورة الروسية واحداً بعد آخر ـ لينقذها، كما قال ستالين، ليهيمن عليها، كما قال تروتسكي، الرجل الذي أُدرج اسمه في القائمة.

واصل تروتسكي إيمانه العنيد بالاشتراكية، التي لطخها الوحل البشري بالقذارة، ذلك أنه حين يقال كل شيء، من يستطيع أن ينكر أن المسيحية هي أهم بكثير من محاكم التفتيش؟

1938: المنطقة الخلفية

العصابات المتنقلة

يعملون بميزان معقول وليس بدون باعث مطلقاً. لا يسرقون البلدات التي فيها أكثر من كنيستين، ولا يقتلون إلا بأمر محدد أو من أجل انتقام أقسم عليه بتقبيل الخنجر. يعملون في أراضي الصحراء المحترقة بعيداً عن البحر والنفس المالح لتنانينه. يعبرون المساحات المعزولة لشمال شرق البرازيل، على الأحصنة أو على الأقدام، وصمبريراتهم مثقلة بالأوسمة. من النادر أن يتريثوا في أي مكان. لا يربون أولادهم ولا يدفنون آباءهم. عقدوا ميثاقاً مع السماء والجحيم بأن لا يحموا أجسادهم من الرصاص أو السكاكين وذلك من أجل الموت ميتة طبيعية، وعاجلاً أم آجلاً ستنتهي نهاية سيئة هذه الحيوات المخاطرة والمعرضة للخطر، التي مجدت ألف مرة في رباعيات مغنين عميان: *سيقول الله، سيمنح الله، طريق مرتفع، طريق طويل* ـ ملحمة العصابات المتجولة التي تنتقل من معركة إلى أخرى، دون وقت كي يبرد تعرقها.

1938: أنخيكو

صيادو العصابات المتنقلة

لكي يبعدوا أعداءهم عن الرائحة، يقلد رجال العصابات ضجة ومسارات الحيوانات أو يستخدمون نعلا مخادعا يكون فيه الكعب وإصبع القدم معكوسين. لكن أولئك الذين يعرفون يعرفون. يتعرف متعقب الآثار الجيد على مرور البشر في هذا المكان المقفر مما يراه، من غصن

مكسور أو حجر انتقل من موضعه، ومما يشمه. إن رجال العصابات مجانين بخصوص العطر. فهم يستخدمون كميات كبيرة منه وهذا الضعف يخونهم.

يصل الصيادون إلى مخبأ الزعيم لامبياو متبعين الآثار والروائح، وخلفهم القوات، من مكان قريب يسمعون لامبياو يتجادل مع زوجته. وهي جالسة على كرسي عند مدخل كهف، تلعنه ماريا بونيتا، بينما هو يدخن سيجارة بعد أخرى، ومن الداخل يقدم أجوبة حزينة. يركب الجنود رشاشاتهم وينتظرون الأمر. يسقط رذاذ ضوئي.

1939 : ساو سلفادور دي باهيا

نساء الآلهة

جاءت عالمة الإناسة الأميركية الشمالية، روث لانديس، إلى البرازيل لتتعلم عن حياة السود في بلاد بدون تمييز عنصري. استقبلها في ريو دي جانيرو الوزير أوزبالدو أرانها. شرح أن الحكومة اقترحت أن تُنَظِّف السلالة البرازيلية، الملوثة بالدم الأسود، لأن الدم الأسود يجب أن يلام من أجل التخلف الوطني.

ذهبت روث من ريو إلى باهيا. في هذه المدينة التي نصب فيها نائب الملك الغني بالسكر والعبيد عرشه في إحدى المرات، السود هم أغلبية وافرة. وسواء تعلق الأمر بالدين أو الموسيقى أو الطعام، الأسود هو ذو الشأن هنا. مع ذلك، كان جميع سكان باهيا، ومن بينهم السود، يعتقدون أن الجلد الأبيض دليل على النوعية الجيدة. كلا، ليس الجميع. اكتشفت روث كبرياء السواد في نساء المعابد الأفريقية، الكاهنات السوداوات، اللائي يتلقين في أجسادهن آلهة من أفريقيا.

إنهن متألقات ومستديرات كقذائف المدفعية، ويقدمن أجسادهن الرحبة كمنازل حيث الزيارة والبقاء ممتعان. وبينما تدخلها الآلهة، وترقص فيها، يتلقى البشر من أيدي الكاهنات الممسوسات التشجيع والعزاء، ويسمعون من أفواههن أصوات القدر.

تقبل كاهنات باهيا السوداوات العشاق، لا الأزواج. ما يمنحه الزواج في هيبة يأخذه في حرية وسعادة. لا تهتم أي منهن بالزواج الرسمي أمام قاض أو كاهن. لا ترغب أي منهن بأن تكون زوجة مقيدة. تنتصب الرؤوس باهتزازات ضعيفة، تتحرك الكاهنات كملكات خلق، يحكمن على رجالهن بعذاب غيرة الآلهة الذي لا نظير له.

إكسو Exu

أزعج زلزال من الطبول نوم ريو دي جانيرو. من الغابات الخلفية، في ضوء النار، سخر إكسو من الأغنياء، وصبَّ عليهم لعناته المهلكة. ذلك المنتقم للذين لا يملكون شيئاً، أضاء الليل وأعتم النهار. إذا ألقى حجراً في دغل، ينزف الدغل.

إن إله الفقراء هو شيطان في الوقت نفسه. له رأسان: أحدهما، يسوع الناصرة، الآخر، شيطان الجحيم. في باهيا هو رسول مزعج من العالم الآخر، إله صغير من الصنف الثاني، لكن في أحياء ريو الفقيرة هو السيد القوي لمنتصف الليل. إكسو، القادر على المداعبة أو الجريمة، يستطيع أن ينقذ أو يقتل، وأحياناً يقوم بالأمرين في الوقت نفسه.

يجيء من أحشاء الأرض، ويدخل بعنف، عبر باطن الأقدام الحافية. يعيره جسداً وصوتاً الرجال والنساء الذين يرقصون مع الجرذان في أكواخ متدلية بشكل مهلك فوق الفراغ، بشر يخلصهم إكسو بجنون فيتدحرجون على الأرض ضاحكين حتى الموت.

ماريا باديلا

إنها إكسو وإحدى نسائه في الوقت نفسه، المرآة والعاشقة: ماريا باديلا أكثر الشيطانات عهراً والتي يحب إكسو أن يتدحرج معها في نيران الجحيم.

ليس من الصعب التعرف عليها حين تدخل الجسد. تصرخ ماريا باديلا، تزأر باللعنات، تضحك بجفاف، وفي نهاية النشوة تطلب مشروبات غالية وسجائر مستوردة. ينبغي أن تعامل كسيدة عظيمة ويتم التوسل إليها بهيام قبل أن تتنازل لاستخدام نفوذها المعروف مع الشياطين والآلهة الأكثر أهمية.

لا تدخل ماريا باديلا أي جسد. لكي تتجلى في هذا العالم، تختار امرأة من أحياء ريو الفقيرة اللائي يعشن من بيع أنفسهن مقابل فكة قليلة. وهكذا يصبح المحتقرون مستحقين للإخلاص. اللحم المستأجر يصعد إلى مركز المذبح. إن قمامة الليل تشع بتألق أكبر من تألق الشمس.

1939: ريو دي جانيرو

السامبا

البرازيل برازيلية والله كذلك، هذا ما أعلنه آري باروسو بالموسيقى الوطنية نفسها التي يمكن الرقص على ألحانها والتي أصبحت قلب كرنفال ريو.

لكن أغاني السامبا الأكثر إمتاعاً، التي تقدم في الكرنفال، بعيداً عن تمجيد فضائل تلك الجنة الاستوائية، تمدح الحياة البوهيمية وخطايا الأرواح الحرة، تلعن البؤس والشرطة، وتحتقر العمل. العمل للبلهاء، لأن بوسع أي شخص أن يرى أن البنّاء لا يدخل مطلقاً إلى ما شيدته يداه.

السامبا، الإيقاع الأسود، سليلة الابتهالات التي تجمع آلهة الأحياء الفقيرة السوداء، تهيمن الآن على الكرنفالات، حتى ولو كانت لا تزال تزدرى في المنازل المحترمة. إنها تدعو إلى عدم الثقة لأنها فقيرة وسوداء وولدت في أحياء البشر الذين اعتقلتهم الشرطة.

لكن السامبا تسرِّع الأقدام وتداعب الروح ولا مجال لاحتقارها حين تتحرك. يتنفس الكون على إيقاع السامبا حتى أربعاء الرماد في مهرجان يحول أي بروليتاري إلى ملك، وجميع المشلولين إلى أبطال، وجميع الدببة إلى رجال جميلين ومجانين.

1939: ريو دي جانيرو

الوغد

إن الوغد الذي يخشى منه كثيراً في ريو يدعى المدام شيطان.

حين بلغ الفتى السابعة، قايضته الأم بحصان. منذ ذلك الوقت، مر من يد إلى أخرى، ومن سيد إلى آخر، إلى أن انتهى إلى ماخور حيث تعلم مهنة الطبخ ومتع السرير. أصبح هناك حامياً قوياً ومحترفاً للعاهرات، ذكوراً وأناثاً، ولجميع البوهيميين الضعفاء. ضربته الشرطة بما يكفي لإرسال عدة رجال إلى المقبرة، هذا الأسود المتوحش لا يعبر مطلقاً قرب مستشفى أو سجن.

المدام شيطان ذكر من الاثنين إلى الجمعة، شيطان يرتدي قبعة قشية يهيمن بالقبضة والموسى على الليل في حي العمال لابا حيث يطوف مدندناً السامبا ويحدد الزمن بعلبة كبريت، ولكن في نهاية الأسبوع يصبح أنثى، المرأة المستهترة التي ربحت لتوها الفستان التنكري في مسابقة الكرنفال والرداء الخارجي الذهبي الخفاشي، والتي ترتدي خاتماً في كل إصبع وتحرك ردفيها مثل صديقتها كارمن ميراندا.

19939: ريو دي جانيرو

كارتولا

كارتولا هو روح السامبا، وهو عملياً روح كل شيء آخر.

غالباً ما يعبر في ومضة، ملوحاً ببنطلونه كراية، يطارده زوجٌ غاضب. بين مرحه وهروبه، تعوم ألحان واحتجاجات الحب في داخله، لكي تدندن وتنسى بسرعة.

يبيع كارتولا السامبا لكل من يأتي ومقابل أي أجر يحصل عليه. يكون دائماً مندهشاً أن هناك بشراً سيدفعون أي شيء مقابلها.

1939: مونتسيرات

بايبخو

وهي مجروحة بشكل مهلك، خطت الجمهورية الإسبانية خطواتها الأخيرة بتثاقل. بقي لها نَفَسٌ قصير بينما كان جيش فرانكو المبيد يندفع.

في دير مونتسيرات، ومن أجل الوداع، نشرت الميليشيات أشعاراً كتبها شاعران من أميركا اللاتينية تمجيداً لإسبانيا ومأساتها. طبعت قصائد التشيلي بابلو نيرودا والبوليفي باييخو على ورق صنع من أسمال البزات، ورايات العدو، والضمادات.

كان قيصر باييخو قد مات لتوه، متأذياً ووحيداً، مثل إسبانيا. مات في باريس، وهو يوم تنبأ به وسجله، وكانت قصائده الأخيرة، التي كتبت بين أربعة جدران، مهداة إلى إسبانيا. غنى باييخو عن بطولة الشعب الإسباني، لروح إسبانيا المستقلة، لشمسها المعشوقة، وظلها المحبب، وكانت إسبانيا آخر كلمة نطقها في غصة الموت، هذا الشاعر الأميركي، هذا الأكثر أميركية بين الشعراء.

1939: واشنطن

روزفلت

حين أصبح فرانكلن ديلانو روزفلت رئيساً، كان في الولايات المتحدة خمسة عشر مليون عامل بلا عمل يبحثون بأعين أطفال مفقودين، رافعين إبهاماً على الطرق العامة وهم يتجولون من مدينة إلى أخرى، حفاة أو بغطاء من الكرتون وبأحذية يتسرب إليها الماء، ويستخدمون المراحيض العامة ومحطات سكك الحديد كفنادق.

كان أول ما فعله روزفلت لكي ينقذ أمته هو وضع النقود في قفص. أغلق جميع البنوك إلى أن توضح الطريق إلى الأمام. منذ ذلك الوقت حكم الاقتصاد دون أن يدعه يحكمه، وقوى ديموقراطية تهددها أزمة.

كانت علاقته جيدة مع طغاة أميركا اللاتينية ذلك أن روزفلت حماهم، كما حمى سيارات فورد، برادات كيلفيناتور، ومنتجات الولايات المتحدة الأخرى.

1939: واشنطن

في العام التاسع من حقبة تروخيو

في العام التاسع من عهد تروخيو رحبت به في ويست بوينت تحية من عشرين طلقة مدفعية، حيث كان تروخيو يهوي نفسه بمروحة من العاج معطرة ويحيي طلاب الكلية العسكرية برفرفة قبعته المزينة بريش النعام. كان يرافقه حشد كبير من الأساقفة، والجنرالات، والحاشية، بالإضافة إلى طبيب وساحر، مختصين بمشكلات العين، هذا إذا لم نذكر العميد رامفيس تروخيو، الذي في سن العاشرة، ويجر سيفاً أطول منه.

أقام الجنرال جورج مارشال لتروخيو مأدبة على متن الميفلاور واستقبله الرئيس روزفلت في البيت الأبيض. وأمطر المشرعون، والحكام، والصحفيون رجل الدولة الفذ بالمديح. تروخيو الذي دفع نقداً مقابل الجرائم، ربح المدائح بالطريقة نفسها، وسجل المال المنفق تحت عنوان «حب الطير» في الميزانية التنفيذية لجمهورية الدومينيكان.

1939: واشنطن

سوموزا

قبل أن يجعله المارينز جنرالاً ورئيساً مطلقاً لنيكاراغوا، اتبع أناستاسيو تاتشو سوموزا مهنة ناجحة في تزوير السبائك الذهبية والغش في البوكر والحب.

وبعد أن أصبح الحاكم المطلق، وضع قاتل سانديو الميزانية الوطنية في حسابه المصرفي الخاص وسيطر على أغنى أراضي البلاد. أباد أعداءه الذين تعوزهم الحماسة بإطلاق ديون البنك الوطني عليهم، بينما انتهى أعداؤه المقربون في حوادث أو كمائن.

لم تكن زيارة سوموزا إلى الولايات المتحدة أقل انتصاراً من زيارة تروخيو. ظهر الرئيس روزفلت وعدة أعضاء في الوزارة في محطة يونيون لكي يستقبلوه. عزفت فرقة عسكرية النشيدين الوطنيين، وتبع ذلك طلقات مدفعية. أعلن سوموزا أن جادة ماناغوا الرئيسية، التي تعبر المدينة من البحيرة إلى البحيرة، ستسمى جادة روزفلت.

1939: نيويورك

السوبرمان

احتفلت أكشن كوميكس بالذكرى الأولى للإطلاق الناجح لسوبرمان، هرقل أزمنتنا الذي يحرس الملكية الخاصة في العالم. يطير من مكان يدعى ميتروبوليس، بسرعة تتجاوز سرعة الضوء، يكسر حواجز الزمن، ويسافر إلى حقب ومجرات أخرى. وأينما يذهب، في هذا العالم أو العوالم الأخرى، يعيد سوبرمان خزن الأوامر بشكل أكثر فعالية وسرعة من كل سلك المارينز. بنظرة يذيب الفولاذ، وبرفسة يقطع غابة، وبلكمة يثقب سلاسل الجبال.

في شخصيته الأخرى، سوبرمان هو كلارك كينت الجبان، الخنوع كأي شخص من قرائه.

1941: نيويورك

صورة صانع رأي

في البداية تجرأت بعض الصالات على عرض *المواطن كين*، الفيلم الذي يروي فيه أورسون ويليز قصة رجل مصاب بحمى السلطة، رجل يشبه إلى حد بعيد ويليم رودولف هيرست.

كان هيرست يملك ثماني عشرة صحيفة، تسع مجلات، سبع قلاع، وبعض البشر الكافين. كان خبيراً في إثارة الرأي العام. وطول حياته الطويلة حرض على حروب وإفلاسات، صنع ودمر ثروات، خلق أوثاناً وأباد سمعة كثيرين. كان من بين ابتكاراته الأفضل حملة الفضيحة وعمود الثرثرة، الجيدين لما يحب أن يفعله بشكل أفضل ـ أن يوجه ضربة قوية إلى ما تحت الحزام.

اعتقد أقوى مفبرك للرأي في الولايات المتحدة أن السلالة البيضاء هي السلالة الإنسانية الوحيدة، آمن بالنصر الضروري للأقوى، واقتنع بأن الشيوعيين يجب أن يلاموا من أجل استهلاك الكحول بين الشبان، وأن اليابانيين يولدون خونة.

حين قصفت اليابان القاعدة البحرية في بيرل هاربور، كانت صحف هيرست تعزف مسبقاً إيقاعاً تحذيرياً ثابتاً لمدة نصف قرن عن الخطر الأصفر.

دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية.

1942: نيويورك

الصليب الأحمر لا يقبل دماً أسود

ركب الجنود الأميركيون السفن وانطلقوا إلى جبهات القتال. كان كثيرون منهم سوداً تحت قيادة ضباط بيض.

أولئك الذين بقوا على قيد الحياة عادوا إلى الوطن. دخل السود من الباب الخلفي، وفي الولايات الجنوبية، تابعوا الحياة، وعملوا، وماتوا منفردين، ودفنوا في قبور منفصلة. وكان رجال الكلكس كلان المقنّعون، يضمنون أن لا يتطفل السود ويدخلوا العالم الأبيض، وقبل كل شيء، مخادع النساء البيضاوات.

كانت الحروب تقبل السود، آلافاً مؤلفة منهم، لكن الصليب الأحمر لم يقبلهم. كان الصليب الأحمر يحظر الدم الأسود في بنوك البلازما، لكي يضمن ألا تختلط السلالات من خلال نقل الدم.

وأخيراً جعل بحث تشارلز درو، مبتكر الحياة، من الممكن إنقاذ الدم. وبفضله، أحيت بنوك البلازما آلاف الموتى في ساحات المعارك في أوروبا.

حين قرر الصليب الأحمر أن يرفض دم السود، استقال درو، مدير خدمة البلازما لدى الصليب الأحمر. كان درو أسود.

1942: أكسفورد، المسيسيبي

فوكنر

كان ويليم فوكنر يجلس على كرسي هزاز، في رواق مقنطر لمنزل متداع، يدخن في غليونه ويصغي إلى أسرار الأشباح المهموسة.

روى أسياد المزرعة لفوكنر عن أمجادهم ومخاوفهم. لم يرعبهم أي شيء مثل اختلاط السلالات. قطرة من دم أسود، قطرة واحدة صغيرة، تلعن حياة بأكملها، وتضمن، بعد الموت، نيران الجحيم. كانت السلالات الجنوبية القديمة، المولودة من الجريمة والمحكوم عليها بالجريمة، تراقب بقلق الروعة الشاحبة لغروبها، التي أساء إليها ظل السواد، أدنى أثر من

السواد. كان هؤلاء السادة يحبون أن يؤمنوا أن طهارة النسب لا تموت، رغم أن ذكراها يمكن أن تتلاشى، وأن أبواق الخيالة الذين هزمهم لينكولن لم تعد تصدح بعد الآن.

1942: هوليود

بريخت

كانت هوليود تصنع الأفلام لكي تحول الصلوات المخيفة لبشرية على حافة الدمار إلى أحلام عذبة. وُظِّف برتولت بريخت، الذي نفي من ألمانيا هتلر، في صناعة الحبة المنومة تلك. كان مؤسس المسرح الذي هدف إلى فتح الأعين، يكسب رزقه في استديوهات الولايات المتحدة، كأي كاتب آخر يعمل ساعات الدوام في هوليود، التي تتنافس لتنتج الحصة اليومية الأكبر من البلاهة.

في أحد تلك الأيام، اشترى بريخت إله حظ صغيراً مقابل أربعين سنتاً من مخزن صيني ووضعه على مكتبه. قيل لبريخت إن إله الحظ يلعق شفتيه في كل مرة يجعلونه يتناول السم.

1942: هوليود

الجيران الجيدون إلى الجنوب

رافق الجيران الطيبون من الجنوب الولايات المتحدة إلى الحرب العالمية. إنه زمن الأثمان الديموقراطية: كانت البلدان الأميركية اللاتينية تقدم موادَّ أولية رخيصة، طعاماً رخيصاً، جندياً أو اثنين.

عظمت الأفلام الهدف المشترك. ونادراً ما غاب عن الفيلم الرقم الأميركي الجنوبي، الذي يرقص أو يغني، بالإسبانية أو البرتغالية. اكتسب دونالد دك صديقاً برازيلياً حميماً، الببغاء الصغير خوسيه كاريوكا. أما في الجزر الباسيفيكية أو في حقول أوروبا، فقد كانت هوليود تمجد إبادة اليابانيين أو الألمان بالجملة. وكم من الأدونيسات يوجد إلى جانبهم ظريف لاتيني كسول وغبي، يعجب بأخيه الشمالي الأشقر ويخدم كصداه وظله، أحدب مطيع، مغن مبتهج، رسول، وطباخ؟

1942: ماريا بارثولا بامبا

طريقة أميركية لاتينية لتخفيض كلفة الإنتاج

بوليفيا، التي تعيش، دائماً، على الكفاف ـ هي إحدى البلدان التي دفعت للحرب العالمية من خلال بيع قصديرها بعشر الثمن العادي.

كان عمال المناجم يمولون هذا السعر القائم على صفقة. وكانت أجورهم تتراوح من لا شيء إلى لا شيء مطلقاً. وحين كانت الحكومة تدعو إلى العمل الإجباري بتهديد البنادق، كانت الإضرابات

تبدأ. حظر مرسوم آخر الإضرابات، لكنه فشل في إيقافها. وهكذا أمر الرئيس إنريكي بينارناندا، الجيش بأن يتخذ إجراء *حاداً وفعالاً*. أصدر باتينو، ملك المناجم، أوامره الخاصة: *تابعوا دون تردد*. وافق نائباه، أرامايو وهوتشتشيلد. بصقت الرشاشات النار طول ساعات وغطت الأرض بالجثث.

دفعت مناجم باتينو لشراء بعض التوابيت، لكنه ادخر التعويضات. الموت بالرشاشات ليس مخاطرة مهنية.

1943: سانس ـ سوسي

كاربنتييه Carpentier

اكتشف أليخو كاربنتييه مملكة هنري كريستوفي. طاف الكاتب الكوبي في تلك الأطلال الملكية، ذلك النصب التذكاري لهذيان طباخ أسود أصبح ملك هاييتي وقتل نفسه بالرصاصة الذهبية التي كانت تتدلى دائماً حول عنقه. ابتهالات طقسية، وطبول سحرية نهضت لتقابل كاربنتييه وهو يزور القصر الذي نسخه الملك كريستوفي عن فرساي. سار حول حصنه المحمي، وهو متراس ضخم، التصقت أحجاره بإسمنت دم الثيران التي ضحي بها للآلهة، وقاوم الصواعق والزلازل.

في هاييتي، عرف كاربنتييه أنه ليس هناك سحر أكثر إدهاشاً ومتعة من الرحلة التي تقود، عبر التجربة، عبر الجسد، إلى أعماق أميركا. في أوروبا أصبح السحرة بيروقراطيين، والدهشة، التي استنفدت، تحولت إلى خدعة استدعاء. لكن السريالية، في أميركا، طبيعية كالمطر أو الجنون.

1943: بورت ـ أو ـ برينس

الأيدي التي لا تكذب

أنشأ ديويت بيترز مشغلا مفتوحا انطلق منه فجأة الفن الهاييتي. كان الجميع يرسمون على كل شيء: الملابس، الكرتون، علب الصفيح، الألواح الخشبية، الجدران وكل ما يقدم نفسه. رسموا بانفجار روعة كبير، بأرواح قوس قزح السبع. الجميع: الحذاء، الصياد، غاسلة النهر، بائع الكشك في السوق. في البلاد الأميركية الأكثر فقرا، التي عصرتها أوروبا، وغزتها الولايات المتحدة، التي مزقتها الحروب والديكتاتوريات، كان الشعب يصيح ألوانا ولم يستطع أحد أن يخرسه.

1943: جبل رويس

حبة ملح صغيرة

في بار، وهو محاط بأطفال منتفخي البطون وكلاب هزيلة، كان فيكتور هيبوليت يرسم الآلهة بفرشاة من ريش الدجاج. وكان القديس يوحنا المعمدان يأتي في المساء ليساعده.

يصور هيبوليت الآلهة التي ترسم عبر يده. هذه الآلهة الهاييتية، المرسومة والرسامة، تعيش بشكل متزامن على الأرض وفي الفردوس والجحيم: قادرة على الخير والشر، تقدم لأبنائها الانتقام والعزاء.

لم تأت جميعها من أفريقيا، بعضها ولد هنا، مثل بارون ساميدي، إله الخطوة الوقورة، سيد السموم والقبور، الذي تعزز سواده قبعة وقصبة. أن يقتل السم وأن يرقد الميت بسلام، هذا يعتمد على بارون ساميدي. كان يعيد كثيراً من الموتى إلى الحياة ويحكم عليهم بالعمل كعبيد.

الموتى المسحورين ـ الذين يسيرون أو يعيشون، الذين فقدوا أرواحهم ـ يظهرون نظرة غباء لا أمل فيها. لكنهم لا يستطيعون أن يهربوا أو يستعيدوا حياتهم الضائعة أو أرواحهم المسروقة. حبة ملح واحدة كافية لإيقاظهم. ولكن كيف يمكن أن يفقد الملح في وطن العبيد الذين هزموا نابليون وأسسوا الحرية في أميركا.

1944: نيويورك

تعلم الرؤية

إنها الظهيرة، وكان جيمس بالدوين يسير مع صديق عبر شوارع مانهاتن. أوقفهما ضوء أحمر.

قال الصديق مشيراً إلى الأرض: «انظر».

نظر بالدوين لكنه لم ير شيئاً.

«انظر، انظر».

لا شيء، لم يكن هناك شيء ينظر إليه سوى بركة ماء صغيرة وقذرة على حافة الطريق.

ألح صديقه: «انظر؟ ألا ترى؟»

وعندئذ نظر بالدوين جيداً ورأى هذه المرة بقعة نفط تنتشر في البركة. عندئذ رأى، في بقعة النفط، قوس قزح، وفي أعماقها رأى الشارع والبشر الذين يتحركون فيه: الغريق، المجنون، السحرة، العالم كله يتحرك، عالم مذهل مليء بالعوالم التي تتوهج في العالم. رأى بالدوين. للمرة الأولى في حياته رأى.

1945: حدود غواتيمالا ـ السلفادور

ميغيل في سن الأربعين

نام في الكهوف والمقابر. حكم عليه الجوع بهقات عديدة، تنافس مع الغربان من أجل الفتيات.

أخته، التي تقابله بين فينة وأخرى قالت: *«لقد منحك الله مواهب عديدة، لكنه عاقبك بجعلك شيوعياً»*.

منذ أن استعاد ميغيل ثقة حزبه، ازداد الركض والمعاناة. والآن قرر حزبه أن عضوه الأكثر تضحية يجب أن يذهب إلى المنفى في غواتيمالا.

نجح ميغيل في عبور الحدود بعد ألف مشاحنة وخطر. خيّم ليل عميق. تمدد، منهكاً، تحت شجرة. فجراً، أيقظته بقرة صفراء عملاقة لحست قدميه.

قال ميغيل: صباح الخير، لكن البقرة هربت مذعورة وركضت نحو الغابة وهي تخور. ظهرت من الغابة على الفور أربعة ثيران منتقمة. ليس هناك مهرب. خلف ميغيل هاوية، وللشجرة التي خلف ظهره جذع نحيل. هجمت الثيران، ثم توقفت ساكنة وبدأت تنظر، لاهثة، تتنفس ناراً ودخاناً، ترفع قرونها وتضرب الأرض، تمزق النباتات وتثير الغبار.

ارتجف ميغيل وغطاه عرق بارد. مربوط اللسان من الذعر تمتم بعض الكلمات. نظرت الثيران إليه: رجل نصف جائع ونصف خائف. ثم نظرت إلى بعضها بعضاً. ودع نفسه لدى ماركس والقديس فرانسيس من أسيسي بينما كانت الثيران تدير له ظهورها وتتجول هازة رؤوسها.

وهكذا حصلت الولادة التاسعة لميغيل مارمول في سن الأربعين.

1945: هيروشيما وناغازاكي

شمس من النار

شمس من النار، ضوء بنفسجي لم ير في العالم من قبل، شق السماء وفتحها، ثم انهار. بعد ثلاثة أيام، انفجرت شمس شموس ثانية فوق اليابان. وفي الأسفل بقي خبث مدينتين، صحراء من الركام، عشرات الآلاف من الموتى والمزيد من الآلاف الذين حكم عليها بالموت التدريجي في الأعوام الآتية.

انتهت الحرب تقريباً، ذهب هتلر وموسوليني، حين أصدر الرئيس هاري ترومان الأمر بإسقاط قنابل ذرية على سكان هيروشيما وناغازاكي. في الولايات المتحدة، كان الصخب القومي في أوجه حيال القضاء العاجل على الخطر الأصفر. لقد حان الوقت لإنهاء الأوهام الإمبريالية لتلك البلاد الآسيوية المغرورة، التي لم يستعمرها أحد. قالت صحافة تلك القردة الصغيرة الخائنة إن الوحيد الجيد هو الميت.

الآن تبددت جميع الشكوك. ثمة فاتح عظيم واحد بين الفاتحين. بزغت الولايات المتحدة من الحرب سليمة وأكثر قوة من قبل. تصرفت وكأن العالم كله غنيمة لها.

1945: برينستون

آينشتاين

شعر ألبرت آينشتاين وكأن يده هي التي ضغطت على الزر. وعلى الرغم من أنه لم يصنعها، فإن القنبلة الذرية لم تكن ممكنة لولا اكتشافاته حول تحرير الطاقة. تمنى آينشتاين لو أنه كان

شخصاً آخر، لو أنه خصّص وقته لمهمة غير عدوانية كتركيب المغاسل أو بناء الجدران بدلاً من استقصاء أسرار الحياة التي يستخدمها آخرون، الآن، للقضاء عليها.

حين كان طفلاً قال له مدرس: «*لن تصبح أي شيء*».

مستغرقاً في أحلام اليقظة، متأملاً ملامح شخص على القمر، تساءل كيف سيبدو الضوء لشخص قادر أن يركب على شعاع؟ حين أصبح رجلاً، عثر على الجواب في نظرية النسبية، فاز بجائزة نوبل، واستحق أشياء كثيرة بسبب أجوبته على أسئلة أخرى ولدت في ذهنه حول العلاقة الغامضة بين سوناتات موزارت ونظرية فيثاغورث، أو حول الأرابيسك المتحدي الذي يرسمه دخان غليونه، ذي الطول الزائد، في الجو.

آمن آينشتاين أن العلم طريقة لكشف جمال الكون. كان ذلك العالم الأكثر شهرة بين العلماء يمتلك العينين الأكثر حزناً في تاريخ الإنسانية.

1945: بوينس آيرس

بيرون

تولى الجنرال مكآرثر مسؤولية اليابانيين، وتولى سبرويل برادين Spruille Braden مسؤولية الأرجنتينيين. ولكي يقود الأرجنتين، على الطريق الجيدة، إلى الديموقراطية، جمع السفير الأميركي برادين جميع الأحزاب، من المحافظة إلى الشيوعية، في جبهة موحدة ضد خوان دومنغو بيرون. استناداً إلى وزارة الخارجية الأميركية، كان العقيد بيرون، وزير العمل، زعيم عصابة من النازيين. دعته مجلة لوك منحلاً يحفظ في درج مكتبه صور نساء هنديات عاريات من باتاغونيا مع صور هتلر وموسوليني.

مع ذلك، طار بيرون، بسرعة، على الطريق إلى الرئاسة مع إيفيتا، الممثلة الإذاعية ذات العينين المحمومتين والصوت المغوي، وحين كان يتعب، أو يشك، أو يخاف، كانت هي التي تريحه. أصبح بيرون يجذب المزيد من البشر أكثر من الأحزاب كلها مجتمعة. حين كانوا يدعونه «مهيجاً» كان يقبل اللقب كشرف. كان الأشخاص المهمون والمتنوّقون يترنمون باسم السفير برادين في زوايا شوارع بوينس آيرس، ملوحين بالقبعات والمناديل، ولكن في حي العمال، كان الذين لا يرتدون قميصاً يصيحون باسم بيرون. عثر العمال، المنفيون في أرضهم، الكئيبون بسبب الحجز الكثير، على صوت ومسقط رأس في هذا الوزير غير العادي الذي يقف دوماً إلى جانبهم.

تواصل صعود شعبية بيرون وهو ينفض الغبار عن القوانين الاشتراكية المنسية أو يبتكر قوانين جديدة. قانونه قانون يفرض احترام حقوق الذين يكسرون ظهورهم في المزارع والمستعمرات الزراعية. والقانون لا يبقى مجرد ورقة، هكذا يصبح عامل الريف الهندي، الذي لا يساوي شيئاً، عاملاً ريفياً تحمي حقوقه نقابة عمال.

1945: حقول توكيومان

المألوف

كان يغضب من تلك البدع التي تزعج أملاكه. يغضب من نقابات العمال ويخشاها أكثر مما يخشى مقبض السكين.

في مزارع قصب السكر في شمال الأرجنتين، المألوف مسؤول عن طاعة الفلاحين. إذا أجاب أحدهم أو تصرف بوقاحة، يلتهمه المألوف ببلعة واحدة. يتحرك بقعقعة السلاسل ونتانة الكبريت، ولكن لا أحد يعرف إن كان هو الشيطان شخصياً أو مسؤولاً. لم يره إلا ضحاياه، ولا يبدو أن أحداً يقدر على إضافة المواصفات. أشيع أن المألوف يتحول في الليل إلى ثعبان كبير وينفذ دورية في الأكواخ حيث ينام الفلاحون الأقنان، أو يقبع منتظراً على الطرقات في شكل كلب عيناه ملتهبتان، أسود، بأسنان ضخمة ومخالب.

يقظة ملاك صغير

في أقاليم الأرجنتين الشمالية، لا يبكون على موت الأطفال. إذا غاب فم عن الأرض ولد ملاك في السماء. الموت ثمل ويرقص منذ صياح الديك، ويمتص جرعات كبيرة من الشراب والشيكا chicha على إيقاع الطبلة العظمى والغيتار. وبينما يدور الراقصون ويضربون أقدامهم بالأرض، يمرر الطفل من ذراع إلى آخر. وبعد أن يهدهد الطفل ويحتفل به، بشكل جيد، يبدأ الجميع بالغناء ليجعلوه يبدأ طيرانه إلى الجنة. وإلى هناك يذهب المسافر الصغير، مرتدياً أفضل ثياب الأحد بينما ترتفع الأغنية، ويودعونه، مشعلين المفرقعات النارية، حريصين جداً على أن لا يحرقوا جناحيه.

1945: حقول توكيومان

يوبانكوي

كان يمتلك الوجه الحجري لهندي يحدق، بجمود، بالجبل الذي يحدق به، لكنه جاء من سهوب الجنوب، التي لا ترجع صدى والتي لا تخبئ أي شيء، إنه راعي البقر، مغني ألغاز الشمال الأرجنتيني. جاء على حصان، وكان يتوقف في أي مكان، مع أي شخص، على هوى الطريق. ولكي يتابع رحلته يغني عن أسفاره السابقة، إنه أتاوالبا يوبانكوي الذي يغني ليجعل التاريخ يمضي، هذا الذي يعزف بيده اليسرى على الغيتار، واليساري حين يفكر بالعالم، يعرف جيداً أن تاريخ الفقراء إذا لم يجد من يتغنّى به يُنسى.

1946: لاباث

دائرة النفوذ

هناك ثلاثة على القمة، وفي سفح الجبل ثمة ثلاثة ملايين. الجبل قصدير ويدعى بوليفيا.

يؤلف الثلاثة الذين على القمة دائرة النفوذ: سيمون باتينو في المركز، في جانب كارلوس أرامايو، وفي جانب آخر مورثيو هوتشتشايلد. منذ نصف قرن، كان باتينو معدّناً فقيراً، لكن حورية لمسته بعصاها السحرية وحولته إلى أحد أغنى الرجال في العالم. والآن يرتدي صدرة بسلسال ذهبي، ويجلس الملوك والرؤساء إلى مائدته. صعد أرامايو من الأرستقراطية المحلية، وخرج هوتشتشايلد من الطائرة التي أقلته إلى بوليفيا. كان كل منهم يملك نقوداً أكثر من الدولة.

كان كل ما يربحه القصدير يبقى خارج بوليفيا. ومن أجل تجنب الضرائب كان مقر باتينو في الولايات المتحدة، ومقر أرامايو في سويسرا، ومقر هوتشتشايلد في تشيلي. كان باتينو يدفع لبوليفيا خمسين دولاراً في العام كضريبة دخل، أرامايو اثنين وعشرين، والآخر لا شيء. من كل طفلين يولدان في مناجمهم يموت واحد.

كل عضو من دائرة النفوذ يمتلك تحت تصرفه صحيفة وعدداً من الوزراء والمشرعين. ومن التقليدي بالنسبة لوزير الخارجية أن يتلقى راتباً شهرياً من مناجم باتينو. ولكن الآن بما أن الرئيس خوالبيرتو بيلارويل يقترح أن تدفع مناجم أصحاب النفوذ الضرائب والرواتب التي ليست مجرد رمزية، ما الذي يجب أن يفعل سوى التخطيط لمؤامرة؟

1946: لا باث

بيلارويل

لم يدافع الرئيس بيلارويل عن نفسه وإنما سلم نفسه للقدر ـ وكأن المسألة كانت مسألة قدر.

هاجمه قتلة مستأجرون يتبعهم حشد يثير الغبار من النساء الورعات والطلاب. ملوحين بالمشاعل، والرايات السوداء، والمناديل الدموية، اقتحم المتمردون القصر الحكومي، رموا بيلارويل عن الشرفة، ثم علقوا ما تبقى منه عارياً على عمود مصباح.

بالإضافة إلى تحدي أصحاب النفوذ أراد بيلارويل أن يمنح حقوقاً متساوية للبيض والهنود، الزوجات والعاشقات، الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين.

ابتهج العالم بالجريمة. أثنى قادة الديموقراطية على إبادة طاغية يقبض من هتلر، والذي، بوقاحة لا يمكن الصفح عنها، أراد أن يرفع ثمن القصدير السيىء. وفي بوليفيا، البلاد التي لا تتوقف عن الكدح من أجل مصائبها، احتفل بشكل وحشي بسقوط ما هو قائم وإعادة ما كان قائماً: أيام سعيدة لعصبة الأخلاق، رابطة أمهات الكهنة، أرامل الحرب، السفارة الأميركية، جميع المظاهر اليمينية، تقريباً اليسار كله ـ يسار يسار القمر! ـ دائرة النفوذ

1946: هوليود

كارمن ميراندا

مغطاة بالنثار اللماع والعقود، متوجة ببرج من الموز، تتموج كارمن ميراندا إزاء ستارة خلفية استوائية من الكرتون.

كارمن المولودة في البرتغال، ابنة حلاق فقير وبخيل عَبَرَ المحيط، هي الصادر الرئيسي من البرازيل. بعد ذلك يأتي البن.

كانت تلك المرأة الفاجرة، الشديدة الصغر، تملك صوتاً ضعيفاً، وما لديها هو نشاز، لكنها تغني بيديها وعينيها المتوهجتين، وكان ذلك أكثر من كاف. كانت واحدة من أفضل المؤديات اللائي يدفع لهن في هوليود. كانت تمتلك عشرة منازل وثمانية آبار نفط.

لكن فوكس رفض أن يجدد عقدها. ذلك أن السيناتور جوزف مكارثي دعاها فاحشة، لأن مصوراً، في قمة أحد عروضها، كشف لمحات من اللحم العاري غير مسموح بها، ومن يعرف ماذا أيضاً تحت تنورتها الطائرة. وكشفت الصحافة أيضاً أن كارمن حين كانت طفلة قرأت سطوراً أمام ملك بلجيكا ألبيرت، ترافقت مع اهتزازات وغمزات فضحت الراهبات وسببت للملك أرقاً مستمراً.

1948: بوغوتا

في مساء

في بوغوتا الهادئة، منزل الكهنة والمحلفين، جلس الجنرال مارشال مع وزراء خارجية أميركا اللاتينية.

ما الهدايا التي أحضرها معه، ملك الغرب الحكيم هذا، الذي روى بالدولارات الأراضي الأوروبية التي دمرتها الحرب؟ الجنرال مارشال، الجامد، الميكروفونات مثبتة إلى صدره، يقاوم تدفق الخطابات. دون أن يحرك كثيراً حتى جفنه، تحمَّل الإصغاء طويلاً إلى الخدمات الديموقراطية التي قدمها كثيرون من الموفدين الأميركيين اللاتينيين المتلهفين لبيع أنفسهم بسعر ديك ميت، بينما كان جون مكلوي، رئيس البنك الدولي، يحذر: *«أنا آسف أيها السادة، لكنني لم أحضر معي دفتر شيكاتي في حقيبتي.»*

إلى ما وراء صالونات المؤتمر التاسع الشامل لأميركا، تدفق المزيد من الخطابات المنمقة عبر طول وعرض البلد المضيف. أعلن الليبراليون المتفقهون أنهم سيحضرون السلام إلى كولومبيا كما جعلت الإلاهة بالاس أثينا غصن الزيتون يزهر على تلال أثينا، ووعد المحافظون الواسعو الإطلاع أن يخرجوا قوى مجهولة إلى الضوء، ويضيئوا بالنار المظلمة، التي هي أحشاء الكوكب، الضوء الجبان النذري للشمعدانات التي تشعل في مساء الخيانة في الليلة الظلماء.

وبينما كان وزراء الخارجية يصخبون، ويعلنون، ويتكلمون بطريقة خطابية، كان الواقع يلح. في الريف الكولومبي كانت الحرب بين المحافظين والليبراليين تخاض بالبنادق. السياسيون يقدمون الكلمات، والفلاحون يقدمون الجثث. وكان العنف يتغلغل مسبقاً إلى بوغوتا، قارعاً على أبواب العاصمة ومهدداً أعمالها الروتينية التي شرفها الزمن - دائماً الخطايا نفسها، والاستعارات نفسها. في أثناء صراع الثيران، الأحد الماضي، تدفق الحشد اليائس إلى الساحة ومزق إرباً ثوراً بائساً رفض أن يقاتل.

1948: بوغوتا

غايتان Gaitan

قال خورخس إلييثير غايتان Gorge Eliecer Gaitan: *لا علاقة للبلاد السياسية بالبلاد القومية*. غايتان، رئيس الحزب الليبرالي، هو أيضاً خروفه الأسود. عبده الفقراء من جميع المذاهب. *ما الفرق بين الجوع الليبرالي والجوع المحافظ؟ ليست الملاريا ليبرالية أو محافظة* !

كان صوت غايتان يفك وثاق الفقراء الذين يصرخون عبر فمه. كان يرمي الخوف أرضاً. جاؤوا من كل مكان للإصغاء إليه - للإصغاء إلى أنفسهم - سار مرتدو الأسمال عبر الغابة، ونخسوا أحصنتهم على الطرقات. قالوا إن غايتان حين يتحدث ينجلي الضباب في بوغوتا، وإن القديس بطرس في السماء يصغي ويمنع سقوط المطر على الحشد الضخم الذي يجتمع في ضوء المشاعل.

لم يتردد القائد المبجل، ذو الوجه الغريب كوجه تمثال، في شجب الأوليغاركية والإمبريالي الذي يتكلم من بطنه ويجلس الأوليغاركيون عند قدميه دون حياة أو كلمات خاصة بهم. دعا إلى تطبيق الإصلاح الزراعي وأوضح حقائق أخرى ليضع حداً للكذبة المتواصلة.

إذا لم يقتلوا غايتان سيصبح رئيس كولومبيا التالي. لا يمكن شراؤه. لأي إغراء سيخضع، هذا الرجل الذي يحتقر المتعة، وينام وحيداً، ويأكل القليل، ولا يشرب شيئاً، والذي يرفض حتى المخدر حين ينزع أحد أضراسه؟

1948: بوغوتا

البوغوتاثو[1]

في الثانية بعد الظهر من التاسع من نيسان، كان لغايتان موعد مع أحد الطلاب الأميركيين اللاتينيين المجتمعين في بوغوتا على هامش احتفال الجنرال مارشال الشامل لأميركا.

---

[1] البوغوتاثو: هي ثورة قامت في مدينة بوغوتا وامتدت إلى بقية أنحاء كولومبيا بعد مقتل المرشح غايتان.

في الواحدة والنصف، غادر الطالب فندقه، مقرراً أن يسير إلى أن يصل إلى مكتب غايتان. ولكن بعد بضع خطوات أوقفته ضجة كالزلزال، وغمره مد بشريٌّ. اندفع البشر، المتدفقون من أحياء العمال ومن التلال، بجنون وهم يعبرونه، كإعصار من الألم والغضب طوفن المدينة، حطم واجهات المستودعات، قلب السيارات، وأضرم النيران في الأبنية.

لقد قتلوه! لقد قتلوه!

حصل ذلك في الشوارع، بثلاث طلقات، توقفت ساعة غايتان عند الواحدة وخمس دقائق ظهراً.

كان الطالب شاباً كوبياً بديناً يدعى فيدل كاسترو، قذف قبعته فوق رأسه وترك ريح البشر تعصف به.

1948: بوغوتا

ألسنة لهب

غزت معاطف الهنود وأحذية العمال مركز بوغوتا، الأيدي التي خشنتها أحجار الأرض، الأيدي الملطخة بزيت الآلات، أو ببويا الأحذية، إعصار من الحمالين، والطلاب، والخدم، والغاسلات، والبائعات، وجميع أنواع الصناع، مطاردو سيارة الإسعاف والباحثون عن الثروة. فصلت امرأة نفسها عن الإعصار، كانت ترتدي أربعة معاطف فرائية، وخرقاء كدب عاشق. ركض رجل كأرنب وحول عنقه عدة عقود من اللؤلؤ، ركض آخر كسلحفاة حاملاً براداً على ظهره.

كان في زوايا الشوارع أطفال يرتدون أسمالاً ويشرفون على حركة المرور. حطم السجناء قضبان زنزاناتهم، وقطع شخص خراطيم إطفاء النار بمنجل. تحولت بوغوتا إلى نار كبيرة، والسماء إلى قبة حمراء. قفز ضاربو الآلة الكاتبة عن شرفات الوزارات، ومن الأبراج المحترقة أمطر الرصاص. اختبأ رجال الشرطة أو توقفوا عن عملهم أمام العنف.

من القصر الرئاسي، شوهد نهر من البشر يقتربون. كانت الرشاشات قد ردت مسبقاً هجومين من هذا النوع، رغم أن الحشد نجح في قذف الجسد المنتزع الأحشاء لدمية الشخص الذي قتل غايتان على أبواب القصر.

السيدة الأولى، دونا بيرثا، وضعت مسدساً في حزام خصرها واتصلت بقس الاعتراف: *«أيها الأب كن جيداً وخذ ابني إلى السفارة الأميركية»*.

في اتصال آخر رتب الرئيس ماريانو أوسبينا بيريث حماية بيت الجنرال مارشال وأملى أوامر ضد حشد المتمردين، ثم جلس منتظراً. ازداد الشغب في الشوارع.

قادت ثلاث دبابات الهجوم على القصر الرئاسي. كانت تغص بحشود تلوِّح بالرايات وتهتف باسم غايتان، وخلفها اندفع حشد يتلألأ بالمناجل، الفؤوس، والهراوات. حين وصلت الدبابات إلى القصر توقفت، استدارت أبراجها ببطء، سددت إلى الخلف، وبدأت تحصد البشر.

1948: بوغوتا

رماد

أحد ما يتجول بحثاً عن حذاء. امرأة تعول، وبين يديها طفل ميت. الدخان يعلو من المدينة. إذا لم تسر بحرص ستدوس على الجثث. تمثال لعرض الملابس مقطع يتدلى على كابلات الترام. من على درج أبرشية محترقة، مسيح عار، مسودٌ، يحدق بالسماء ويداه ممدودتان. عند قدم ذلك السلم، يجلس شحاذ ويشرب. تاج كبير الأساقفة يغطي رأسه وستارة مخملية أرجوانية تغلف جسده. يدافع عن نفسه من البرد باحتساء كونياك فرنسية من كأس القربان الذهبية، ويقدم المشروبات للعابرين بقدح فضي.

لم يكن لدى الجنرال مارشال شكوك. كان تمرد البوغوتيين من تخطيط موسكو. قطعت حكومة كولومبيا علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي.

1948: وادي أوبار Upar

الباييناتو

«أريد أن أطلق صرخة لكنهم لا يسمحون لي...»

منعت حكومة كولومبيا «صرخة المتشرد». كل من يغني يجازف بالسجن أو برصاصة. وعلى الرغم من ذلك يتابعون الغناء على طول نهر مجدلينا.

كان سكان الساحل الكولومبي يدافعون عن أنفسهم بعزف الموسيقى. و«صرخة المتشرد» هي إيقاع الباييناتو Vallenato، إحدى أغاني رعاة البقر التي تروي قصة الإقليم، تملأ الجو بالمتعة.

وفقاً للصدر، يرقص الشعراء الجوالون ويبحرون، وفقاً للفخذ، يتلقون المشروبات الأولى في جميع الحفلات ويتحدون بعضهم إلى مبارزة بالرباعيات.

تندفع أشعار الباييناتو المولودة من الأكورديونات إلى الأمام والخلف كالسكاكين، كوابل من الطلقات النارية في المعارك الموسيقية الجسورة التي تستمر أياماً وليالي في الأسواق وحلقات صراع الديكة. منافس المغني الأكثر إثارة للخوف هو لوسيفر، ذلك الموسيقي العظيم، الذي يضجر في الجحيم ويأتي إلى أميركا بسرعة سقوط قبعة، متنكراً، ليبحث عن التسلية.

1948: روكلو قاموس الأطلس

بيكاسو

يجسد هذا الرسام أفضل الرسامين في جميع الأزمنة. يتعايشون فيه، حتى ولو بشكل غير مريح. وليس من السهل فهم بشر عنيدين كهؤلاء، قدماء ومعاصرين، يمضون وقتاً طويلاً في

الصراع مع بعضهم بعضاً بحيث أن الفنان لا يمتلك لحظة حرة لكي يصغي إلى الخطابات أو يلقيها.

لكن للمرة الأولى والوحيدة في حياته، ألقى بابلو بيكاسو كلمة. وحصل ذلك الحدث الذي لم يُسمَع به في مدينة روكلو Wroclow البولونية، في مؤتمر عالمي للمفكرين حول السلام. «*لدي صديق ينبغي أن يكون هنا...*»

أثنى بيكاسو *على أعظم شاعر في اللغة الإسبانية، وأحد أعظم الشعراء على الأرض، الذي وقف دائماً إلى جانب الفقراء: بابلو نيرودا الذي يضطهده البوليس في تشيلي، المرمي في زاوية ككلب*...

1948: في مكان ما في تشيلي

نيرودا

كان العنوان الرئيسي في صحيفة إل إمبراثيال El Impracial: بحث عن نيرودا في البلاد كلها، وتحته: المحققون الذين يحددون مكانه سيكافأون.

كان الشاعر ينتقل من مخبأ إلى آخر، مسافراً في الليل. نيرودا واحد من بين كثيرين عانوا من الاضطهاد كونه أحمر أو محترماً أو لأنه كائن فحسب، ولم يتذمر من ذلك المصير، الذي اختاره. ولم يندم من العزلة: استمتع بذلك الهيام المقاتل واحتفى به، رغم المشكلات التي سببها له، كما استمتع واحتفى بأجراس الكنائس، والخمرة، وحساء الأنقليس، والنيازك الطائرة ذات الأجنحة العريضة.

1948: سان خوسيه دي كوستا ريكا

أرقام

بعد ستة أسابيع من الحرب الأهلية، وألفي قتيل، وصلت الطبقة الوسطى الريفية إلى السلطة في كوستاريكا.

قال رئيس الحكومة الجديدة، خوسيه فيخيريس إن الحزب الشيوعي خارج على القانون. ووعد بدعم غير مشروط لصراع العالم الحر ضد الرأسمالية الروسية. ولكنه وعد، بصوت خفيض، أن يتابع توسيع الإصلاحات الاشتراكية التي أحدثها الاشتراكيون في السنوات الأخيرة.

بحماية الرئيس رافايل كالديرون، صديق الشيوعيين، انتشرت النقابات والتعاونيات في كوستا ريكا، وربح مالكو الأرض الصغار أراضي من الأملاك الكبيرة، تحسنت الصحة واتسع نطاق التربية.

لم يلمس فيخيريس المعادي للشيوعية أراضي شركة يونايتد فروت، السيدة الأكثر قوة، لكنه أمم البنوك وحل الجيش، بحيث لا تضارب النقود ولا يتآمر الجيش. كانت كوستا ريكا تريد مخرجاً من الاضطراب الوحشي في أميركا الوسطى.

1949: واشنطن

الثورة الصينية

بين الأمس وغداً ثمة هاوية. قفزت الثورة الصينية في الجو وعبرت الفجوة.

أثارت الأنباء القادمة من الصين الغضب والخوف في واشنطن. بعد مسير طويل من البؤس المسلح، انتصر حمرُ ماو. هرب الجنرال شيانغ كاي شيك ونصبته الولايات المتحدة على عرش جزيرة فورموزا.

منع الفقراء والكلاب من دخول الحدائق في الصين، وكان الفقراء لا يزالون يتجمدون حتى الموت في الصباح الباكر، كما في أيام موظفي الإمبراطورية الكبار، لأن الأوامر لم تكن تأتي من بكين، ولم يكن الصينيون هم الذين يعينون الوزراء والجنرالات، أو يكتبون قوانينهم ومرسوماتهم، ويحددون تعريفاتهم ورواتبهم.

بسبب خطأ جغرافي، لم تكن الصين في منطقة البحر الكاريبي.

1949: هافانا

المسرح الإذاعي

توسل الممثل للمؤلف: «*لا تقتلني*.»

فكر أونيليو خورخي كاردوسو أن يقضي على الكابتن هوك في الحكاية التالية، ولكن إذا ماتت الشخصية من طعنة سيف على متن سفينة القراصنة، فإن الممثل سيموت من الجوع في الشارع. المؤلف، الذي هو صديق جيد للمثل، يعده بحياة أبدية.

اخترع أونيليو مغامرات مثيرة، لكن مسرحياته الإذاعية لم تحظ إلا بنجاح قليل.

لا يسكبها كثيفة بما يكفي، لا يعرف كيف يعصر القلوب كالغسيل ـ حتى آخر قطرة. على العكس، يلمس خوسيه سانشيث آرسيلا، الأنسجة الأكثر حميمية. في مسلسله «قلادة الدموع»، تصارع الشخصيات ضد القدر الفاسد في تسعمائه وخمسة وستين حكاية تغسل الجمهور بالدموع.

لكن النجاح الأكبر للزمن كله كان «حق أن تولد»، لفيليكس بـ كانيت. لم يسمع بشيء مثله في كوبا أو في أي مكان آخر. في الساعة الليلية المحددة، وحده يحظى بالإصغاء، في قداس جماعي. تقاطع الأفلام، تفرغ الشوارع، يعلق العشاق مداعباتهم، تترك الديكة القتال، وحتى الذباب يحط في تلك الفترة.

طوال أربع وسبعين حلقة، كانت كوبا كلها تنتظر أن ينطق دون رافايل ديل جنكو. ذلك أن هذه الشخصية تملك السر، لكنه ليس مشلولاً بشكل كامل وحسب، إنما فقد صوته في الحلقة 197. ولقد وصلنا إلى الحلقة 271 ودون رافايل لا يستطيع إلا أن ينظف حنجرته. متى سينجح في كشف الحقيقة للمرأة الجيدة التي لم تذنب إلا مرة واحدة، وقد خضعت لنداء الهيام المجنون؟ متى سيمتلك الصوت ليقول لها إن ألبرتيكو ليمونتا، طبيبها، هو في الحقيقة ثمرة الحب غير الشرعي نفسه، الطفل الذي هجرته حالاً بعد ولادته بين يدي امرأة سوداء بروح بيضاء؟ متى، آه! متى؟

الجمهور، الميت من الإثارة، لا يعرف أن دون رفايل هو في إضراب صامت. وهذا الصمت القاسي سيستمر إلى أن يتلقى الممثل الذي يلعب دور دون رفايل ديل جنكو العلاوة التي كان يطلبها طول شهرين ونصف.

1950: ريو دي جانيرو

أوبدويو

رغم أن النرد ممسوك ضده، خطا أوبدويو بشدة وسدد. الكابتن الأوروغوايي، الرجل الأسود القائد والعضلي، لا يفقد شجاعته. وكلما زأر الحشد المعادي في المدّرج، ينمو أوبدويو.

دهشة وأسى في إستاد ماراكانا: البرازيل، الآلة العظيمة،المدمرة ومحققة الأهداف، المفضلة دائماً، خسرت تلك المباراة الأخيرة، في الدقيقة الأخيرة. الأوروغواي، التي تلعب من أجل حياتها، فازت ببطولة العالم لكرة القدم.

في تلك الليلة هرب أوبدويو من فندقه، وقد حاصره الصحفيون، والمراوح، والفضوليون. مفضلاً أن يحتفل وحده، ذهب بحثاً عن شراب في حانة ما رديئة، لكنه كان يلتقي في كل مكان ببرازيليين يبكون.

«*أوبدويو يربحنا المباراة*»، كانوا يصيحون في الإستاد منذ ساعة، في منتصف المباراة. الآن، مستحمين بالدموع، يصيح البشر نفسهم: «*كان هذا خطأً أوبدوليو*»

وأوبدويو، الذي كرههم حديثاً، مذهول من رؤيتهم فردياً. بدأ النصر يثقل عليه. حطم حفلة أولئك البشر الطيبين، وبدأ يتساءل إن كان ينبغي عليه أن يعتذر منهم عن خطيئة الفوز الهائلة. وهكذا تابع تجواله في شوارع ريو من بار إلى آخر. وإلى الفجر كان يشرب وهو يعانق المهزومين.

1950: هوليود

ريتا

غيرت اسمها، ووزنها، وعمرها، وصوتها، وشفتيها، وحاجبيها وغزت هوليود. حُوِّلُ شعرُها من الأسود الباهت إلى الأحمر المتوهج. ومن أجل تعريض حاجبيها أزالوا الشعر بجهاز كهربائي. وضعوا فوق عينيها أهداباً كالتويجات.

تنكرت ريتا هيوارث كإلاهة، وربما كانت إلاهة - بالنسبة للأربعينيات على أي حال. أما الخمسينيات فقد كانت تتطلب شيئاً جديداً.

1950: هوليود

مارلين

حُسِّنت مارلين مثل ريتا. كان لها أهداب كثيفة وذقن ملتو، أنف مستدير في قمته، وأسنان كبيرة. قللت هوليود من السمنة، قمعت الغضروف، وبردت الأسنان، وحولت الشعر الكستنائي إلى شلال صغير من الذهب المتوهج. بعد ذلك عمدها التقنيون باسم مارلين مونرو واخترعوا لها قصة طفولة مشجية لكي ترويها للصحفيين.

لم تعد فينوس الجديدة، المصنعة في هوليود، تحتاج إلى التسلق إلى أسرة غريبة بحثاً عن عقود لتؤدي أدواراً في أفلام من الدرجة الثانية. لم تعد تعيش على اللحم المعلب والقهوة، أو تعاني من البرد في الشتاء. أصبحت نجمة، أو بالأحرى، شخصية صغيرة ترتدي قناعاً وتحب أن تتذكر تلك اللحظة حيث كان كل ما تريده هو أن تُنقَذ من الوحدة، لكنها لا تستطيع.

1951: مكسيكو سيتي

بونويل

أُمْطِرَ بونويل بالأحجار. أصرت جميع نقابات الصحافة والإعلام على أن تطرد من المكسيك ذلك الناكر للجميل الذي يرد الجميل بعمل شائن. رصد فيلم (المنسيون)، الذي أثار الاستياء الوطني، أحياء مكسيكو سيتي الفقيرة. كان المراهقون، الذين يعيشون على الكفاف في ذلك العالم السفلي المريع، يأكلون كل ما يصادفونه بما فيه بعضهم بعضاً، وملعبهم هو أكوام النفايات. يقطعون بعضهم إلى أشلاء، قطعة قطعة، تلك الطيور الطفلة الآكلة للجيف، وهكذا ينجزون المصير الأسود الذي اختارته لهم مدينتهم.

رنين غامض، قوة غريبة، يتردد صداها في أفلام بونويل. قرع طبول طويل وعميق، ربما طبول طفولته في كالاندا، يجعل الأرض ترتجف، حتى لو لم يسجل المدرج الصوتي ضجة، وتظاهر العالم بالصمت والنسيان.

1952: هضبة سان فرناندو

مريضة حتى الموت

مرضت كولومبيا حتى الموت منذ أن قتل غايتان Gaitan في شارع بوغوتا. في الجبال والسهول، البراري المتجمدة والأودية التي يتصاعد منها البخار - في كل مكان - كان الفلاحون

يقتلُ بعضهم بعضاً، فقراء ضد فقراء، الجميع ضد الجميع. سمح إعصار من عمليات الثأر والانتقام لبلاك بيلد وكلـو وطـرزان، تيـف ليـك وروتـش، وفنـاني ذبـح آخريـن، أن يتفوقـوا في تجارتـهم المختارة، لكن قوى النظام ارتكبت جرائم وحشية أخرى كثيرة. قتلـت كتيبـة توليمـا 1500، هـذا دون أن نحصي الإغتصابات والانتهاكات، حين سحقت المنطقة الممتدة بين بانتاميو وهضبـة سـان فرناندو. ولكي لا يتركوا بذرة يمكن أن ينمو منـها المسـتقبل، كـان الجنـود يقذفـون الأطفـال إلـى الأعلى ويطعنوهم بالحراب أو المناجل.

«*لا تسمعونا قصصاً، أديروا لنا آذاناً*»، قال الذين يصدرون الأوامر.

بحث الفلاحون الذين نجحوا في الـهرب عـن الحمايـة عميقـاً في الجبـال، تـاركين أكواخـهم المدخنة وراءهم. قبل أن يغادروا، وفي حفل حزين، قتلوا كلباً لأنه كان يصدر ضجة.

1952: لا باث

إل إيبماني El Illimani

على الرغم من أنك لا تستطيع أن تراه، فهو يراقبك. اختبئ أينما شئت، سيعرف مكـانك. لا ينجو منه مخبأ. تنتمي عاصمة بوليفيا إليه، رغم أنهم لا يعرفون ذلك، أولئك السادة الذين ظنوا، إلى البارحة، أنهم أسياد هذه المنازل وهذا الشعب. إل إيبماني، الملـك المتعجـرف، يغسـل نفسـه بالضباب. عند قدميه تبدأ المدينة نهارها. تنطفئ نيران المعسكرات، تسمع آخر زخات الرشاشات. قبعات المعدّنين الصفراء تغمر القبعات العسكرية. انهار الجيش الذي لم ينتصر مطلقاً على مـن هـم في الخارج ولم يخسر بتاتاً ضد من هم في الداخل. رقص البشـر في جميـع زوايـا الشـوارع. رفرفـت المناديل، والجدائل، وتموجت التنورات ذات الطبقات العديدة على إيقاع الكويكا Cueca.

وفي زرقة السماء المطلقة توهج تاج إل إيبماني المؤلف من ثلاث قمم: مـن القمـم المكللـة بـالثلج تتأمل الآلهـة أبناءها المسلحين، في نهاية هذا الصراع المتواصل، قدماً بعد قدم، عبر الشوارع الخلفية.

1952: لا باث

طبل الشعب

كان طبل الشعب الذي يتواصل قرعه، يجسد انتقام الهنود الذين ينـامون في السـاحة ككـلاب ويحيون السيد بركبة محنية: قاتل جيش الخاسرين بقنابل مصنوعة محلياً وبأصابع الدينـاميت، إلى أن سقطت في أيديهم، أخيراً، الترسانة العسكرية.

وعد فكتور باث إستنسورو أن بوليفيا، منذ هذا اليوم، ستكون للبوليفيين. رفع الهنود في المناجم العلم الوطني إلى منتصف السارية حيث سيبقى إلى أن ينجز الرئيس الجديد وعده في تأميم القصدير.

اعتقدوا في لندن أن الأمر سيحصل: وكأن الأمر بفعل السحر، انخفض سعر القصدير ثلثين.

في عزبة بيروماني، كان الهنود يشوون ثيران الغنيمة التي استوردها باتينو من هولندا. ساحات تنس أرامايو، المغطاة بغبار آجر من إنكلترا، حولت إلى زرائب للحمير.

امرأة من المناجم البوليفية

تقدم وصفة القنبلة المصنعة محليا

ابحث عن علبة حليب صغيرة. ضع الديناميت في وسطها تماما، ثم كبسولة. ثم ضع قطعا من الحديد، والخبث وقليلا من التراب، وغطيها جيدا. هكذا، أترى؟ أشعلها هنا تماما ثم اقذفها. إذا كان لديك مقلاع تستطيع أن تبعدها أكثر. زوجي يستطيع أن يقذفها مسافة ستة فراسخ، ولكي تبعدها ضع فتيلا أطول.

1952: كوشابامبا

صرخات السخرية والشكوى

كانت الأزمنة تتغير في كل الريف البوليفي: حدث تمرد كبير ضد الملكيات الكبيرة وضد الخوف. وفي وادي كوشابامبا، كانت النساء اللواتي يعبرن عن التحدي يرقصن ويغنين.

في طقوس تقديم التبجيل للمسيح، يشعل فلاحو الكيتشوا Quechua من الوادي كله الشموع، يشربون التشيتشا Chicha ، يغنون الأشعار، يثبون فرحا على ألحان الأكورديونات وCharangos، حول المصلوب.

تتوسل الفتيات الشابات إلى المسيح من أجل زوج لا يسبب لهن البكاء، ومن أجل حمار محمل بالذرة، وخروف أسود وخروف أبيض، وآلة خياطة، أو خواتم بعدد أصابع أزواجهن. فيما بعد يغنين بنغمة عالية، ودائما بلغة هندية، معبرات عن احتجاجهن. يعدن المسيح، والأب، والصديق بالحب والخدمة، على المائدة أو في السرير، لكنهن لا يردن أن يصبحن وحوش عبء محطمات بعد الآن.

يطلقن طلقات سخرية وهن يغنين لعين الفحل العاري التي تشبه عين الثور، الذي أنهكته الأعوام والحشرات، وينام أو يتظاهر بالنوم على الصليب.

أشعار شائنة تغنيها النساء

المنديات في كوشابامبا ليسوع المسيح

أيها الأب الصغير
دائما تقول لي انضمي إلى القطيع يا ابنتي
لكن كيف تكون أبا لي

وليس لك عضو؟

توبخني قائلاً: كسولة، كسولة
أيها الأب الصغير، أيها الصليب المقدس
انظر إلى نفسك: ألست عاجزاً وكسولاً
وأنت تقف هناك دون حراك.

ثعلب صغير بذيل وخصلات
عينان كرويتان تتجسسان على النساء،
عجوز صغير بوجه هادئ
وأنفك مليء بالثقوب.

لن تصبر عليَّ دون زواج،
تحكم عليَّ أن أحمل أطفالاً،
أكسوهم وأغذيهم بينما هم أحياء
وأدفنهم بشكل لائق حين يموتون.

هل سترسل إليَّ رفيقاً
يضربني ويرفسني؟
لماذا كل وردة متفتحة
يجب أن تعاني مصير الذبول نفسه؟

1952: بوينس آيرس

الشعب الأرجنتيني يشعر بأنه عار بدونها

يحيا السرطان! كتبت يد ما على حائط في بوينس آيرس. كرهوها، يكرهونها، المغذون جيداً ـ لأنها فقيرة، وامرأة، ومتجرئة. تحدتهم أثناء الحديث، وأساءت إليهم في الحياة. ولدت لتكون خادمة، أو ممثلة في الميلودرامات الرخيصة، رفضت إيفيتا أن تحفظ دورها.

أحبوها، يحبونها، غير المحبوبين ـ من خلال فمها عبروا عن عقولهم ولعناتهم. كانت إيفيتا الحورية الشقراء التي عانقت المجذومين ومرتدي الأسمال وأراحت اليائسين. كانت نبعاً، لا قاع له، يتدفق وظائف ومخدات، أحذية وآلات خياطة، فكوكاً وجهاز أعراس. كان الفقراء يتلقون تلك الصدقات على باب جانبي، بينما ترتدي إيفيتا مجوهرات مذهلة ومعاطف من فرو المنك في

منتصف الصيف. هذا لا يعني أنهم حسدوها على الترف: وإنما احتفلوا به. لم يشعروا بأنهم أذلوا وإنما بالانتقام من خلال زيها الملكي.

أمام جسد إيفيتا، المحاط بالقرنفل الأبيض، يصطف البشر ويبكون. يوماً بعد يوم، ليلاً بعد ليل، صف المشاعل: موكب استمر أسبوعين.

أصدر أصحاب البنوك، ورجال الأعمال، ومالكو الأراضي تنهيدة ارتياح. بموت إيفيتا أصبح الرئيس بيرون سكيناً دون شفرة.

1952: في أعالي البحار

مطلوب: شارلي المتسكع

أبحر شارلي شابلن إلى لندن. في اليوم التالي من رحلته؛ وصلت الأنباء إلى السفينة أنه لا يقدر أن يعود إلى الولايات المتحدة. طبق النائب العام على حالته قانوناً يستهدف الأجانب المشكوك بأنهم شيوعيون أو فاسدون أو مجانين.

قبل ذلك بسنوات حقّقَ مع شابلن مسؤولون من الإف بي آي وقسم الهجرة والتهيئة:

هل أنت من أصل يهودي؟

هل أنت شيوعي؟

هل سبق ومارست الزنى؟

وافق السيناتور ريتشارد نيكسون وكاتبة عمود الثرثرة هيدا هوبر: *يشكل شابلن تهديداً لمؤسساتنا*. الصالات الخارجية التي تعرض أفلامه، رابطة آداب السلوك، والرابطة الأميركية، سيجت باللافتات التي تقول: *اذهب إلى روسيا يا شابلن*.

بحثت الإف بي آي، لمدة ثلاثين عاماً، عن دليل يؤكد أن شارلي شابلن يهودي اسمه اسرائيل ثونشتاين ويعمل كجاسوس لموسكو. وأثيرت شبهاتهم في 1923 حين نشرت *البرافدا* هذا التعليق: *إن شابلن ممثل يمتلك موهبة لا يشك بها*.

1952: لندن

الشبح الذي يثير الإعجاب

عاد شبح يثير الإعجاب يدعى كيتون إلى الشاشة بفضل شارلي شابلن. افتتح فيلم لايم لايت في لندن، وفيه توحد كيتون، للحظات قليلة وثمينة، مع شابلن في فصل مزدوج سخيف سرق العرض.

هذه هي المرة الأولى التي عمل فيها كيتون وشابلن سويةً. ظهرا شائبي الشعر ومليئين بالتجاعيد، بنفس البهجة كما في تلك اللحظات منذ زمن بعيد، حين جعلا الصمت أطرف من الكلام.

لا يزال شابلن وكيتون هما الأفضل. يعرفان أنه ليس هناك شيءُ أكثر جدية من الضحك، الفن الذي يتطلب عملاً لا ينتهي، وأنه طالما أن العالم يدور، فإن جعل الآخرين يضحكون هو النشاط الأكثر روعة.

1953: واشنطن

الجريدة السينمائية

فجرت الولايات المتحدة القنبلة الهيدروجينية الأولى في إينيويتوك. عيّن الرئيس أيزنهاور تشارلز ويلسون وزيراً للدفاع. ويلسون، المدير في جنرال موتورز، صرح مؤخراً: *ما هو جيد لجنرال موتورز جيد لأميركا*.

بعد محاكمة طويلة، أعدم إيثيل Ethel وروزنبرغ على الكرسي الكهربائي بعد أن اتهما بالتجسس لصالح روسيا وأنكرا التهمة إلى النهاية.

حضت مدينة موسكو الأميركية موسكو السوفييتية على تغيير اسمها. ادعت سلطات هذه المدينة الصغيرة في إداهو الحق الحصري بأن يلقبوا بالموسكوفيين، وطالبوا بأن يُغَيَّرَ اسم العاصمة الروسية من أجل *تجنب أية تداعيات مزعجة*.

دعم نصف سكان الولايات المتحدة، بشكل حاسم، حملة السيناتور مكارثي ضد التسلل الشيوعي إلى الديموقراطية، وفقاً لاستطلاعات الرأي.

أحد المشتبه بهم، والذي خطط مكارثي للتحقيق معه، هو المهندس ريموند كابلان، رمى نفسه أمام شاحنة وانتحر.

ناشد العالم ألبرت آينشتاين المفكرين أن يرفضوا الإدلاء بشهاداتهم أمام لجنة النشاطات غير الأميركية وأن يستعدوا للسجن أو للدمار الاقتصادي. آمن آينشتاين *أن المفكرين إذا فشلوا في ذلك فإنهم لا يستحقون سوى العبودية التي تخطط لهم*.

1953: واشنطن

صيد الساحرات

ألبرت آينشتاين الفاسد، وفقاً لقائمة السيناتور مكارثي، رفيق *طريق أميركا* في المقام الأول. لكي تدخل القائمة كل ما عليك أن تفعله هو أن يكون لك أصدقاء سود، أو أن تعارض إرسال القوات الأميركية إلى كوريا، لكن حالة آينشتاين هي أكثر ثقلاً. امتلك مكارثي دليلاً بأن ذلك اليهودي يمتلك قلباً يميل إلى اليسار ويضخ دماً أحمر.

غرفة الإصغاء، حيث تشتعل نيران محكمة التفتيش، أصبحت سيرك شهرة. ليس آينشتاين الاسم الوحيد الذي تردد صداه هناك. ذلك أن لجنة النشاطات غير الأميركية وضعت عينها على

هوليود. طلبت اللجنة أسماء، وأسماء هوليود تسبب فضيحة. أولئك الذين رفضوا الكلام فقدوا وظائفهم وتحطمت مهنهم، أو سجنوا مثل داشييل هاميت، أو فقدوا جوازات سفرهم مثل ليليان هيلمان وبول روبيسون، أو طردوا من البلاد مثل سيدريك بيلفريج. كان رونالد ريغان، الشخصية البارزة الثانوية، يشم الحمر والقرنفليين الذين لا يستحقون أن ينقذوا من غضب هرمجدّون[1] Armageddon. رجل آخر بارز، يدعى روبرت تيلور، تاب علنياً لأنه مثل في فيلم ابتسم فيه الروس. واعتذر الكاتب المسرحي كليفورد أوديتز عن أفكاره وخان رفاقه القدماء. الممثل خوسيه فيرير والمخرج إليا كازان أشارا بأصابعهما إلى زملائهما. ولكي يفصل نفسه عن الشيوعيين بشكل كامل، صنع كازان فيلماً عن القائد المكسيكي إمليانو زاباتا لم يكن فيه زاباتا الفلاح الصامت الذي طبق الإصلاح الزراعي، وإنما مشعوذٌ يطلق الرصاص والخطابات في إسهال لا يتوقف.

1953: واشنطن

صورة صياد ساحرات

مادته الخام هي الخوف الجماعي. يطوي كميه ويذهب إلى العمل. الجابل الماهر لهذا الصلصال، جوزف مكارثي يحول الخوف إلى ذعر والذعر إلى هستريا.

بإلحاح حضهم على الخيانة. أقسم أنه لن يطبق فمه طالما أن بلاده مصابة بالطاعون الماركسي. بالنسبة إليه كل الغموض يحتوي على مسحة جبن. أولاً يتهم ثم يحقق. يبيع الحقائق للمترددين، ثم يضرب بعنف، بركبة على الخصيتين أو سكين على البطن، أي شخص يشكك بحقوق الملكية الخاصة أو يعارض الحرب ومشاريع الأعمال كالعادة.

1953: سياتل

روبيسون

منعوه من السفر إلى كندا، أو إلى أي مكان آخر. حين دعاه بعض الكنديين غنى لهم بول روبيسون على الهاتف من سياتل، ومن خلال الهاتف أقسم أنه سيصمد طالما هناك نَفَس في جسمه.

روبيسون، حفيد العبيد، يعتقد أن أفريقيا هي مصدر الكبرياء وليست حديقة حيوانات يديرها طرزان. أسود بأفكار حمراء، وصديق الصفر الذين يقاومون الغزو الأبيض في كوريا، كان يغني باسم شعبه المهان وباسم جميع الشعوب المهانة التي يجعلها الغناء ترفع رأسها. كان يغني بصوت مليء بسماء مرعدة وأرض مزلزلة.

---

[1] الموضع الذي ستجري فيه المعركة الفاصلة بين قوى الخير أو قوى الشر، معركة فاصلة كبرى ـــ المورد.

1953: سانتياغو دي كوبا

فيديل

في فجر 26 تموز هاجمت حفنة من الشبان ثكنة مونكادا. كانوا مسلحين بالكرامة والثقة الكوبية بالنفس، وببضع بنادق صيد، وهاجموا دكتاتورية فولخنثيو باتيستا Fulgencio Batista ونصف قرن من الاستعمار المتنكر كجمهورية.

مات البعض في المعركة، ولكن الجيش قتل أكثر من سبعين بعد أسبوع من التعذيب. قلع الجلادون عيني آبيل سانتاماريا بين آخرين.

الزعيم المتمرد، الذي أسر، قدم التماسه الدفاعي. كان فيديل كاسترو يمتلك صورة الرجل الذي يمنح نفسه دون مقابل. أصغى القضاة إليه مندهشين، دون أن يفوّتوا كلمة. وكلماته، على أي حال، ليست للذين تقبلهم الآلهة، إنه يتحدث من أجل الذين بالت عليهم الشياطين، ولهم، وباسمهم، شرح ما قام به.

أعلن فيديل كاسترو حق التمرد القديم ضد الطغيان: «*ستغوص هذه الجزيرة في المحيط قبل أن نقبل بأن نكون عبيد أي شخص...*»

رفع رأسه كشجرة، واتهم باتيستا وضباطه بتبديل بذلاتهم بعباءات سفاحين، ووضع برنامجاً للثورة. يمكن أن يكون هناك في كوبا طعام وعمل للجميع، والكثير الذي يمكن توفيره.

«*كلا، ليس هذا غير قابل للتخيل.*»

1953: سانتياغو دي كوبا

المتهم يكسب المدعي العام

ويعلن: «التاريخ سيغفر لي»

ما لا يمكن تصوره هو أنه ينبغي أن يكون هناك بشر يذهبون إلى النوم جائعين بينما يبقى إنش من الأرض دون زراعة، ما لا يمكن تصوره أنه ينبغي أن يكون هناك أطفال يموتون دون عناية طبية، أن ثلاثين بالمائة من فلاحينا لا يعرفون أن يكتبوا أسماءهم، وتسعة وتسعين بالمائة لا يعرفون تاريخ كوبا، أن معظم الأسر في ريفنا تعيش في ظروف أسوأ من تلك التي وجد كولبوس الهنود يعيشون فيها حين اكتشف أجمل بلاد سبق أن رأتها عينا إنسان...

من بؤس كهذا لا يمكن أن يحرر المرء نفسه إلا بالموت، وفي هذا لا تساعدهم الدولة. تسعون بالمائة من الأطفال الريفيين تلتهمهم ديدان تدخل من التراب عبر أظافر أرجلهم الحافية.

أكثر من نصف أفضل الأراضي الزراعية هي في أيد أجنبية. في أورينتي Oriente، الإقليم الأكبر، تمتد أراضي شركة يونايتد فروت وشركة ويست إنديان من الساحل الشمالي إلى الساحل الجنوبي...

لا تزال كوبا مصنعاً ينتج مواد أولية. السكر يُصدّر من أجل استيراد السكريات، ويُصَدَّر الجلد من أجل استيراد الأحذية، ويُصدَّر الحديد من أجل استيراد المحاريث...

1953: بوسطن

يونايتد فروت

عرش الموز، تاج الموز، موز ممسوك كصولجان: سام زيموري، سيد أراضي وبحار مملكة الموز، لا يعتقد أنه من المكن أن تسبب له أراضيه الغواتيمالية المُقتطَعَة صداعاً. «*الهنود جاهلون جداً بالماركسية*»، اعتاد أن يقول وكانت تصفق له حاشيته في قصره الملكي في بوسطن، ماساتشوسيتس.

وبفضل المرسومات المتعاقبة لمانويل إسترادا كابريرا، الذي كان يحكم محاطاً بالمتملقين الذليلين والجواسيس، وببحار من اللعاب، وغابات من المألوفين، وبخورخي أوبيكو، الذي كان يعتقد أنه نابليون لكنه لم يكن، بقيت غواتيمالا جزءاً من أملاك يونايتد فروت الشاسعة لنصف قرن. استطاعت يونايتد فروت في غواتيمالا أن تسيطر على ما تشاء من الأراضي ـ قطع أرض ضخمة غير مستخدمة ـ وامتلكت سكة الحديد، الهاتف، التلغراف، الموانئ، السفن، هذا إذا لم نذكر الجنود، والسياسيين، والصحفيين.

بدأت مشكلات سام زيموري حين أجبر الرئيس خوان خوسيه أريبالو الشركة على أن تحترم الاتحاد وحقه بالإضراب. ومن سيء إلى أسوأ: أدخل رئيس جديد، هو جاكوبو أربينث، الإصلاح الزراعي وسيطر على أراضي يونايتد فروت، غير المحروثة، ووزعها على مائة ألف أسرة، وتصرف كأن غواتيمالا يحكمها الذين لا يملكون أرضاً، غير المتعلمين، الجائعون، *الأقل*.

1953: غواتيمالا سيتي

أربينث

زأر الرئيس ترومان حين بدأ العمال في مزارع الموز في غواتيمالا يتصرفون كبشر. وبصق الرئيس الجديد ناراً بسبب تجريد يونايتد فروت من أملاكها.

اعتبرت الولايات المتحدة أن سيطرة حكومة غواتيمالا على دفاتر أرصدة يونايتد فروت إساءة. اقترح أربينث أن يدفع، كتعويض، القيمة نفسها التي وضعتها الشركة على أراضيها لتحتال على قوانين الضرائب. لكن وزير الخارجية جون فوستر دالاس طلب أكثر من ذلك بخمسة وعشرين مرة.

أخذ جاكوب أربينث، المتهم بالتآمر مع الشيوعيين، إلهامه من أبراهام لنكولن وليس من لينين. إصلاحه الزراعي، محاولته لتحديث الرأسمالية الغواتيمالية، أقل جذرية من القوانين الريفية الأميركية الشمالية التي وضعت منذ نصف قرن تقريباً.

1953: سان سلفادور

ديكتاتور مطلوب للعدالة

عاش الجنرال الغواتيمالي ميغيل يديغوراس فوينتيس، القاتل البارز للهنود، في المنفى منذ سقوط الديكتاتور أوبيكو. جاء والتر تيرنبل إلى سان سلفادور ليعرض عليه صفقة. تيرنبل، ممثل كل من يونايتد فروت والسي آي إيه، اقترح أن يتولى يديغوراس مسؤولية غواتيمالا. وهناك نقود متوفرة لمشروع كهذا، إذا وعد بأن يدمر النقابات، ويعيد أراضي يونايتد فروت وامتيازاتها، ويدفع هذا الدين، إلى آخر سنت، في فترة معقولة. طلب يديغوراس وقتاً ليفكر بالموضوع فيما أوضح أن الشروط استغلالية.

بمثل لمح البصر انتشر خبر بأن هناك منصباً فارغاً. طار الغواتيماليون المنفيون، العسكريون والمدنيون، إلى واشنطن ليقدموا خدماتهم. قرع آخرون أبواب السفارات الأميركية. عرض خوسيه لويس أريناس، «صديق» نائب الرئيس نيكسون، أن يطيح بالرئيس أربينث مقابل مائتي ألف دولار. قال الجنرال فيديريكو بونس أن لديه جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف رجل جاهزين للهجوم على القصر الرئاسي. أجره سيكون معقولاً، رغم أنه يفضل ألا يتحدث الآن عن الأرقام. فقط تقدم صغير...

قضى سرطان الحنجرة على خيار شركة يونايتد فروت: خوان كوردوبا ثيرنا. على فراش موته، على أي حال، لفظ الدكتور كوردوبا، بصوت خشن، اسم مرشحه: العقيد كارلوس كاستيو أرماس، المدرب في حصن ليفينوورث بكانساس، وهو حمار رخيص ومطيع.

1954: واشنطن

الآلة المقررة قطعة قطعة

دوايت أيزنهاور: رئيس الولايات المتحدة. أطاح بحكومة محمد مصدق في إيران لأنها أممت النفط. وقد أصدر الآن الأوامر للإطاحة بحكومة جاكوبو أربينث في غواتيمالا.

سام زيموري: مالك الأسهم الرئيسي في يونايتد فروت. جميع اهتماماته تتحول آليا إلى تصريحات لحكومة الولايات المتحدة، وفي النهاية إلى بنادق، مدفعية هاون، ورشاشات، وطائرات سي آي إيه.

جون فوستر دالاس: وزير الخارجية الأميركي. محام سابق ليونايتد فروت.

آلان دالاس: مدير وكالة الاستخبارات المركزية، شقيق جون فوستر دالاس. ومثلـه قـام بعمـل قانوني ليونايتد فروت. ومعاً نظّما «العملية غواتيمالا» ـ *أوبريشن غواتيمالا* .

جون مورز كابوت: وزير الخارجية للشؤون الأميركية الداخلية، شقيق تومـاث كـابوت مديـر يونايتد فروت.

والتر بديل سميث: وكيل وزارة الخارجية، خدم كضابط ارتباط في العملية غواتيمـالا. العضـو المستقبلي لمجلس إدارة يونايتد فروت.

هنري كابوت لودج: عضو مجلس الشيوخ، ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة. مساهم في يونايتد فروت. تلقى في مناسبات عديدة نقـوداً مـن تلـك الشـركة مـن أجـل خطابـات في مجلـس الشيوخ.

آن ويتمان: سكرتيرة شخصية للرئيس أيزنهاور، متزوجة من مدير العلاقات العامة في يونـايتد فروت.

سبرويل برادين Spruille Braden: سفير أميركي سابق في عدة بلدان أميركيـة لاتينيـة. تلقـى مرتباً من يونايتد فروت منذ 1948. قيل عنـه كثـيراً في الصحافـة أنـه حـضَّ أيزنـهاور علـى *قمـع الشيوعية بقوة في غواتيمالا* .

روبرت هل: سفير أميركا إلى كوستاريكا، تعاون في «العملية غواتيمالا». العضـو المسـتقبلي في مجلس إدارة يونايتد فروت.

جون بيوريفوي: سفير أميركا إلى غواتيمالا، مشهور بلقب «سـفاح اليونـان» بسـبب خدمتـه الدبلوماسية السابقة في أثينا. لا يتحدث الإسبانية. الخلفية السياسية: مجلـس الشـيوخ، واشـنطن دي سي، حيث عمل مرة كعامل مصعد.

1954: بوسطن

آلة الكذب قطعةً، قطعةً

المحرِّك: الجلاد يصبح الضحية، والضحية تصبح الجلاد. أولئك الذين حضّروا لغزو غواتيمالا من هندوراس عزوا إلى غواتيمالا نية غزو هندوراس وكل أميركا الوسطى. قال جون مـورز كـابوت من البيت الأبيض: *من السهل رؤية مجسّات الكرملين*. حـذّر السـفير بيوريفـوي في غواتيمـالا: *لا نستطيع السماح بجمهورية سوفييتية بين تكساس وقناة بنما*. وكمنت خلف هذه الفضيحة شـحنة سلاح نقلت من تشيكوسلوفاكيا. منعت الولايات المتحدة بيع الأسلحة لغواتيمالا.

المسنّن الأول: قصفت الجمهور أنباء ومقالات، وتصريحات، ونشرات، وصور، وأفلام، وقصص، وعروض كوميدية عن الأعمال الشيوعية الوحشية في غواتيمالا. وجاءت تلك المادة التربويـة، التـي لم يُكشف أصلها، من مكاتب يونايتد فروت في بوسطن ومن المكاتب الحكومية في واشنطن.

المسنن الثاني: حض كبير أساقفة غواتيمالا، ماريانو موسيل أريانو، السكان لينتفضوا ضد الشيوعية، عدوة الله والوطن. أمطرت ثلاثون طائرة، أرسلتها السي آي إيه، رسالته الرعوية فوق البلاد كلها. لكبير الأساقفة صورة مسيح إسكيبولاس Esquipulas الشعبي، والذي سيعيّن قائداً للفرقة المحررة، التي جاءت إلى العاصمة.

المسنن الثالث: في المؤتمر الشامل لأميركا، ضرب جون فوستر دالاس الطاولة بقبضته وتلقى بركة منظمة الولايات الأميركية من أجل الغزو المعد. في الأمم المتحدة، حاصر هنري كابوت لودج مطالب جاكوبو أربينث للنجدة. الدبلوماسية الأميركية معبأة في جميع أنحاء العالم. تم الحصول على مشاركة إنكلترا وفرنسا مقابل التزام أميركي بالصمت إزاء القضايا الحساسة لقناة السويس، وقبرص، والهند الصينية.

المسنّن الرابع: لم يقدم طغاة نيكاراغوا، هندوراس، فنزويلا وجمهورية الدومينيكان معسكرات تدريب، محطات للبث الإذاعي، ومطارات لعملية غواتيمالا فحسب، وإنما أيضاً أسهموا في الحملة الدعائية. جمع سوموزا الأول وكالات الأنباء العالمية وعرض بعض المسدسات التي ختم عليها منجل ومطرقة. قال: إنها من غواصة روسية تم اعتراضها في الطريق إلى غواتيمالا.

1954: غواتيمالا سيتي

إعادة غزو غواتيمالا

لم تكن غواتيمالا تملك طائرات أو قوة دفاعية جوية، وهكذا قصف الطيارون الأميركيون البلاد بسهولة كبيرة.

نشر جهاز بث عملاق تابع لوكالة الاستخبارات المركزية، مركب على سطح السفارة الأميركية، الفوضى والذعر: أبلغت آلة الكذب العالم أن هذه هي إذاعة المتمردين، صوت التحرير، التي تذيع المسير المنتصر للعقيد كاستيو أرماس المعسكر في مزرعة تابعة ليونايتد فروت في هندوراس، والذي ينتظر الأوامر من آلة القرار.

حضرت حكومة أربينث المشلولة طقس انهيارها. وصل القصف الجوي إلى العاصمة وقصفت محطات الوقود. انحصر عمل الحكومة في دفن الموتى. عبر جيش المرتزقة، «جيش الله والوطن والحرية»، الحدود. لم يلق مقاومة. كان المال والخوف هما اللذان شرحا كيف استطاع زعماء غواتيمالا العسكريون أن يسلموا جنودهم دون إطلاق. حاول طبيب أرجنتيني في العشرينات من عمره، يدعى إرنستو غيفارا، أن ينظم، دون جدوى، الدفاع الشعبي عن العاصمة: لم يعرف كيف أو بماذا. تجولت ميليشيات مرتجلة في الشوارع دون سلاح. حين أمر أربينث في النهاية بفتح الترسانات، رفض ضباط الجيش أن يطيعوا الأمر. في أحد تلك الأيام المظلمة والحقيرة، تعرض

غيفارا لنوبة ربو واستياء، في يوم آخـر، في منتصف الليـل، وبعد أسبوعين من القصف، هبط الرئيس أربينث ببطء على درج القصر الوطني، عبر الشارع، والتجأ إلى السفارة المكسيكية.

1954: ماثاتينانغو

ميغيل في التاسعة والأربعين

حالما بدأت الطيـور تغرِّد، قبل ضوء الفجر الأول، شحذوا حرابهم، وبدأوا يقتربون من ماثاتينانغو بعدو خفيف، بحثاً عن ميغيل. كان الجلادون يضعون إشارة إكس على القائمة الطويلة للذين ستتم تصفيتهم، بينما كان جيش كاستيو أرماس يستولي على غواتيمالا. كان ميغيل رقم 5 على القائمة المطلوبة أكثر من غيرها، حكم عليه كونه أحمر ومثيراً للمتاعب أجنبياً. ومنذ وصوله هارباً من السلفادور، لم يتوقف لحظة واحدة عن إثارة العمال.

حرضوا الكلاب عليه. كانوا يهدفون إلى عرض جسمه متدلياً عن حصان على الطرقات، وحنجرته مذبوحة بمنجل. لكن ميغيل، الخبير جداً والحيوان العارف، ضاع في الغابة.

وهكذا حصلت الولادة العاشرة لميغيل مارمول في التاسعة والأربعين من عمره.

1954: غواتيمالا سيتي

الجريدة الإخبارية

صرّحَ كبير أساقفة غواتيمالا: «*أعجب بالوطنية المخلصة والحماسية للرئيس كاستيو أرماس.*»

وسط عرض مرعب للبربرة، تلقى كاستيو أرماس بركة السفير البابوي السيد جينارو بيرولينو.

هنأ الرئيس أيزنهاور زعماء وكالة الاستخبارات المركزية في البيت الأبيض: «*شكراً لكم جميعاً. لقد منعتم رأس جسر ساحلي سوفييتي في نصف كرتنا*».

كلّف مدير وكالة الاستخبارات المركزية، آلان دالاس، صحفياً من التايم بوضع دستور غواتيمالا الجديد.

نشرت التايم قصيدة لزوجة سفير الولايات المتحدة في غواتيمالا تقول إن السيد والسيدة بيوريفوي *متفائلان* لأن غواتيمالا لم تعد *شيوعية*.

في لقائه الأول مع السفير بعد النصر عبر الرئيس كاستيو أرماس عن قلقه حيال عدم كفاية السجون المحلية وغياب الزنزانات الضرورية لجميع الشيوعيين. وفقاً لقوائم أرسلتها وزارة الخارجية من واشنطن بلغ عدد الشيوعيين في غواتيمالا 72 ألفاً.

أقامت السفارة حفلة. غنى أربعمائة غواتيمالي، في تساوق، نغمات أغنية «راية النجوم والأشرطة[1]».

[1] – علم الولايات المتحدة الأميركية الحالي.

1954: ريو دي جانيــرو

خيتوليو

أراد أن يمحو ذكرى ديكتاتوريته الخاصة، أيـام الدولـة البوليسـية القديمـة والسـيئة، وهكـذا حكم، في أعوامه الأخيرة، البرازيل كما لم يفعل أحد من قبل.

وقف إلى جانب الأجير فأعلن حاصدو الفوائد الحرب على الفور.

ولكي يمنع البرازيل من أن تكون مصفاة للطهو، أوقف نزف الثروة. على الفور لجأ رأس المـال الأجنبي إلى التخريب الاقتصادي.

أعاد للبرازيل نفطها وطاقتها اللذين هما إرث وطني مثل الرايـة والنشـيد الوطنـي. ردّت قـوى الاحتكار التي أُسيءَ إليها، على الفور، بهجوم مضاد عنيف.

دافع عن سعر البن بدلاً من حرق نصف المحصول، كما جرت العادة. حالاً خفضت الولايـات المتحدة وارداتها إلى النصف.

في البرازيل، انضم صحفيون وسياسيون من جميع الألوان والمناطق إلى الكورس المفضوح.

حكم خيتوليو بارغاس بكرامة. حين أجبرَ على الانحناء، اختار كرامة الموت. رفـع المسـدس، سدد إلى قلبه وأطلق النار.

1955: مديين

نوستالجيا

مر عشرون عاماً على إعدام كارلوس كاردل حرقاً بالنار، وأصبحت مدينة مديـين الكولومبيـة، التي حدثت فيها المأساة، مكاناً للحج ومركزاً للعبادة.

أتباع كاردل معروفون بسبب قبعاتهم المائلة، بنطلوناتهم ذات الأشرطة، ومشيتهم المتأرجحـة. يملّسون شعرهم، ينظرون من زوايا أعينهم، ولهم ابتسامات ملتوية. ينحنون ويكنسون، وكأنهم في رقصة متواصلة، حين يتصافحون، يشعلون سيجارة، أو يلعبـون بعصـا البليـاردو. يمضـون الليلـة متكئين على حامل مصباح في الضاحية، يصفرون أو يدندنون التانغو التي تشرح أن جميـع النسـاء عاهرات عدا الأم، تلك العجوز المقدسة التي خصها الله بالمجد.

كان بعض المؤمنين المحليين، وبعض الزوار المتعبديـن مـن بوينـس آيـرس، يبيعـون تذكـارات الوثن. وعرض أحدهم أسناناً حقيقية لكاردل، حصل عليها في المكـان نفسـه الـذي انفجـرت فيـه الطائرة. باع أكثر من 1300 بمعدل 12 دولاراً لكل قطعة. كان هذا منذ بضـع سـنوات حـين وجـد أول من اشترى منه، وهو سائح من نيويورك، عضو نادي كاردل فان. حين يرى الزبون التذكـار، كيف يستطيع أن يقاوم دموعه؟

1955: أسنثيون

أعراض انسحاب

حين ارتكب الخطيئة التي لا تغفر ونشر قانون طلاق، رسمت الكنيسة إشارة الصليب المفقودة عليه، وبدأ الجيش بالتآمر، في وضح النهار، للإطاحة به.

احتفل بالأنباء في غرف الرسم وندبت في المطابخ: لقد سقط بيرون. دون مقاومة، غادر الأرجنتين إلى الباراغواي والمنفى.

كانت أيامه حزينة في أسنثيون. شعر بالهزيمة، والشيخوخة، والوحدة. ادعى أن تخليه منع موت مليون شخص. لكنه قال أيضاً إن الشعب لم يعرف كيف يدافع عن ما منحه له، أن الناكرين للجميل يستحقون أية مصائب تحل بهم، أنهم يفكرون ببطونهم، لا برؤوسهم أو قلوبهم.

في صباح ما كان بيرون يسر بمرارته لمضيفه، ريكاردو جايول، حين أغمض عينيه فجأة نصف إغماضة وهمس: «*كانت ابتسامتي تسبب لهم الجنون. ابتسامتي...*»

رفع ذراعيه وابتسم وكأنه كان على شرفة القصر، يحيي ساحة تغص بالحشود المبتهجة.

«*هل تحب ابتسامتي؟*»

نظر إليه مضيفه مشدوهاً.

«*خذها، إنها لك*»، قال بيرون. أخذها من فمه ووضعها في يد مضيفه ـ كان ذلك فكه.

1955: غواتيمالا سيتي

بعد عام من إعادة غزو غواتيمالا

زار ريتشارد نيكسون تلك الأرض المحتلة. حظرت الحكومة الجديدة نقابة عمال يونايتد فروت بالإضافة إلى 532 نقابة أخرى. حكم القانون الجنائي الجديد بالموت على أي شخص يدعو إلى الإضراب. حُظرت الأحزاب السياسية قانونياً. ألقيت كتب دوستويفسكي وكتاب روس آخرين في النار.

أنقذت مملكة الموز من الإصلاح الزراعي. هنأ نائب رئيس الولايات المتحدة الرئيس كاستيو أرماس. قال نيكسون: للمرة الأولى في التاريخ، حلت حكومة حرة مكان حكومة شيوعية.

1956: بوينس آيرس

قررت الحكومة أن البيرونية غير موجودة

بينما كان العسكر الأرجنتينيون يعدمون العمال على أكوام النفايات، قرروا أن بيرون غير موجود هو وإيفيتا والبيرونية. منع ذكر اسميهما أو أفعالهما. كان امتلاك صور لهما يعتبر جريمة. أما المقر الرئاسي فقد دُمِّر إلى آخر حجر، وكأن المرض كان معدياً.

ولكن ماذا عن جسد إيفيتا المحنط؟ كان الرمز الأكثر خطراً الذي يعبر عن غرور العامة الذين ساروا الهوينى في أروقة السلطة وكأنهم في منازلهم. وضع الجنرالات الجثة في صندوق كتب عليه: أجهزة راديو، ونفوه إلى مكان سري. قالت الشائعة إنه نفي إلى أوروبا، أو ربما إلى جزيرة في منتصف المحيط. أصبحت إيفيتا جسداً متجولاً يسافر، بشكل سري، عبر مقابر بعيدة، وقد طردها من البلاد جنرالات لا يعرفون ـ أو لا يريدون أن يعرفوا ـ أنها ترقد داخل الشعب.

1956: ليون

ابن سوموزا

غنى عازفو الموسيقى ورقص الراقصون: *سانتا مارتا، سانتا مارتا لديها قطار، في سانتا مارتا قطار لكن ليس فيها ترام*، وفي منتصف الأغنية والحفلة، قتل ريغوبيرتو لوبيث بيريث، الشاعر، الذي لا يملك أي شيء، مالك كل شيء، بأربع رصاصات.

حملت طائرة أميركية شمالية أناستاثيو سوموزا الذي يحتضر إلى مستشفى منطقة قناة بنما الأميركية الشمالية. دفنوه في نيكاراغوا، وسط طقوس أحياها أمير كنيسة.

استلم سوموزا الأول السلطة عشرين عاماً. وكان يرفع الحصار يوماً واحداً في كل ستة أعوام ليقيم الانتخابات التي تبقيه على العرش. أصبح لويس، الابن الأكبر والوريث، أقوى وأغنى رجل في أميركا الوسطى. من واشنطن هنأه الرئيس أيزنهاور.

انحنى لويس سوموزا أمام تمثال والده، البطل البرونزي الذي يعدو دون حراك في مركز ماناغوا نفسه. في ظل حافري الحصان ينشد النصيحة من مؤسس السلالة، المرشد إلى الحكومة جيدة، وناشر السجون والمشاريع، ثم يغطي المدفن التذكاري بالأزهار.

يد أحد ما، أي أحد، يد الجميع، تجنبت حذر الحارس وبسرعة خربشت هذه الكلمة على الضريح الرخامي: *هنا يرقد سوموزا، أكثر عفونة بقليل مما كان عليه في أثناء حياته*.

1956: سانتو دومنغو

في العام السادس والعشرين من عهد تروخيو

بيع شبيهه في الأسواق، بين النقوش الصغيرة للعذراء مريم، والقديس جورج، ومجترحي معجزات آخرين.

«*قديسون، قديسون رخيصون!*»

لم يكن هناك شيء دومينيكاني خارج قبضته. كان يملك كل شيء: الليلة الأولى للعذراوات، الأمنية الأخيرة للمحتضرين، البشر والأبقار، الأسطول الجوي، وسلسلة المواخير، طواحين السكر والطحين، معمل البيرة ومصنع السموم النشيط.

طيلة ستة وعشرين عاماً شغل تروخيو منصب نائب الله الرئاسي. كل أربعة أعوام، تبارك الانتخابات الديموقراطية هذه الصيغة: *الله وتروخيو*، تعلن الجدران.

في كتابها **تأملات أخلاقية**، الذي منحها لقب السيدة الأولى للآداب الكاريبية، قارنت دونا ماريا دي تروخيو زوجها مع السيد The Cid ونابليون بونابرت. دونا ماريا المثلثة، التي تمارس الربا في أثناء الأسبوع والتصوف أيام الأحد، قورنت بدورها مع القديسة تيريشا دي خيسوس من قبل النقاد المحليين.

بسيف السيد أو قبعة نابليون، يتوضع تروخيو أمام النحاتين. تزيد التماثيل عدده في البرونز والرخام، بذقن ليس له وبدون ذقنه الملتوي. آلاف التماثيل. عالياً على المناصب، يفرشخ تروخيو في الزوايا البعيدة لكل مدينة أو قرية، مراقباً. في هذه البلاد حتى الذبابة لا تتبرز إلا بإذن منه.

1956: هافانا

الجريدة الإخبارية

اعترض الجيش الكوبي حملة مسلحة قادمة من المكسيك، حاصر الغزاة، رشهم وقصفهم في مكان يدعى أليغريا دي بايو في إقليم أورينتي. بين الموتى الكثيرين كان فيديل كاسترو، قائد العصابة، والمحرض الشيوعي الأرجنتيني إرنستو غيفارا.

بعد الاستمتاع بإقامة طويلة في نيويورك، عاد إلى هافانا الدكتور إرنستو سارا، وزوجته الجذابة والرشيقة جداً، لولو، شخصيتا الدرجة الأولى في الدوائر الاجتماعية للعاصمة.

أيضاً وصل من نيويورك بنج كروسبي، المغني المشهور، الذي أعلن في المطار، دون أن ينزع معطفه الخفيف، أو قبعته الفرائية: «*جئت إلى كوبا لألعب الغولف*».

هافاني شاب، على وشك أن يفوز بالجائزة الكبرى «في مسابقة التلفزيون المدرسي» فشل في الإجابة على السؤال بعد الأخير. السؤال الأخير، الذي بقي دون أن يطرح، كان: ما اسم النهر الذي يعبر باريس؟

صف استثنائي من الأشخاص سيركض غدا في حلبة سباق ماريياناو.

1956: في سفوح سلسلة جبال مايسترا

اثنا عشر مجنونا

أمضوا أسبوعا بلا نوم، مكومين مع بعضهم كسمك السردين في علبة، تقيأوا، بينما كانت ريح الشمال تلعب، مبتهجة، بالقارب الصغير غرانما. بعد كثير من التأرجح في خليج المكسيك، نزلوا

في المكان الخطأ، وبعد بضع خطوات على الشاطئ حصدتهم نيران الرشاشات أحرقتهم القنابل الحارقة في مذبحة سقطوا جميعهم فيها. سأل الذين بقوا على قيد الحياة السماء عن توجيهات لكن النجوم اختلطت عليهم. ابتلعت المستنقعات حقائبهم الظهرية وأسلحتهم. لم يكن معهم طعام سوى قصب السكر وتركوا بقاياه الخائنة مبعثرة على الطريق. في لحظة غفلة خلطوا مياههم الطازجة المتبقية بماء البحر. ضاعوا وبحثوا دون هدف عن بعضهم بعضاً. أخيراً، وبالمصادفة، اكتشفت مجموعة صغيرة مجموعة أخرى على تلك المنحدرات، وهكذا اجتمع من جديد اثنا عشر شخصاً نجوا من المجزرة.

كان لدى أولئك الرجال، أو ظلال الرجال، سبع بنادق، قليل من الذخيرة المبللة، وما لا يحصى من الندوب والجراح. ومنذ أن بدأ الغزو لم يكن هناك خطأ لم يرتكبوه. ولكن في الليلة الظلماء تنفسوا هواء أكثر نقاء وقال فيديل، واقفاً في سفح سلسلة جبال مايسترا: «*لقد ربحنا الحرب مسبقاً. لقد سقط باتيستا.*»

1957: بنيدورم

البطاقات المعلّمة

كان هناك بين الليبراليين والمحافظين، اتفاق زوجيٌّ. على شاطئ من شواطئ المتوسط، وقّعَ سياسيو كولومبيا التسوية التي أنهتْ عشر سنوات من الإبادة المتبادلة. قدم الطرفان الرئيسيان لكل منهما عفواً. من الآن فصاعداً، سوف يتناوبان على الرئاسة ويوزعان الأعمال الأخرى.

سيقدر الكولومبيون على التصويت، لا على الانتخاب. سيأخذ الليبراليون والمحافظون أدواراً في السلطة، ليضمنوا حقوق الملكية والإرث التي أحضرتها أسرهم أو تلقتها كهدايا، في البلاد.

في هذه الاتفاقية بين الأثرياء لم يكن هناك أنباءٌ طيبة للفقراء.

1957: ماخاغوال Majagual

بيضة كولمبيا المقدسة

حرقوا البلدات وقتلوا الهنود، قطعوا الغابات ونصبوا الأسلاك الشائكة، ودفع أسياد الأرض الفلاحين إلى ضفاف النهر في هذا الإقليم الساحلي الكولومبي. مع ذلك رفض كثيرٌ من الفلاحين أن يخدموا كعبيدٍ في المزارع وبدلاً من ذلك أصبحوا صيادين ـ فنانين في جعل أسنانهم تصرّ وعاشوا على ما قدروا العُثور عليه. أكلوا الكثير من السلاحف وتعلموا منها: لا تفلت السلحفاة مطلقاً ما تمسك به في فمها وتعرف كيف تدفن نفسها على الشواطئ في الفصل الجاف حين تهددها النوارس. عاشوا بهذا وبمساعدة من الله.

بقي بعض الرهبان في تلك الأقاليم الحارة. هنا، على الشاطئ، لم يتلق أحد القداس بشكل جدي. كان كل من ليس مشلولاً يهرب من الزواج والعمل، وكان من الأفضل الاستمتاع بالخطايا السبع المهلكة، والانغماس في قيلولة لا تنتهي في أراجيح شبكية لا تنتهي. الله هنا شخص جيد، وليس زعيم شرطة حاقداً وعيّاباً.

كان مسيح جيغوا Jegua المضجر ميتاً ـ دمية محطمة لا تتعرق أو تنزف أو تجترح المعجزات. لم يزل أحد براز الخفاش عنه منذ أن هرب الكاهن بالفضة كلها. لكن سيدنا الأسود الصغير، السيد الأسود لسان بينيتو، المفعم بالحياة، المتعرق، والنازف ومجترح المعجزات، كان يقدم النصيحة لكل من يضربه بحب. كان القديسون المرحون الذين يظهرون على الشاطئ الكولومبي أحياء أيضاً ويحركون أذيالهم حين تسقط قبعة أو عصا في الجوار؟

في إحدى الليالي العاصفة، اكتشف بعض الصيادين وجه الله يتوهج في لمعان البرق، على حجر بحجم بيضة. مذاك احتفلوا بمعجزات القديس بيضة، رقصوا الكمبيا وشربوا نخبه.

أعلن كاهن ماخاغوال أنه سيذهب نحو النهر مع كتيبة من المقاتلين، ويرمي الحجر المدنّس في قاع النهر، ويحرق كوخهم المصنوع من ورق النخيل.

في المصلى الصغير، حيث تحتفل موسيقى حية بالقداس، يقف الصيادون ليحرسوا القديس بيضة، حاملين الفؤوس بأيديهم ليلاً ونهاراً.

1957: سكري Sucre

القديس لوثيو

حين أعلن كاهن ماخاغوال الحرب على القديس بيضة، طرد كاهن سكري القديس لوثيا من كنيسته، لأن قديسة أنثى لها عضو ذكري أمرٌ لمْ يُسمع به.

في البداية بدا كمثانة أو ورم على العنق، نما وانتفخ تحت الرداء الكهنوتي المقدس الذي كان يقصر كل يوم. تظاهر الجميع بأنهم لم يلاحظوا ذلك، إلى أن قال طفلٌ فجأة وبدون تفكير في أحد الأيام:

«القديس لوثيو له عضو!»

نفي القديس لوثيو ولاذ في كوخ غير بعيد عن المعبد الصغير للقديس بيضة. في الوقت المناسب، نصب الصيادون له مذبحاً، لأن القديس لوثيو شخص محب للمرح، جدير بالثقة، وينضم إلى حفلات عابديه، يصغي إلى أسرارهم، ويصبح سعيداً حين يأتي الصيد وتتقافز الأسماك.

هذا الذكر، الذي اعتاد أن يكون أنثى، لا يذكر بين القديسين المسجلين في تقويم بريستول، ولم يطوِّب بابا روما القديس بيضة. ولا القديس لوح الذي نزع من صندوق الصابون الذي عثرت فيه المرأة الغاسلة على العذراء مريم، أو القديس كلية، الكلية المتواضعة لبقرة رأى فيها الذابح تاج شوك المسيح. ولا القديس دومنغو بيدال...

1957: ضفاف نهر سينو Sinu

القديس دومنغو بيدال

كان قزماً ومشلولاً. سماه البشر القديس دومنغو بيدال لأنه عرف، بأحاسيسه الباطنية النبوية أين ضلّ حصانٌ ضائعٌ على هذا الساحل الكولومبي، وأي ديك سيفوز في المقارعة التالية، ولأنه لم يطلب شيئاً مقابل تعليم الفقراء القراءة والدفاع عنهم من الجراد والأسياد الجشعين.

لقبته الكنيسة ابن لوسيفر. قذفه كاهن من خارج قبره في مصلى تشيما Chima وكسر عظامه بفأس ومطرقة. انتهت بقاياه المحطمة إلى زاوية الساحة، وأراد كاهن آخر أن يرميها في القمامة. مات الكاهن الأول ميتةً أليمة، تحولت يداه إلى مخالب، واختنق الآخر متمرغاً في برازه.

مثل القديس بيضة، والقديس لوثيو، وكثير من زملائهما المحليين، بقي القديس دومنغو حياً وسعيداً بسبب حماسة سكان هذا الجوار الذين يحبون ـ إما في حالة الزواج أو خارجها ـ أو في حشد البشر الذين يشتركون في المعركة الضارية من أجل الأرض ومتع ثمارها.

كان القديس دومنغو بيدال يحمي العادة القديمة لقرويي نهر سينو، الذين يزور بعضهم بعضاً حاملين هدايا من الطعام. حمل سكان إحدى القرى إلى القرية الأخرى محفات محملة بالأزهار والطيبات من النهر وضفافه: أسماك مطهوة، قطع من سمك السلور، بيوض إغوانة، جوز هند بالأرز، جبن، مونغومنغو حلوة، وبينما كان متلقو الهدايا يأكلون، يغني المتبرعون ويرقصون حولهم.

1957: بينو ديل آغوا

كروسيتو

عرض باتيستا ثلاثمائة بيزو وبقرة مع عجل لكل من يحضر له فيديل كاسترو حياً أو ميتاً.

على الجانب الآخر من قمم جبال مايستيرا، كان رجال العصابات يتعرقون ويتكاثرون، يتعلمون بسرعةٍ قواعد الحرب في الأدغال، أن يفقدوا الثقة، أن يتحركوا ليلاً، ألا يناموا مطلقاً مرتين في المكان نفسه، وقبل كل شيء أن يصادقوا السكان المحليين.

حين وصل الاثنا عشر المتسخون الباقون على قيد الحياة إلى هذه الجبال، لم يكونوا يعرفون فلاحاً واحداً، ولم يعرفوا نهر يارا إلا من الأغنية التي كانت تذكره. بعد بضعة شهور انضم بعض الفلاحين إلى الصفوف المتمردة، وكانوا من الرجال الذين يقطعون القصب وقت الحصاد ثم يُتركون ليتضوروا جوعاً في مناطق مجهولة، أما الآن فقد أصبح رجال العصابات يعرفون هذه المناطق وكأنهم ولدوا فيها. يعرفون أسماء الأمكنة، وحين لا يعرفون، يطلقون عليها اسماً بطريقتهم الخاصة. منحوا جَدْول الموت اسمه لأن رجل عصابات فارّاً، أقسم هناك أن يقاتل حتى الموت.

آخرون ماتوا وهم يقاتلون، دون أن يقسموا حول أي شيء.

وهو يدخن في غليونه في أوقات الاستراحة، كان خوسيه دي لا كروث ـ كروسيتو ـ شاعر الجبال المتجول، يؤلف في مقاطع من عشرة أبيات التاريخ الكامل للثورة الكوبية. وبسبب عدم توفّر الورق حفظه في ذاكرته، لكنه أُخِذَ منه برصاصة، على مرتفعات بينو ديل آغوا في أثناء كمين قامت به شاحنات الجيش.

1957: إل أو بيرو El Uvero

ألميدا Almeida

زعم خوان ألميدا أن ثمة متعة في داخله تدغدغه باستمرار، تجعله يضحك ويقفز. متعة عنيدة جداً، إذا أخذ المرء بعين الاعتبار، أن ألميدا ولدَ فقيراً وأسود على هذه الجزيرة ذات الشواطئ الخاصة المغلقة في وجه الفقراء والسود لأنهم يلوثون المياه، وأنه، لجعل الأمور أكثر سوءاً، قرر أن يصبح مساعدَ بنّاء وشاعراً، وأنه، وكأن هذه ليست تعقيدات كافية، انخرط في الثورة الكوبية، وكأحد مهاجمي المونكادا حُكمَ عليه بالسجن والمنفى، وكان بحاراً في الغرانما قبل أن يصبح رجل عصابات، وكان قد تلقى لتوه رصاصتين ـ غير مهلكتين ولكن مزعجتين ـ في الرجل اليسرى وأخرى في الكتف، في أثناء الهجوم الذي استغرق ثلاث ساعات على ثكنة أوبيرو التي قرب الشاطئ.

1957: سانتياغو دي كوبا

صورة سفير إمبريالي

تلقى إيرل سميث، سفير الولايات المتحدة مفاتيح مدينة سانتياغو دي كوبا. وفيما كان الاحتفال يتواصل والخطب تنسكب، سُمِعَ صخبٌ من خلال الستائر. نظر السفير من النافذة، بوقار، ورأى نساء يقتربن، متشحات بالسواد، ويغنين النشيد الوطني ويصحن: «الحرية!» ضربهم رجال الشرطة بالهراوات.

في اليوم التالي، زار السفير القاعدة العسكرية الأميركية في خوانتنامو، ثم تجول في مناجم الحديد والنيكل التابعة لشركة فريبورت سيلفر، التي، وبفضل جهوده، أُعفيتْ لتوّها من الضرائب.

عبر السفير علناً عن قرفه من ضرب الشرطة، رغم معرفته أن الحكومة تمتلك الحق في الدفاع عن نفسها من الاعتداء الشيوعي. شرح مستشارون للسفير أن فيديل كان غير سويّ منذ طفولته، بعد أن سقط عن دراجة نارية متحركة.

اعتقد السفير، الذي كان بطلاً في الملاكمة أيام دراسته، أنه يجب الدفاع عن الجنرال باتيستا مهما كانت الكلفة. إذا بقي باتيستا في السلطة، يستطيع السياح أن يختاروا، من الصور التي تُسلّم لهم على الطائرة، خلاسيتهم الجميلة من أجل عطلة نهاية الأسبوع. هافانا مدينة أميركية

شمالية، مليئة برجال عصابات بذراع واحدة من نيفادا وبزعماء مافيا من شيكاغو، وبكثير من التلفونات لكي يطلبوا عشاء ساخناً ظريفاً في السفرة الجوية التالية إلى ميامي.

1957: إل هومبريتو

تشي

في وادي هومبريتو نصب المتمردون فرناً لإعداد الخبز، مطبعة تتألف من آلة نسخٍ قديمة، وعيادة تعمل في كوخ من غرفة واحدة. الطبيب هو إرنستو غيفارا، المعروف بـ «تشي»، الذي، بغض النظر عن كنيته، احتفظ ببعض العادات الأرجنتينية مثل المتة والسخرية. انضم هذا المتجول الأميركي إلى قوات كاسترو في المكسيك، حيث استقر بعد سقوط غواتيمالا ليكسب رزقه كمصور يأخذ بيزو مقابل الصورة الواحدة، وكبائع متجول لتذكارات صغيرة لعذراء غوادالوبّه.

في عيادة هومبريتو، كان تشي يعتني بالأطفال ذوي البطون المنتفخة، الذين يبدون كالأقزام، وبفتيات مسنات منهكاتٍ من ولادات كثيرة وطعام قليل جداً، ورجال فارغين وجافين كاليقطين، لأن البؤس أحال الجميع إلى مومياءات حيّة.

في العام الماضي، حين حصدت الرشاشات رجال العصابات الذين هبطوا حديثاً، كان على تشي أن يختار بين صندوق رصاص وصندوق أدوية. لم يكن قادراً على حمل الصندوقين فقرر أن يحمل صندوق الرصاص. والآن يداعب بندقيته التي من نوع تومسون، الأداة الجراحية الوحيدة التي يؤمن بها حقاً.

تشانا العجوز، الفلاحة التي من سلسلة جبال مايستر ا، تتذكر

العزيز المسكين تشي! كنت دائماً أراه بتلك اللعنة التي هي الربو وأقول: «آه، أيتها العذراء المقدسة!»

الربو يجعله هادئاً ويتنفس بصوت منخفض. تحل الهستريا ببعض المصابين بالربو، يسعلون ويفتحون أعينهم وأفواههم. لكن تشي كان يحاول أن يخفف من الربو. يرمي نفسه في زاوية ليهدئه.

لم يكن يحب الشفقة. إذا قلت: أيها المسكين! يمنحك نظرة سريعةً لا تعني شيئاً لكنها تعني الكثير.

اعتدت أن أسخن له قليلاً من الماء لأدلك صدره وأريحه. هو، المتملّق الكبير، سيقول: «آه يا حبيبتي». لكنه كان وغداً.

1958: ستوكهولم

بيليه

توهجت كرة القدم البرازيلية. رقصت وقامت برقصة واحدة. في مباريات كأس العالم في السويد، كان بيليه وغارينتشا هما بطلا العالم، وبرهنا أن أولئك الذين يشيعون أن السود لا يستطيعون اللعب في المناخ البارد هم مخطئون.

بيليه، النحيل كمدمة، الصبي تقريباً، ينفخ صدره ويرفع ذقنه ليخلق انطباعاً. إنه يلعب كرة القدم كما يمكن أن يلعبها الله، لو كرّس الله نفسه جدياً للعبة. كان بيليه ينظم موعداً مع الكرة في أي مكان، في أي زمان، ولم تقف في وجهه مطلقاً. يرسلها عالياً في الجو، تدور وتعود إلى قدمه، مطيعة، ممتنة، أو ربما مقيدة برباط قابل للتمدد. يرفعها بيليه، ينفخ صدره، وتتدحرج بنعومة على جسده. ودون أن يدعها تلمس الأرض ينقلها إلى القدم الأخرى وهو يقذف نفسه، راكضاً كأرنب بري، نحو المرمى. لا أحد يستطيع أن يلحق به، بوهقٍ أو رصاصة، إلى أن يترك الكرة، متلألئة، بيضاء، مشدودة إلى ظهر الشبك.

في الملعب وخارجه يعتني بنفسه. لا يضيع مطلقاً لحظة من وقته، ولا يترك بنساً يسقط من جيبه. حتى وقت متأخر كان يلمِّع الأحذية على رصيف المرفأ. لقد ولد بيليه كي يرتقي وكان يعرف ذلك.

1958: ستوكهولم

غارينتشا

يسبب غارينتشا الفوضى في لعبه مع الفرق الأخرى، دائماً يهدد بالاختراق. يدور، دورة كاملة، يبدو كأنه قادم، لكنه يكون ذاهباً. يتصرّف كأنه ذاهب، لكنه يكون قادماً. يسقط الخصوم المذهولون على مؤخراتهم وكأن غارينتشا كان يبعثر قشور الموز في الملعب كله. عند خط المرمى، بعد أن يخدعهم جميعاً، وبينهم حارس المرمى، يجلس على الكرة. المعجبون يستمتعون، المدراء يجنّون. غارينتشا، الطائر المبتهج، ذو الساقين المتقوستين، يلعب من أجل الضحك، لا الفوز، وفيما بعد ينسى النتائج. لا يزال يعتقد أن كرة القدم هي حفلة، وليست وظيفة أو عملاً. يحب أن يلعب دون أي مقابل، أو مقابل بعض زجاجات البيرة، على الشواطئ أو في الملاعب الرديئة الصغيرة.

له العديد من الأطفال، أطفاله وأطفال بشر آخرين. يشرب ويأكل وكأنه يفعل ذلك للمرة الأخيرة. كانت يده مفتوحة، يمنح كل شيء، ويفقد أية وظيفة يحصل عليها. ولد غارينتشا لكي يسقط، لكنه لم يعرف ذلك.

1958: سلسلة جبال مايبيسترا

الثورة هي أم أربع وأربعين لا تتوقف

فيما كانت الحرب تصل إلى أوجها، طبق فيديل كاسترو الإصلاح الزراعي في سلسلة جبال مايبيسترا تحت الرصاص. حصل الفلاحون على أراضيهم الأولى، هذا إذا لم نذكر طبيبهم الأول، معلمهم الأول، وقاضيهم الأول ـ وقيل إن هذه طريقة لإنهاء نزاع أقل خطراً من استخدام المدية.

وبدا أن جنود باتيستا العشرة آلاف لم يفعلوا أي شيء سوى أن يخسروا. كان الجيش المتمرد أقل عدداً بكثير، وفقير السلاح، لكن، تحته وفوقه، وفيه، وأمامه، وخلفه، هناك الشعب.

لقد بدأ المستقبل. شنَّ فيديل هجوماً أخيراً شمل كوبا من أولها إلى آخرها. في صفين، أحدهما بقيادة تشي غيفارا، والآخر بقيادة كاميلو ثيينفويخوس، هبط مائة وستون من رجال العصابات من الجبال لكي يفتحوا السهل.

1958: ياغواخي Yaguajay

كاميلو

تجنّب الصفان، بشكل سحري، القصف والكمائن، وضربا أحشاء الجزيرة وقطعا كوبا إلى نصفين بينما سيطر كاميلو ثيينفويخوس على ثكنة ياغواخي بعد أحد عشر يوماً من القتال ودخل تشي مدينة سانتا كلارا. فجأة اختفت نصف جزيرة باتيستا.

قاتل كاميلو ثيينفويخوس، الشجاع والجشع، بالسلاح الأبيض. كان يقتل جندياً من العدو، يمسك بندقيته في منتصف الجو دون أن يدعها تلمس الأرض. أخطأته الطلقات القاتلة مرات عديدة، ومرة كان على وشك أن يموت حين ابتلع جدياً صغيراً بعد يومين بلا طعام.

لكاميلو لحية وعرف نبي توراتي، ولكن حيث يجب أن يكون وجهه مغطى بالتجاعيد، كانت هناك ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن.

العمل العظيم الذي يفتخر به حدث في الجبال حين خدع طائرة عسكرية خفيفة داهناً نفسه باللون الأحمر للأيودين واستلقى هادئاً وذراعاه متصالبتان.

1959: هافانا

كوبا تستيقظ بدون باتيستا

استيقظت كوبا في اليوم الأول من العام بدون باتيستا. هبط الديكتاتور في سانتو دومنغو والتجأ عند زميله تروخيو. أما في هافانا، بالنسبة للجلادين السابقين، بدا الأمر فراراً جماعياً.

دبّ الهلع في السفير الأميركي إيرل سميث. سيطر على الشوارع الرعاع وبعض رجال العصابات المتسخين، طويلي الشعر، والحفاة، والذين هم عصابة لاتينية ترقص الغواغوانكو guaguanco، وتحدد الوقت بطلقات البنادق.

الرومبا[1]

الغواغوانكو guaguanco هي نوع من الرومبا، وكل كوبي محترم يضع الرومبا وراء حزامه، في السلام والحرب، وأي شيء بينهما. كان الكوبي، حتى وهو يقاتل، يرقص، وهكذا انضم الحشد إلى رقص الرصاص دون ثانية تفكير، واندفع الحشد خلف الطبول التي استدعته.

«*أنا أستمتع بها وإذا قبضوا علي سيكون الأمر سيئاً، على الأقل أنا أستمتع بها*».

كانت الموسيقى تندفع في الشوارع أو الساحات ولم يكن هناك شيء يوقف إيقاع الرومبا الذي يصدر عن الطبول أو الصناديق، وإذا لم يكن هناك طبول أو صناديق كان يقرع على الأجساد، أو في الهواء فحسب. حتى الآذان كانت ترقص.

1959: هافانا

صورة كازانوفا كاريبي

كان بورفريو روبيروزا، السفير الدومينيكاني، ينظر بمقت إلى المشهد المريع. لم يتناول في الصباح فنجان من القهوة. جردته الأنباء من شهيته. وبينما كانت دزينات من الخدم تحزم الصناديق وتغلق العلب والحقائب، أشعل روبيروزا سيجارة، وهو متوتر، ووضع أغنية مفضّلة في الفونوغراف: «ذوقي».

يقولون إن الشمس لا تغرب مطلقاً في سريره. كان رجل تروخيو في كوبا ساحراً مشهوراً للأميرات والوريثات، ونجمات السينما. يخدعهن بالإطراء ويعزف لهن Ukulele قبل أن يحبهن أو يضربهن.

وقال البعض إن سبب طاقته الهائلة هو حليب رضاعته، الذي جاء من حلمات السيرانات. أصر الوطنيون الدومينيكانيون أن سره هو إكسير رجولة يستخرجه تروخيو من نبتة البيغا بالو ويصدّره إلى الولايات المتحدة.

بدأت مهنة روبيروزا حين جعله تروخيو صهراً له، واستمرت، حين كان سفير الدومينيكان في باريس، من بيع التأشيرات لليهود الذين كان يضطهدهم هتلر، واكتملت بزواجه من المليونيرتين الكبيرتين دوريس ديوك وباربارا هتون. كانت رائحة النقود هي التي تثير كازانوفا الكاريبي، كما تثير رائحة الدم أسماك القرش.

---

[1] – رقصة كوبية زنجية تتميز بحركاتها العنيفة.

1959: هافانا

لم نربح سوى الحق بالبدء

لم نربح سوى الحق بالبدء، قال فيديل، الذي كان يتجه إلى المدينة على برج دبابة من سلسلة جبال مايسترا. شرح لحشد متدافع أن كل هذا، الذي يمكن أن يبدو كخاتمة، ليس إلا بداية.

كانت نصف أراضي كوبا غير محروثة. ووفقا للإحصائيات، كان العام الماضي هو الأكثر ازدهارا في تاريخ الجزيرة، لكن الفلاحين الذين لا يستطيعون أن يقرأوا الإحصاءات أو أي شيء آخر، لم يلاحظوا ذلك.

من الآن فصاعدا، سيصبح ديك مختلف، معلنا أن الإصلاح الزراعي والحملة ضد الأمية، هما المهمتان الأكثر إلحاحا كما في الجبال. ولكن قبل هذا، كان ينبغي الإطاحة بجيش من السفاحين. كان أسوأ الجلادين يتم صفهم على حائط. الذي كان يدعى، بشكل مناسب، «كاسر العظام» يغمى عليه في كل مرة تسدد عليه فرقة الإعدام. وكان عليهم أن يوثقوه إلى عمود.

1960: برازيليا

مدينة أو هذيان وسط لاشيء

رفعت البرازيل الستارة عن عاصمتها الجديدة. فجأة، ولدت برازيليا في صليب رسم على الغبار الأحمر للصحراء، بعيدا جدا عن الساحل، عن كل شيء، في نهاية العالم ـ أو ربما في بدايته.

بنيت المدينة بسرعة تسبب الدوار. طيلة ثلاث سنوات كانت كثيب نمال حيث اشتغل العمال والتقنيون ليلا ونهارا، وتقاسموا الأعمال، والطعام، والمأوى. ولكن حين انتهت برازيليا، انتهى وهم الأخوة العابر كذلك. أغلقت الأبواب: ليست هذه المدينة للخدم. سجنت برازيليا الذين شيدوها بأيديهم. كوموا في أكواخ تكاثرت، بنعمة من الله، على أطراف المدينة.

إنها مدينة الحكومة، منزل السلطة. لا بشر في ساحاتها، لا ممرات للسير عليها. برازيليا هي على القمر: بيضاء، مضيئة، تعوم إلى الأعلى، عاليا فوق البرازيل، محمية من أوساخها وحماقاتها.

أوسكار نيميير، مهندس قصورها، لم يحلم بها بتلك الطريقة. حين حصلت حفلة الافتتاح الكبيرة، لم يظهر نيميير على المنصة.

1960: ريو دي جانيـرو

نيميير Niemeyer

كان يكره الزوايا اليمنى والرأسمالية. ليس هناك شيء كثير يستطيع أن يفعله ضد الرأسمالية، لكن الهندسة الحرة، والحسية، والخفيفة كالغيوم لذلك الظالم، وعـاصر الفضـاء، انتصـرت علـى الزاوية اليمنى.

تخيّل نيميير المساكن البشرية علـى شـكل جسـد امـرأة، شـاطئ متعـرّج، أو ثمـرة اسـتوائية. تخيله، كذلك، على شكل جبل، هذا إذا انكسر الجبل في انحناء جميل إزاء السـماء، كمـا تفعـل جبال ريو دي جانيرو، التي صمّمها الله في ذلك اليوم حين أعتقد أنه نيميير.

1960: ريو دي جانيـرو

غيماراياس روسا Guimaraes Rosa

جسورة ومتموّجة، كانت كذلك، لغة غيماراياس روزا، الذي يبني المنازل بالكلمات.

أبدع ذلك المعلم الشكلاني، الدقيق كالبندول، وغير القادرٍ على عبور الشارع إذا جاء الضوء من أمامه، أعمالاً حميمة ومحبة. انفجرت المأساة بشكل وحشي عبر قصص وروايات الدبلومـاسـي ذي المهنة المبتسمة. كان ذلك البرجوازي المحافظ، الـذي يحلم بدخـول الأكاديميـة، ينتـهك جميـع القواعد الأدبية حين يكتب.

1960: أرتيـميسا

آلاف وآلاف من المناجل

كانت آلاف مؤلفة من المناجل تلوّح في الهواء، تصطدم، تشـتبك، تقـدم خلفيـة مـن الموسـيقى الحربية لخطاب فيديل ـ أو، بـالأحرى، للأغنيـة التـي يؤديـها علـى المنصـة. هنـا، في النهايـة الشرقية من الجزيرة، كان يشرح لعمال السكّر لماذا أممت حكومته شركة تيكساكو أويل.

لم تستجب كوبا لجميع الضربات المتعاقبة بذعر أو إذعان. رفضت وزارة الخارجية الأميركيـة أن تقبل الإصلاح الزراعي: وزعت كوبا العقارات التي تمتلكها الولايات المتحدة علـى الفلاحـين. أرسل أيزنهاور الطائرات لتحرق حقـول الـذرة وهـدّدَ بعـدم شـراء السـكّر الكوبـي: كسـرت كوبـا الاحتكار التجاري وقدمت للاتحاد السوفييتي السكر مقابل النفط. رفضت شركات النفط الأميركية أن تكرّر النفط السوفييتي فأممتها كوبا.

كل خطاب هو مسار. كان فيديل، طيلة ساعات، يسأل ويفكر، يعلّم ويتعلّم، يدافـع ويتـهم، بينما كانت كوبا تتلمّس طريقها إلى الأمام، وكل خطوة تخطوها هي بحث عن الطريق.

1961: سانتو دومنغو

في العام الواحد وثلاثين من عهد تروخيّو

كانت المثقّلة على مكتبه، وبين تماثيل كيوبيد المذهّبة يستلقي قفاز بيسبول خزفي. محاطاً بتماثيل نصفية لتروخيّو، كان تروخيو يفحص، بدقّة، القوائم الأخيرة للمتآمرين التي قدّمها جواسيسه. بنقرة محتقرة من إصبعه يعلّم على الأسماء، الرجال والنساء الذين لن يستيقظوا غداً، بينما ينتزع جلادوه أسماءً من سجناء يصرخون في قلعة أوثاما.

قدمت القوائم لتروخيّو سبباً للتأمل الحزين. كان الذي يقود المتآمرين عليه هو السفير الأميركي وكبير أساقفة الأنديز، الذي شاركه البارحة في حكومته. جحدت الإمبراطورية والكنيسة ولدهما المخلص، الذي أصبح غير قابل للتقديم أمام أعين العالم، ورفضتا يده السخيّة. آلمه كثيراً عدم امتنان كهذا من مؤلفي التطور الرأسمالي في جمهورية الدومينيكان. مع ذلك، من بين جميع الأوسمة التي تزيّن صدره، وبطنه وجدرانه، لا يزال تروخيّو يحب، بشكل أكبر، الصليب المهيب لنظام القديس غريغوري، الذي تلقّاه من الفاتيكان، والوسام الصغير، الذي، منذ سنوات طويلة، يشهد على الخدمات التي قدّمها للمارينز الأميركيين.

سيبقى حتى الموت خفير الغرب، رغم كل الأسى، هذا الرجل الذي لقّبَ نفسه المحسِن للوطن، مخلّص الوطن، أب الوطن، مستعيد الاستقلال المالي، بطل السلم العالمي، حامي الثقافة، أول عدوٍ للشيوعية في الأميركيتين، الجنرال الأبرز والأكثر تبجيلاً.

1961: سانتو دومنغو

الميت

ترك كوصية بلاداً بأكملها ـ بالإضافة إلى تسعة آلاف وستمائة ربطة عنق، ألفي بدلة، ثلاثمائة وخمسين بزة عسكرية، ستمائة زوج من الأحذية في خزنه في سانتو دومنغو، وخمسمائة وثلاثين مليون دولار في حساباته المصرفية الخاصة في سويسرا.

رافايل ليونيداس تروخيّو سقط في كمين، ثقب الرصاص سيارته. طار ولده رامفيس من باريس ليتولى مسؤولية الإرث، الدفن، والانتقام.

اكتسب رامفيس تروخيو، زميل وصديق برفريو روبيروزا، شهرةً معيّنة بسبب مهمة ثقافية إلى هوليود. هناك، عرض المرسيدس بينز ومعاطف فرو النمس لكيم نوفاك وZsa Zsa Gabor باسم الشعب الدومينيكاني الجائع، لكن الكريم.

1961: خليج الخنازير

ضد الريح

ضد الريح والموت، كانت تتقدم إلى الأمام، ولم ترجع القهقرى. بقيت الثورة الكوبية، بشكل فضائحي، حيةٍ على بعد ثماني دقائق طيران من ميامي.

لوضع حدٍ لهذه الإساءة، نظمّت وكالة الاستخبارات المركزية غزواً انطلق من الولايات المتحدة، غواتيمالا، ونيكاراغوا. رأى سوموزا الثاني الحملة من على رصيف المرفأ. في جيش التحرير الكوبي، الذي ركّبتْ وكالة الاستخبارات المركزية آلته، ودهنتها، وزيّنتْها، تعايش جنود ورجال شرطة من ديكتاتورية باتيستا مع ورثة مستعمرات السكر الذي أطيح بهم، والمصارف، والصحف، وكازينوهات القمار، والمواخير، والأحزاب السياسية.

أرشدهم سوموزا: «*أحضروا لي بعض الشعرات من لحية كاسترو!*»

دخلت طائرات أميركية، مموّهة ومزيّنةٌ بنجمة القوى الجوية الكوبية، أجواء كوبا. قصفت تلك الطائرات، التي كانت تطير على ارتفاع منخفض، البشر الذين حيّوها، ثم قصفت المدن. بعد عملية التمهيد هذه، هبط الغزاة، لسوء حظهم، في مستنقعات خليج الخنازير.

في غضون ذلك، كان الرئيس كينيدي يلعب الغولف في فرجينيا. أصدر أمر الغزو، لكن أيزنهاور هو الذي حرّك الخطة، ومنحها الضوء الأخضر حول المكتب نفسه حيث وافق على غزو غواتيمالا. أكّد له آلن دالاس، رئيس وكالة الاستخبارات المركزية، أن التخلّص من فيديل سيكون بسيطاً مثل التخلّص من أربينث. مسألة أسبوعين، أنقص أو أضف يوماً، حتى فريق السي آي إيه نفسه تولّى مسؤوليته. نفس الرجال، نفس القواعد. سيولّد هبوط المحرّرين عصياناً شعبياً على هذه الجزيرة الرازحة تحت قدم الطغيان الأحمر. هذا ما قالته تقارير جواسيس الاستخبارات الأميركية. انتظر شعب كوبا، المتخم من تشكيل الصفوف، إشارة الانتفاضة.

1961: بلايا خيرون Playa Giron

الهزيمة العسكرية الأميركية الثانية في أميركا اللاتينية

احتاجت كوبا إلى ثلاثة أيام فحسب للقضاء على الغزاة. كان بين الموتى أربعة طيارين أميركيين. هربت سفن أسطول الغزو السبع، التي رافقت البحرية الأميركية، أو غاصت في خليج الخنازير.

تحمل الرئيس كينيدي المسؤولية الكاملة لفشل السي آي إيه الذريع.

آمنت الوكالة، كما دائماً، بتقارير جواسيسها المحليين، الذين دفعت لهم لكي يقولوا ما يدفع إلى اليأس عند سماعه، وكما دائماً، خلطت الجغرافيا بخريطة عسكرية لا علاقة لها بالشعب أو التاريخ. كانت المستنقعات، التي اختارتها السي آي إيه للهبوط، البقعة الأكثر بؤساً في كوبا، وهي منطقة بقيت مملكة من التماسيح والبعوض إلى أن نشبت الثورة. حوّلت الحماسة البشرية تلك المستنقعات، ونقّطتها بالمدارس، والمستشفيات والطرقات.

كان البشر الذين هنا أول من تلقوا رصاص الغزاة الذين جاؤوا لإنقاذهم.

1961: هافانا

صورة الماضي

أجاب الغزاة ـ الطفيليون والجلادون، الأثرياء الشبان، متطوعو ألف جريمة ـ على أسئلة الصحفيين. لم يتحمل أحد مسؤولية بلايا خيرون، أو مسؤولية أي شيء. كانوا جميعهم طباخين.

عانى رامون كالبينو، الجلاّد المشهور لنظام باتيستا، من فقدان الذاكرة الكلي حين واجهته النساء اللواتي عذّبهن، أو رفسهنّ أو اغتصبهنّ، اللائي تعرّفن عليه وشتمنه. استحضر الأب إسماعيل دي لوغو، قسّيس فرقة الغزو، عذراء الملك، مالكة مصرف ما أو مزرعة مؤممة، التي كانت تفكر وتشعر كمثل السجناء الذين بلغ عددهم ألفاً ومئتين: هذا الحق هو حق الملكية والإرث، الحرية، حرية المشاريع، المجتمع النموذجي، الديموقراطية النموذجية، اجتماع لمالكي الأسهم.

عُلِّمَ جميع الغزاة أخلاق الحصانة. لم يعترف أحد أنه قتل أي شخص، لكن، البؤس كان مثلهم ولم يوقّع اسمه بالضبط على جرائمه أيضاً. سألهم بعض الصحفيين عن الظلم الاجتماعي، لكنهم غسلوا أيديهم منه، النظام يغسل يديه. في النهاية، كان الأطفال في كوبا ـ في جميع أنحاء أميركا اللاتينية ـ الذين يموتون حالاً بعد الولادة، يموتون من أمراض المعدة والأمعاء، وليس من الرأسمالية.

1961: واشنطن

من غزا كوبا؟

حوار داخل مجلس الشيوخ

السيناتور كيب هارت: *كم نملك من الطائرات؟*

آلن دالاس *(مدير السي آي إيه): كم كان الكوبيون يمتلكون؟*

السيناتور سباركمان: *لا، كم كان لدى الأميركيين؟*

دالاس: *حسناً، هؤلاء كوبيون.*

سباركمان: *المتمردون.*

دالاس: لا نسميهم متمردين.
كيبهارت: أعني، القوى الثورية.
كيبهارت: حين قال كم كان لدينا، كان يعني القوى المضادة لكاسترو.
ريتشارد م. بيسيل (نائب مدير السي آي إيه): بدأنا، يا سيدي، بست عشرة طائرة B- 26s

1961: هافانا

ماريا دي لا كروث

حالاً، بعد الغزو، اجتمع حشْدٌ كبيرٌ في الساحة ليصغي إلى فيديل وهو يعلن أنه ستتم مبادلة السجناء بأدوية للأطفال، ثم منح شهادات لأربعين ألف فلاح تعلّموا القراءة والكتابة.

ألحّت امرأة عجوز على الصعود إلى المنصّة، ألحّت، بقوة، إلى أن أصعدوها في النهاية. ضربت بلا جدوى على الميكرفون المرتفع جداً، إلى أن سلّمه فيديل لها.

«أردتُ أن أقابلك يا فيديل، أردت أن أخبرك...»

«انظري ستجعلينني أحمرٌ.»

لكن المرأة العجوز، المليئة بالتجاعيد، وذات العظام الصغيرة، لم تتوقف. قالت إنها تعلمت أخيراً القراءة والكتابة في سن المائة وستة أعوام. قدّمتْ نفسها. اسمها المسيحي هو ماريا دي لا كروث، لأنها ولدتْ في اليوم الذي ابتكر فيه الصليب المقدّس، كنيتها هي سيمانات، على اسم مزرعة السكّر التي ولدتْ فيها عبدةً، ابنة عبيد، حفيدة عبيد. في تلك الأيام كان السادة يرسلون العبيد، الذين يحاولون أن يتعلّموا، إلى المخلعة، كما شرحت ماريا دي لا كروث، لأنه كان من المفترض أن يكون السود آلات تعمل على صوت الجرس، وإيقاع السياط، ولهذا استغرق الأمر معها زمناً طويلاً كي تتعلّم.

احتلّتْ ماريا دي لا كروث المنصّة. بعد التحدّث، غنّتْ. مر أكثر من قرن منذ أن رقصتْ ماريا. خرجت من بطن أمها وهي ترقص وسافرت، وهي ترقص أيضاً، عبر الألم والرعب، إلى أن وصلتْ إلى هنا، حيث يجب أن تكون منذ زمن طويل. الآن لا أحد يستطيع أن يوقفها.

1961: بنتا ديل إيستي

دبلوماسية المرحاض

بعد الفشل الذريع للهبوط العسكري في كوبا، غيّرتْ الولايات المتحدة لحنها معلنةً هبوطاً شاملاً للدولارات في أميركا اللاتينية.

ومن أجل عزل ملتحي كوبا، غمر الرئيس كينيدي أميركا اللاتينية بسيل من التبرعات، والقروض، والاستثمارات.

«*إن كوبا هي الدجاجة التي باضت بيوضكم الذهبية*»، قال تشي غيفارا في المؤتمر الشامل لأميركا في بونتا ديل إيستي، داعياً برنامج الرشوة المقترح مزحة ضخمة على أميركا اللاتينية.

وهكذا كي لا يتغير أي شيء، أطلقت بلاغة التغيير. وصلت التقارير الرسمية للمؤتمر إلى مليون صفحة، لم تهمل أيٌّ منها أن تذكر «الثورة»، «الإصلاح الزراعي»، أو «التنمية». بينما خفضت الولايات المتحدة أسعار المنتجات الأميركية اللاتينية، وعدت بالمراحيض للفقراء، والهنود، والسود ـ لم تعد بآلات أو تجهيزات، وإنما بمراحيض فحسب.

قال تشي: «*بالنسبة للسادة التقنيين، التخطيط يرقى إلى تخطيط المراحيض. إذا أخذنا هذا على محمل الجد، يمكن أن تكون كوبا ... فردوس المرحاض!*»

1961: إسكوينابا

غزّال الحكاية

مرة أسرج نمراً وامتطاه ظاناً أنه حمار. مرة أخرى حزم بنطلونه بأفعى حيّة ـ لاحظ ذلك لأنه ليس لها إبزيم. صدقه الجميع حين شرح أنه لا تستطيع أية طائرة أن تهبط إذا لم ترش حبات الذرة على مدرج المطار، أو حين وصف حمّام دمٍ مرعباً في اليوم الذي جنَّ فيه القطار وبدأ يجري جانبياً. قال ويلي همبج كاذباً: «*أنا لا أكذب بتاتاً*».

ويلي، صياد القريدس عند مصبّات إسكوينابا، ثرثارٌ نموذجيٌّ في هذه المنطقة. إنه من السلالة الأميركية اللاتينية الرائعة لغزّالي الحكايات، سحرة الحديث الكاذب الذي يروى ولا يكتب مطلقاً.

في سن السبعين، لا تزال عيناه ترقصان. حتى أنه ضحك على الموت، الذي جاء في طلبه في إحدى الليالي.

توكن توك، توك... قرع الموت.

قال ويلي وهو في سريره: «ادخل، كنت في انتظارك.»

لكنه حين حاول أن ينزع بنطلونها، فرّت الموت مذعورة[1].

1961: سان سلفادور دي بايا

أمادو

بينما كان ويلي همبج يخيف الموت في المكسيك، كان الروائي جورج أمادو يبتكر في البرازيل قبطاناً يخيف العزلة ويبعدها. وفقاً لأمادو، كان ذلك القبطان يتحدى الأعاصير والوهج المستنقعي، ويتخطى الزلازل البحرية والزوابع السوداء، بينما يعالج جيرانه الفقراء بمشروبات معدّةٍ من وصفات ذئب بحري عجوز من هونغ كونغ.

---

[1] يلاحظ أن الكاتب يؤنث الموت.

حين تحطّمتْ سفينة القبطان عند سواحل البيرو، تحطم جيرانه أيضاً. حين رأى المسؤولون المتقاعدون والجبناء، المرضى من الضجر والروماتيزم، جبلاً من الجليد يتقدم نحو سفينتهم بعيداً عن منعطف المرفأ، في بحر الشمال الضبابي، أو ريح السموم التي تهبّ بعنف على بحر بينغال دب الهلع في قلوبهم. كان الجميع يرتعشون من المتعة حين يستحضر القبطان مرة أخرى الحسناء العربية التي تأكل حبات عنب ريّانة وهي ترقص على رمال الإسكندرية، عارية إلا من وردة بيضاء على سرّتها.

لم يغادر القبطان البرازيل مطلقاً، ولم يضع قدمه في أي نوع من أنواع القوارب، لأن البحر يمرضهُ. كان يجلس في غرفة الجلوس في منزله فيما المنزل يبحر إلى أبعد مما حلم به ماركو بولو أو كولمبوس أو رواد الفضاء.

1962: كوسالا

واحد زائد واحد يساوي واحداً

كانا مقيدين إلى العمود نفسه، مثقلين بالخشب الجاف، ينظران إلى بعضهما بعضاً. هو، بعشق، هي، بدوار. وبينما كان الحمار والأتان ينظران إلى بعضهما ويفكران ببعضهما، عبرت نساءٌ ورعات الساحة، متجهات نحو الكنيسة، وهن يرتدين ثياباً للصلاة. ولأن اليوم هو يوم الجمعة الحزينة كن يرتّلن قدّاسات نادبة لسيدنا يسوع المسيح، وهن يعبرن، متشحات بالسواد، بطرحات سوداء، وجرابات سوداء، وقفازات سوداء. دب فيهن الهلع حين فلت الحماران وركضا ليمتعا نفسيهما هناك، في الساحة، قبالة الكنيسة، الملحقة بقصر المدينة.

دوّتْ الصرخات عبر المكسيك. ظهر رئيس بلدية كوسالا، خوسيه أنطونيو أوتشوا، على الشرفة، أطلق صرخةً، وغطى عينيه. على الفور أمر بإطلاق النار على الحمارين المتمردين فسقطا ميتين، مقيدين معاً بالحب.

1962: بيا دي خيسوس ماريا

واحد زائد واحد يساوي الكل

في قرية جبلية أخرى ليست بعيدة جداً كان هنود الكورا Cora يرتدون الأقنعة ويصبغون أجسادهم العارية. وكما في كل جمعة حزينة، كانوا يطلقون على الأشياء أسماءً جديدة بينما يستمر الاحتفال ـ هوى المسيح، اصطياد الأيّل السحري، قتل إله الشمس، تلك الجريمة التي بدأت منها الحياة الإنسانية على الأرض.

«ليمت، ليقتل، لينجب.»

عند قدم الصليب، كان العشاق الراقصون يقدمون أنفسهم، يتعانقون، يدخلون بعضهم بعضاً، وبين الراقصين ينزلق المهرجون ويقلدونهم. ينضم الجميع إلى لعب الحب، يداعبون، يكركرون، يضايقون. يأكل الجميع وهم يلعبون: تصبح الثمار قذائف، البيض قنابل، وتنتهي الوليمة العظيمة بحرب من التورتيا المقذوفة والعسل المنسكب. يمتّع هنود الكورا أنفسهم كالمجانين، يرقصون، يحبون، يأكلون تبجيلاً للآلام الأولى للمسيح المحتضر. من مكانه على الصليب يعبر عن شكره بابتسامة.

1963: بايامو

الإعصار

ضرب الإعصار كوبا لأكثر من أسبوع. هاجم أطول إعصار في تاريخ الأمة وتراجع، ثم عاد وكأنه أدرك أنه نسي سحق بضعة أشياء أخيرة. دار كل شيء حول ذلك العملاق، الثعبان الهائج الذي كان يتلوّى ويضرب فجأة، حيث لا يتم توقّع ذلك.

لم ينفع إغلاق الأبواب والنوافذ بالمسامير. حصد الإعصار كل شيء، لعب بالمنازل والأشجار، وقذفهما في الجو. فرغت السماء من الطيور المذعورة، بينما غمر البحر الجزء الشرقي من الجزيرة. من قاعدة في بايامو، غامرت الألوية متقدمة بالمروحيات والهجمات، وكان المتطوعون يجيئون ويذهبون لإنقاذ البشر والحيوانات، ويحقنون كل ما يجدونه على قيد الحياة ويدفنون أو يحرقون ما تبقى.

1963: هافانا

كل شخص يتقن جميع الصنائع

على تلك الجزيرة التي دمرها الإعصار، وتحاصرها وتضغط عليها الولايات المتحدة، كانت متابعة اليوم عملاً فذّاً. عرضت واجهات المخازن ملصقات تضامن مع فييتنام وليس أحذية أو قمصاناً، ولكي تشتري أصغر شيءٍ، يجب أن تنتظر ساعات في صف. السيارة التي تأتي بالمصادفة تسير على حلقات البستون المصنوعة من قرون الثيران، وفي مدارس الفن كان الغرافيت[1]، الذي تصنع منه أقلام الرصاص، يطحن ليقارب الألوان. في المصانع، تغطي بيوت العنكبوت بعض الآلات الجديدة، لأن قطعة غيار معيّنة لم تكمل بعد رحلة الستة آلاف ميل لتصل إلى هنا. كان النفط وكل ما تحتاجه كوبا يأتي من موانئ بحر البلطيق البعيدة، أما رسالة إلى فنزويلا فيجب أن تدور حول العالم قبل أن تصل إلى وجهتها القريبة.

---

[1] – شكل من الكربون أسودُ طريّ تُصنع منه أقلام الرصاص.

وليست الأشياء هي المفقودة فحسب، ذلك أن كثيراً من المتعالمين ذهبوا إلى ميامي على غرار الأثرياء.

والآن؟

«الآن علينا أن نخترع».

في الثامنة عشرة، قام ريكاردو غوتييريث بعرض في هافانا رافعاً بندقيةً إلى الأعلى، وسط مدٍّ من البنادق، المناجل، وصمبريرات من ورق النخل، محتفلاً بنهاية دكتاتورية باتيستا. في اليوم التالي توجب عليه أن يتولى مسؤولية مشاريع متنوّعة تركها مالكوها. صار من نصيبه مصنع للثياب الداخلية النسائية، بين أشياء أخرى. على الفور بدأت مشكلة المواد الخام. لم يكن هناك زبد عصارة الشجر لحمالات الصدر. ناقش العمال المسألة في مقابلة وقرروا أن يشقوا الوسائد. كانت مصيبة. لا يمكن أن يغسل حشوُ المخدات لأنه لا يجف مطلقاً.

كان ريكاردو في سن العشرين حين وضعوا في جيبه قطعتي نقد وأرسلوه ليدير طاحونة سكّر. لم يكن قد رأى بتاتاً طاحونة سكر طيلة حياته، وحتى ولو من بعيد. اكتشف هناك أن لعصير قصب السكر لوناً داكناً. المدير السابق، الخادم المخلص، الذي يمتلك نصف قرن من التجربة، اختفى وراء الأفق حاملاً تحت ذراعه الصورة الزيتية لخوليو لوبو، سيد حقول قصب السكر التي صادرتها الثورة.

أرسل وزير الخارجية في طلبه. جلس راول روا Raul Roa على الأرض أمام خريطة كبيرة لأسبانيا مفروشة فوق السجّادة، وبدأ برسم صلبان صغيرة. هكذا اكتشف ريكاردو في سن الثانية والعشرين أنهم جعلوا منه قنصلاً.

قال متلعثماً: «*لكنني أطبع بإصبعين فحسب*.»

قال راو منهيا المسألة: «*أطبع بإصبع واحد ومع ذلك أنا وزير*.»

1963: هافانا

صورة بيروقراطي

زمن أسود يولد زمنا أحمر سيجعل ممكنا زمنا أخضر: ببطء حل التضامن مكان الجشع والخوف. انطلقت الثورة الكوبية لأنها قادرة على الاختراع، والإبداع والجنون. لكن، لها أعداء يجب أن تتجنبهم. كان هناك بين الذين يجب أن يخشى منهم أكثر من غيرهم، البيروقراطي، المدمر كالإعصار، الخانق كالإمبريالية. ليس هناك ثورة لا تحمل هذه الجرثومة في بطنها.

البيروقراطي هو الرجل الخشبي، خطأ الآلهة الذي بلا دم، ليس حاسما ولا غير حاسم، إنه صدى دون صوت، مصدر للأوامر، لا للأفكار. ينظر إلى أي شك كهرطقة، وإلى أي تناقض كخيانة، يخلط الوحدة بالإجماع، ويرى الشعب كطفل أبدي يجب أن يقاد من أذنه.

من المرجّح كثيراً أن البيروقراطي سيضع حياته على خط القتال. ولكن من المستحيل جداً أن يضع عمله على الخط.

1963: هافانا

بولا دي نييبي Bola de Nieve

«هذه ماركسية لينينية محلية» قال بولا دي نييبي مغنّي الغواناباكو، ولد دومنغو الطبّاخ وماما إنيس Mama Ines. قالها بنوع من التذمّر، بصوته الضخم، الأجش قليلاً، والمتلئ. الماركسية اللينينية المحلية، هو الاسم الذي أطلقه بولا دي نييبي على حماسة وابتهاج هذا الشعب الذي يرقص على إيقاع النشيد بأرداف متأرجحة، في تلك الثورة المولودة من العناق الوحشي بين أوروبا وأفريقيا على رمال أميركا. في هذا المكان، الآلهة التي صنعها البشر يهجّنها رجال صنعتهم الآلهة، السابقون انحدروا إلى الأرض، واللاحقون أطلقوا ليفتحوا السماء، وبولا دي نييبي احتفل بهذا كله في أغانيه المالحة.

1963: ريو كوكو

على كتفيه يحمل عناق ساندينو

الذي لم يمحوه الزمن. بعد ثلاثين عاماً، عاد العقيد سانتوس لوبيث إلى الحرب في الغابات الشمالية، بحيث يمكن أن تُولد نيكاراغوا.

منذ بضع سنوات، ولدت الجبهة الساندينية. أنجبها كارلوس فونسيكا أمادور وتوماس بورخي مع سانتوس لوبيث وآخرين لم يعرفوا ساندينو مطلقاً لكنهم أرادوا أن يطيلوا عمره.

كان العمل سيكلفهم دماً، وهم يعرفون ذلك: «*وهكذا لا يمكن أن تُغسَل أوساخ كثيرة بالماء مهما كان مقدّساً*»، قال كارلوس فونسيكا.

ضائعين، بلا أسلحة، مبللّين بمطر أبدي، دون شيءٍ يأكلونه ـ لكنهم يُؤكلون، يُضربون، ويخيب أملهم ـ يتجول رجال العصابات في الغابة. ولم يكن هناك لحظة أسوأ من الغروب. النهار هو النهار، لكن الغسق هو ساعة الألم، الوحدة المخيفة، والساندينيون ليسوا شيئاً بعد، أو تقريباً لا شيء.

1963: سان سلفادور

ميغيل في الثامنة والخمسين

كان ميغيل، يعيش كالعادة، مستخدماً يده وفمه، يوحّد الفلاحين ويسبب الأذى، حين اعتقلته الشرطة في بلدة صغيرة ما، ونقلته، مقيّد اليدين والقدمين، إلى مدينة سان سلفادور.

تعرّض هناك للضرب فترةً طويلةً. طيلة ثمانية أيام كانوا يضربونه وهو معلّقٌ، لحمه يصرخُ، لكنه لا يصدر أي صوت وهم يعذّبونه لينتزعوا أسراره. مع ذلك، حين شتم النقيب الشعب الذي يحبه، رفع العجوز المتحدي بقاياه النازفة، رفع الديك المنتوف عرفه وصاح.

أمر ميغيل النقيب أن يغلق فمه القذر. كان النقيب يدفن ماسورة مسدّس في عنقه. تحدّاه ميغيل أن يطلق النار. بقي الاثنان وجهاً لوجه، متوحشين، يلهثان وكأنهما ينفخان الجمر: ثبت الجندي، الذي يضع إصبعه على الزناد، عينيه على ميغيل، لم يرفّ جفن لميغيل، وهو يحصي الثواني، القرون، وهي تعبر، ويصغي إلى نبض قلبه وهو يصعد إلى رأسه. اعتبر ميغيل نفسه ميتاً، ميتاً بالفعل، حين فجأة أعتمَ ظلُّ الوميض الوحشي لعيني الجلاد، بسبب إنهاك، أو من يعرف ماذا، وميغيل يحتل تلكما العينين. رف جفن الجلاد، وكأنه مندهش من كونه حيث كان. ببطء، أخفض المسدس، ومعه عينيه.

وهكذا حصلت الولادة الحادية عشرة لميغيل مارمول في الثامنة والخمسين من عمره.

1963: دالاس

تقرّر الحكومة أن الحقيقة لا توجد

ظهراً، في شارع بدالاس، اغتيل رئيس الولايات المتحدة. لم يكن قد مات حين أذيعت الرواية الرسمية. في تلك الرواية، التي ستكون نهائية، قيل إن لي هارفي أوسفالد، وحده، قتل جون كينيدي.

لم يتطابق السلاح مع الرصاصة، ولا الرصاصة مع الثقوب. ولم يتطابق المتهم مع التهمة: أوسفالد هو شخص سيىء جداً، بنيته الجسدية عادية، لكن، وكما تقول النسخة الرسمية، أفعاله كانت أفعال بطل في الرماية وعدّاء أولمبي. أطلق النار من بندقية قديمة بسرعةٍ مستحيلة وطلقته السحرية، التفت ودارت بشكل بهلواني لتخترق كينيدي لكن جون كونالي، حاكم تكساس، نجا بفعل معجزة.

بحماسةٍ أنكر أوسفالد ذلك. لكن لم يعرف أحد، ولن يعرف أحد مطلقاً ما لديه ليقوله. بعد يومين انهار أما كاميرات التلفزيون، والعالم كلّه يشاهد المشهد. قتله وأغلق فمه جاك ربي، وهو رجل عصابات تافه مهرّب للنساء والمخدرات. قال ربي إنه انتقم لكينيدي بسبب الوطنية والشفقة على الأرملة المسكينة.

1963: سانتو دومنغو

تاريخ عادات أميركية لاتينية

اعتاد أن يسبح من رمال سوسوا إلى البحر، مع فرقة تعزف لكي تبعد أسماك القرش.

لكن الجنرال توني إمبرت، كبير البطن والخامل، الذي نـادراً مـا يدخـل إلـى المـاء، لا يـزال يعود إلى شاطئ طفولته. كان يحب أن يجلس على حد الماء، يسـدِّد، ويطلـق النـار علـى أسـماك القرش. في سوسوا، تتنافس أسماك القرش مع الفقراء على بقايا المسلخ. الجـنـرال إمـبرت متأسِّـفٌ على الفقراء. من الشاطئ يرمي إليهم بعشرة دولارات.

كان الجنرال إمبرت يشبه، بشكل كبير، صديقه الحميم الجنرال ويسين ي ويسين. حتى ولـو كان الاثنان مصابين بالزكام، يستطيعان أن يشما الشيوعية على بعد ميـل، وكلاهمـا فـاز بأوسـمة كثيرة بسبب نهوضهما باكراً وقتلهما للبشر المغلولين. حين يقولان: «الرئيس»، يشير الاثنان إلـى رئيس الولايات المتحدة.

سمنَ المتخرجان الدومينيكانيان من المدرسة الأميركية للأمـيركيتين في بنمـا، الجـنرال إمـبرت وويسين ي ويسين، تحت حماية تروخيّو. فيما بعد خانه الاثنان. حين أُجريتْ الانتخابـات بعـد موت تروخيّو وصوّت البشر كلهم لخوان بوش Juan Bosch، لم يستطيعا أن يقفـا هـادئين. رفـض بوش أن يشتري طائرات للقوى الجويّة، طبق الإصلاح الزراعي، دعم قانون طلاق ورفع الأجور.

استمر الأحمر سبعة شهور، بعدها استعاد ويسين ي ويسين وجنرالات البلد الآخرين السلطة، قرص العسل الغني، في تمرد سهل حدث فجراً في الثكنات.

لم تضيّع الولايات المتحدة أي وقت واعترفت بالحكومة الجديدة.

1964: بنما

حشي اثنان وعشرون فتى بالرصاص

حين حاولوا رفع علم بنما على التربة البنمية.

«*لم نستخدم إلا زرق الطيور*»، قال قائد قوى الاحتلال الأميركية الشمالية مدافعاً.

رفرفتْ رايةٌ أخرى فوق القطّاع الـذي يشـق بنمـا مـن البحـر إلـى البحـر. سـادَ قـانونٌ آخـر، سيطرت شرطةٌ أخرى وسادت لغةٌ أخرى. لا يسمح للبنميين بدخول منطقة القناة دون إذن، حتى من أجل التقاط ثمار المانغو الساقطة، وكانوا يعملون هناك بمرتب من الدرجة الثانية، كالسود والنساء.

كانت منطقة القناة، المستعمرة الأميركية، مكاناً للمشاريع وقاعدة عسكرية في آن. كانت تمـوّل مناهج مدرسة الأميركيتين من الرسوم التـي تدفعـها السـفن. في ثكنـة منطقـة القنـاة، كـان ضبـاط البنتاغون يدرّسون الجراحة المضادة للشيوعية للعسكر الأميركيين اللاتينيين الذين سيحتلون حـالاً في بلدانهم الرئاسة والوزارات ومراكز القيادة والسفارات.

«*إنهم قادة المستقبل*»، قال روبرت ماكنمارا، وزير دفاع الولايات المتحدة.

وبسبب خوفهم من السرطان الذي ينتظرهم، سيقطع هـؤلاء العسـكر يـدي أي شـخص يتجـرأ على ارتكاب الإصلاح الزراعي أو التأميم، وسينتزعون ألسنة الحمقى أو الفضوليين.

1964: ريو دي جانيرو

هناك غيوم سوداء

قال لنكولن جوردون:

«*ثمة غيوم سوداء تطوّق مصالحنا الاقتصادية في البرازيل...*»

كان الرئيس خواو غولارت Joao Goulart قد طبّق لتوّه الإصلاح الزراعي وأمّم مصافي النفط، وأنهى هرب رأس المال.

هاجمه السفير الأميركي الساخط علناً. من السفارة، تدفّقت أنهار النقود لتلوّث الرأي العام، واستعدّ العسكر للاستيلاء على السلطة. تم ترويج دعوة حادّة إلى انقلاب في الإعلام. حتى نادي الأسود وقّعها.

بعد عشر سنوات من انتحار بارغاس تأجّجَ الغضب نفسه مرّة أخرى أقوى بعدة مرّات. دعا السياسيون والصحفيون إلى يسوعٍ يرتدي البدلة العسكرية لكي ينظّم الفوضى. عرض التلفزيون فيلماً أظهر جدراناً برلينية تفصل جميع المدن البرازيلية إلى اثنتين. مجّدتْ الصحف والإذاعات فضائل الرأس مال الخاص، الذي يحوِّلُ الصحارى إلى واحاتٍ، وفضائل القوات المسلّحة التي تمنع الشيوعيين من سرقة المياه. في جادات المدن الرئيسية توسل مسير **الأسرة والله من أجل الحرية** طالباً الرحمة من السماء.

شجب السفير لنكولن جوردون، بقوّة، المؤامرة الشيوعيّة: خان غولارت، مالك المزارع، طبقته في لحظة الخيار بين الملتهمين والمُلْتَهَمون، بين الصانعين وموضوعات الآراء، بين حرّية النقود وحرية الشعب.

1964: خويث دي فورا Juiz de Fora

إعادة غزو البرازيل

تقريباً بعد ثلاثين عاماً من ترتيب الكابتن أوليمبيو موراو فيلو Olympio Mourao Filho لمؤامرة شيوعية بأمر من الرئيس بارغاس، اشترى الجنرال موراو فيلو مؤامرة شيوعية فبركها السفير لنكولن جوردون. اعترف الجنرال المتواضع أنه، في المسائل السياسية، «مجرد ثور بلباس عسكري، لكنه لا يفهم شيئاً بخصوص المؤامرات الشيوعية.

رفع سيفه في ثكنة خويث دي فورا: «*سأنتشل البرازيل من الهاوية.*»

كان موراو مستيقظاً قبل الفجر، وبينما كان يحلق ذقنه رتّل مزمور داوود، ذلك الذي يعلن أن الزرع كله سيهلك. ثم تناول فطوره، هنّأ زوجته لأنها متزوِّجة من بطل، وعلى رأس قواته انطلق نحو ريو دي جانيرو.

وقف بقية الجنرالات معه، ومن الولايات المتحدة، التي كانت تتقدم مسبقاً نحو البرازيل، أتت حاملة طائرات واحدة، وعدد كبير من الطائرات والسفن الحربية، وأربع سفن للتزويد بالوقود. إنها عملية «الأخ سام» لمساعدة الانتفاضة.

كان خواو غولارت، المحتار، يراقب الحدث. أرسل زميله لندن جونسون موافقته الكاملة لمؤلفي الانقلاب، رغم أن غولارت لا يزال رئيساً. على الفور قدمت وزارة الخارجية الأميركية قروضاً كريمة للحكومة الجديدة. من الجنوب، لم تنتج محاولة ليونيل بريثولا للمقاومة أي صدى. أخيراً، اتجه غولارت إلى المنفى.

يد مجهولةٌ كتبتْ على الحائط في ريو دي جانيرو: «لا حاجة للوسطاء، اجعلوا لنكولن جوردون رئيساً!»

لكن الجنرالات المنتصرين اختاروا المارشال كاستييو برانكو، وهو رجل عسكريٌّ وقورٌ دون حسّ فكاهة أو عنق.

1964: لا باث

دون عارٍ أو مجدٍ

دون عار أو مجد، ومثل رئيس البرازيل، ركب الرئيس فيكتور باث إستنسورو طائرة أقلّته إلى المنفى.

ترك خلفه ريني بارينتوس، طياراً ثرثاراً، كديكتاتور بوليفيا. شارك السفير الأميركي في اجتماعات مجلس الوزراء، جالساً بين الوزراء، بينما أعد مدير شركة غلف أويل المرسومات الاقتصادية.

ترك باث إستنسورو وحيداً، بشكل مدمّر، ومعه سقطتْ الثورة الوطنية بعد بقائها في السلطة لمدة اثني عشر عاماً. استدارت الثورة قِطعةً بَعد أخرى إلى أن أدارتْ ظهرها للعمال، من الأفضل أن ترضعَ الأثرياء الجدد والبيروقراطيين الذين عصروها إلى أن جفّتْ. الآن، نفخةٌ ضئيلةٌ تكفي لنسفها.

في غضون ذلك، تنازع العمال كأنهم رجال قبائل لايمي Laime وخوكوماني Jucumani.

1964: شمال بوتوسي

بغضبٍ وحشيٍ

بغضبٍ وحشيٍ تقاتل هنود لايمي وخوكوماني. الأفقر في بوليفيا الفقيرة، المنبوذون بين المنبوذين، كرسوّا أنفسهم لقتل بعضهم بعضاً على السهب الجليدي في شمال بوتوسي. مات خمسمائة من القبيلتين في السنوات العشر السابقة والأكواخ التي احترقت لا تُحصى. كانت المعارك تتواصل أسابيع، دون انقطاعٍ أو رحمة. قطّع الهنود بعضهم بعضاً إلى أشلاءٍ للانتقام من

أجل مظالم تافهة أو نتيجة نزاع على قطع من الأرض المجدبة في تلك العزلة المهيبة التي نُفوا إليها منذ زمن بعيد.

كان هنود اللايمي والخوكوماني يعيشون على البطاطس والشعير، وهما كل ما يقدمه لهم السهب بعد جهدٍ كبير، وينامون على جلود الخراف، يرافقهم القمل الذي يرحّبُ بدفء أجسادهم.

ومن أجل طقوس الإبادة المتبادلة كانوا يغطون رؤوسهم بقبعات من الجلد النيئ وهي بالضبط في شكل خوذ الفاتحين.

قبعات

جاءت القبعات إلى بوليفيا من أوروبا، أحضرها الفاتحون والتجار، لكنها تكيّفتْ لتنتمي إلى هذه الأرض وهذا الشعب. كانت، في الأصل، مثل وسم القطيع، أقنعة إجبارية ساعدت الأسياد الإسبان على التعرّف على الهنود الذين يملكونهم. مع مرور الزمن، بدأت الجماعات تزيّن أغطية رؤوسها بأختام كبريائها الخاصة، رموز المتعة: النجوم، والأقمار الفضية الصغيرة، الريش الملوّن، الكرات الزجاجية، الأزهار الورقية، تيجان الذرة... فيما بعد، غمر الإنكليز بوليفيا بالقبعات المستديرة السوداء والقبعات الرسمية: قبعة أنبوب الموقد لنساء بوتوسي الهنديات، قبعات كوتشابامبا البيضاء. نتيجة خطأ ما، وصلت قبعة بورسالينو من إيطاليا واستقرّتْ على رؤوس نساء لاباث الهنديات.

وسواء كان الهندي البوليفي، رجلاً أو امرأة، فتى أو فتاة، يمكن أن يسير حافياً، لكنه لا يسير مطلقاً بدون قبعة. تظلل القبعة الرأس الذي تحميه، وحين تسقط الروح، تلتقطها عن الأرض.

1965: سان خوان، بويرتو ريكو

بوش Bosch

تدفق البشر في شوارع سانتو دومنغو، مسلّحين بكل ما وقع تحت أيديهم، وقذفوا أنفسهم على الدبابات. «اخرجوا أيها اللصوص! «صرخوا.» عد يا خوان بوش يا رئيسنا!»

سجنت الولايات المتحدة بوش في بويرتو ريكو ومنعته من العودة إلى بلاده الملتهبة. كان بوش، الرجل الذي من نسيجٍ قوي، وكلّه أوتارٌ وتوتّر، وحيداً في غضبه، يعضُّ قبضتيه، فيما عيناه الزرقاوان تخترقان الجدران.

سأله صحفيٌّ عبر الهاتف إذا كان عدوّاً للولايات المتحدة. كلا، إنه عدوٌّ للإمبريالية الأميركية فحسب.

قال بوش: «*لا يمكن لأحد قرأ مارك توين أن يكون عدوّاً للولايات المتحدة.*»

1965: سانتو دومنغو

كامانو Caamano

تدفق الطلاب، والجنود، والنساء اللائي يحملن مجعدات الشعر إلى الشجار. بحواجز من البراميل والشاحنات المقلوبة، تم إيقاف التقدم الصاخب للدبابات. طارت الأحجار والزجاجات، بينما من رأس أجنحة الطائرات المحومة حصدت نيران الرشاشات جسر نهر أوثاما والشوارع المزدحمة. ارتفع مد البشر وفصل الجنود الذين خدموا سابقا تروخيو: كان في جانب أولئك الذين قادهم إمبرت وويسن ي ويسن، الذين يطلقون النار على البشر، وفي الجانب الآخر وقف أتباع فرانسيسكو كامانو الذين حطموا أبواب الترسانات وبدأوا يوزعون البنادق.

في ذلك الصباح، أطلق كامانو الانتفاضة من أجل عودة بوش، معتقدا أن المسألة لن تستغرق سوى دقائق. في منتصف اليوم، أدرك أن المسألة تقتضي عملا طويلا، أن عليه أن يواجه رفاقه في السلاح، أن الدم يتدفق، وانتابه إحساس بمأساة وطنية. حين خيم الليل لجأ إلى السفارة السلفادورية.

منهارا على كرسي بذراعين، حاول كامانو أن ينام. تناول حبوبا منومة، جرعته المعتادة وأكثر من ذلك، لكن هذا لم يعمل. الأرق، طحن الأسنان، عض الأظافر: إرث تروخيو له منذ أن كان ضابطا في جيش الديكتاتور ونفذ أعمالا سوداء وأحيانا وحشية أو شاهدها تنفذ. والليلة الأمر أسوأ من السابق. ما إن أغمض عينيه حتى بدأ يحلم. حين يحلم يكون صادقا مع نفسه، حين يستيقظ يرتجف، يبكي، ويشعر بالعار من خوفه.

جاء الصباح وانتهى منفاه الذي لم يستمر إلا ليلة واحدة. بلل العقيد كامانو وجهه وغادر السفارة. سار محدقا إلى الأرض، عبر دخان النيران، الدخان الكثيف الذي ألقى ظلا على الأرض، وظهر في ضوء النهار الذي يومض ليعود إلى موقعه على رأس التمرد.

1965: سانتو دومنغو

الغزو

ليس جوا أو برا أو بحرا. لم تستطع طائرات الجنرال ويسن ي ويسن ودبابات الجنرال إمبرت أن تهدئ المناقشة العامة في المدينة المحترقة وفشلت كذلك السفن التي أطلقت على القصر الحكومي الذي احتله كومانو ولم تقتل إلا الخادمات.

أفادت سفارة الولايات المتحدة، التي دعت التمرد «*الحثالة الشيوعية*» و*عصابة من* «*قطاع الطرق*»، أنه ليس هناك طريقة لإيقاف الإزعاج وطلبت مساعدة مستعجلة من واشنطن. هبط المارينز.

في اليوم التالي، مات الغازي الأول: أطلقت النار على فتى من جبال ولاية نيويورك الشمالية، من سطح، في شارع ضيّق من شوارع هذه المدينة التي لم يسمع باسمها طيلة حياته. كانت الضحية الدومينيكانية الأولى فتى في الخامسة من عمره. مات على الشرفة بسبب انفجار قنبلة يدوية. ظنّه الغزاة قنّاصاً.

حذّر الرئيس ليندون جونسون أنه لن يسمح بكوبا أخرى في منطقة الكاريبي. هبط المزيد من القوات ثم المزيد. عشرون ألفاً، خمسة وثلاثون ألفاً، اثنان وأربعون ألفاً. وبينما كان الجنود الأميركيون يمزّقون الدومينيكانيين، كان المتطوعون الأميركيون الشماليون يخيطونهم مع بعضهم في المستشفيات. حضّ جونسون حلفاءه على الاشتراك في هذه الحملة الصليبية الغربية. ديكتاتورية البرازيل العسكرية، ديكتاتورية باراغواي العسكرية، ديكتاتورية هندوراس العسكرية، وديكتاتورية نيكاراغوا العسكرية، أرسلت جميع هذه الديكتاتوريات قوات إلى جمهورية الدومينيكان لإنقاذ الديموقراطية التي كان يهددها أبناؤها.

قاتل أبناء الشعب وهم محصورون بين النهر والبحر، في الحي القديم لسانتو دومنغو.

التقى خوسيه مورا أوتيرو، الأمين العام لمنظمة الدول الأميركية، سراً بالعقيد كامانو. عرض عليه ستة ملايين دولار ليغادر البلاد وقال له: اذهب إلى الجحيم.

1965: سانتو دومنغو

مائة واثنان وثلاثون ليلة

ولا تزال حرب العصي والسكاكين والقربينات ضد مدفعية الهاون والرشاشات مستمرة. فاحت المدينة برائحة البارود، القمامة، والموت.

غير قادرين على فرض الاستسلام، لم يكن أمام الغزاة، الأقوياء جداً، سوى الاتفاقية. اللاأحد، اللاشيء لم يسلموا أنفسهم للهزيمة، خاضوا معارك شرسة في الليل، في كل ليلة، من منزل إلى آخر، جسداً لجسد، باردة باردة، إلى أن ترفع الشمس رايتها الملتهبة من قاع البحر ليختفوا في الظلمة إلى الليلة التالية. وبعد ليال كثيرة من الرعب والمجد، لم تنجح القوى الغازية في تنصيب الجنرال إمبرت في السلطة، ولا الجنرال ويسن ي ويسن ولا أي جنرال آخر.

1965: هافانا

مكثّر الثورات

انطلق رجل العصابات السبارطي، نحو أراض أخرى. أعلن فيديل عن رسالة تشي الوداعية. *«الآن لا شيء قانونياً يربطني بكوبا، لا تربطني بها سوى الروابط التي لا يمكن أن تقطع»*، قال تشي.

كتب تشي أيضاً إلى والديه وأولاده. طلب من أولاده أن يقـدروا أن يشـعروا في أعمـاق قلوبـهم أي ظلم يُمارس ضد أي شخص في أي جزء من العالم.

هنا، في كوبا، الربو وكل شيء، كان تشي أول من وصلَ وآخر من ذهب، في الحرب والسـلم، دون أدنى ضعف.

أحبّهُ الجميع ـ النساء، الرجال، الأطفال، الكلاب والنباتات.

تشي غيفارا يودّعُ والديه

مرة أخرى أشعر تحت كعبيَّ بأضلاع روزنانته: أعود إلى الطريق بدرع على الذراع...

سيقول كثيرون إنني مغامر، وهذا صحيح، لكنني مغامرٌ من نمطٍ مختلـف ـ من أولئك الذيـن يجازفون بجلودهم ليشرحوا حقائقهم. يمكن أن يكون هذا حاسماً. غير أنني لا أبحث عنـه لكنـه داخل التقدير المنطقي للاحتمالات. إذا كان هكذا، فهذا عناقي الأخير.

أحببتكما كثيراً، لكنني لم أعرف كيف أعبّر عن عاطفتي، أنـا قـاس جـداً في أفعـالي وأعتقـد أنكما لم تفهماني أحياناً. لم يكن من السهل فهمي، لكن أتمنى أن تصدقاني اليوم.

إن الإرادة التي صقلتها بمتعة فنان سوف تغذّي هاتين الساقين الضعيفتين والرئتين المنهكتين. سأفعلها. فكرا مرة واحدة بمرتزق القرن العشرين الصغير هذا.

1966: باتيوثيمنتو Patiocemento

نعرف أن الجوع فان

قال الكاهن كاميلو توريـس. «*نعـرف أن الجـوع فـان، وإذا عرفنـا هـذا، هـل هنـاك معنـى في تضييع الوقت في الجدل حول فيما إذا كانت الروح خالدة؟*»

آمن كاميلو بالديانة المسيحية كممارسة لحب المرء لجاره، وأراد أن يكـون هـذا الحـب فعّـالاً. كان مهووساً بالحب الفعال. جعله الهوس يحمل السلاح، وبسببه مـات، في زاويـة مجهولـة مـن كولومبيا، مقاتلاً مع الثوار.

1967: يايـاغوا Llallagua

عيد سان خوان

المُعَدِّنون البوليفيون هم أبناء العذراء وأبناء أخت الشيطان، لكن كلتاهما لا تستطيع أن تنقذهم من الموت المبكر. كانوا يُدفنون في أحشاء الأرض والمطر العنيد لغبار المنجم يدمرهم: في لحظة فقط، بضعة سنين، تتحول رئاتهم إلى أحجار وتنسدُّ قصباتهم الهوائية. وحتى قبل أن تنسى الرئات أن تتنفس، ينسى الأنف الروائح واللسان الطعم، تصبح الرجل كالرصاص ولا يطلق الفم إلا الشتيمة والانتقام.

حين يخرجون من الحفرة، يبحث المعدّنون عن حفلة. وبينما تتواصل حياتهم القصيرة وتتحرك أرجلهم، يحتاجون إلى تناول يخنة متبّلة وبلع مشروبات قوية. يغنون ويرقصون في ضوء النيران التي تدفئ السهل العاري.

في ليلة سان خوان هذه، تقوم أعظم الحفلات، فيما الجيش يكمن في الجبال. تقريباً لا شيء معروفاً عن ثوار نهر نانكاهواثو البعيد، رغم أن الحكاية تقول إنهم يقاتلون من أجل ثورةٍ جميلة، كمثل المحيط لم تُر مطلقاً. لكن الجنرال بارييتوس كان يعتقد أن إرهابياً ماكراً يكمن داخل كل معدّنٍ.

قبل الفجر، تماماً مع نهاية عيد سان خوان، شق إعصارٌ من الرصاص طريقه عبر بلدة اياغوا.

1967: كاتابي Catavi

اليوم التالي

ضوء اليوم الجديد هو مثل وميض العظام. عندئذ تختبئ الشمس خلف السحاب بينما يحصي منبوذو الأرض موتاهم ويحملونهم في عربات صغيرة. يتقدّم المعدّنون على طريق ضيّق وموحل في ياياغوا. يعبر الموكب النهر، يسيل لعاب قذر بين أحجار من الرماد، ثم يشكل خيطاً نًحو السهل الشاسع إلى مقبرة كاتابي.

السماء، سقف الصفيح الكبير، ليس فيها شمس، وليس على الأرض نار لتدفئتها. لم يكن هذا السهل متجمداً هكذا من قبل.

ينبغي أن تُحفر قبور كثيرة. اصطفت أجسام من جميع الأحجام، متمددة ومنتظرة.

من على سور المقبرة، صرخت امرأة.

1967: كاتابي

دوميتيلا

صرخت دوميتيلا من على السور ضد القتلة.

كانت تعيش في غرفتين دون مرحاض أو مياه جارية مع زوجها المعدّن وسبعة أبناء فيما الابن الثامن متلهّفٌ للولادة. كانت دوميتيلا تطبخ كل يوم، تغسل، تكنس، تنسج، تخيّط، تعلّم ما تعرفه، تعالج قدر استطاعتها، تحضر مائة فطيرة لحم وتطوف في الشوارع بحثاً عن شراة.

اعتقلوها بتهمة شتم الجيش البوليفي وبصق جنديٌّ على وجهها.

التحقيق مع دوميتيلا

بصق على وجهي ثم رفسني. لم أتحمّل ذلك فأوقفته. لكمني مرة أخرى. خدشتُ وجهه. كان يضربني ويضربني... وضعَ ركبته هنا على بطني. عصر عنقي حتى كدتُ أختنق. بدا وكأنه أراد أن يفجر بطني. أحكم إمساكه بي... ثم بيديَّ، بيديّ الاثنتين، وبكامل قوّتي انتزعتُ يديه. ولا أعرف كيف، لكنني أمسكته بقبضتي وبدأت أعضّه... قرفتُ بشكل مرعب من مذاق دمه في فمي... ثم، بكل غضبي بصقت الدم على كل وجهه. بدأ عويلٌ هائلٌ. أمسكني، رفسني، صرخ بي... نادى الجنود وجعل أربعةً منهم أو أكثر يمسكونني...

حين استيقظت وكأنني أستيقظ من حلم، كنت أبلع قطعة من ضرسي. شعرت بها هنا في حنجرتي. ثم لاحظتُ أن هذا الوحش كسرَ ستةً من أسناني. كان الدمُ يتدفّقُ عليَّ ولم أستطع أن أعرف إن كان من عينيّ أو أنفي...

ثم، وكأن القدر أراد ذلك، بدأتُ أنجبُ. بدأت أشعر بالآلام المتلاحقة، وأحياناً بدا الرضيع الذي كان يولد كثيراً جداً عليَّ... لم أعد أستطيع تحمّل ذلك. وذهبت لأنحني في زاوية. دعمتُ نفسي وغطّيتُ وجهي، لأنني لم أستطع أن أجنّد ذرة من القوة. شعرت أن وجهي سينفجر. وفي إحدى تلك اللحظات خرجَ. رأيت أن رأس الطفل قد خرج مسبقاً... وحينئذٍ أُغميَ عليَّ.

لا أدري كم استمر هذا: «أين أنا؟ أين أنا؟»

كنت مبللة بشكل كامل. الدم والسائل الذي يخرج أثناء الإنجاب بلل كامل جسدي. ثم قمت بجهدٍ وبطريقة ما أمسكت بحبل سرة الطفل. سحبت الحبل، في نهايته وجدتُ طفلي الصغير، بارداً، متجمداً، هناك على الأرض.

1976: كاتابي

الإله في الحجر

بعد عاصفة الرصاص، كنست ريح عاصفة مدينة المناجم ياياغوا ونزعت جميع السقوف. في أبرشية كاتابي في الجوار، قلبت الريح تمثال العذراء وحطّمته. لكن منصبه الحجري بقي سليماً. جاء الكاهن ليلتقط عن الأرض قطع المرأة الطاهرة.

«انظر أيها الأب»، قال له العمال، وشرحوا له كيف تخلّص المنصب من العذراء التي أنهكته.

داخل المنصب لا تزال الآلهة القديمة المغزوّة تنام، وتحلم، وتتنفس، تحرص على الملتمسين، وتذكر عمال المنجم أن اليوم العظيم آتٍ: *يومنا، ذلك الذي ننتظره*.

منذ ذلك اليوم الذي اكتشفه فيه العمال وعبدوه، شجب الكاهن الحجر الذي يجترح المعجزات. سجنه في قفصٍ إسمنتي بحيث لا يستطيع العمال أن يعرضوه في المواكب، ثم وضع

عليه العذراء مريم. كان البنّاء الذي سجن الحجر بأمرٍ من الكاهن يرتجف من الحمّى وأصيب بالحول منذ ذلك اليوم المشؤوم.

1976: على ضفتي نهر نانكاهواثو

سبعة عشر رجلاً يسيرون إلى الإبادة

وصل الكاردينال مورير إلى بوليفيا. أحضر من روما بركات البابا وكلمة تفيد أن الله يدعم، بشكل لا لبس فيه، الجنرال بارييتتوس ضد المغاوير.

في غضون ذلك، التف المغاوير الجائعون، والفاقدون للاتجاه، وداروا عبر دغل نهر نانكاهواثو. هناك عددٌ قليل من الفلاحين في هذه المناطق المنعزلة، ولم ينضمَّ فلاّحٌ واحدٌ إلى قوات تشي غيفارا القليلة. كانت قواته تتضاءل من كمين إلى آخر. لكن تشي لم يضعف ولم يقبل الضعف، رغم شعوره بأن جسده حجرٌ بين الأحجارٍ، حجرٌ ثقيلٌ يجرّهُ وهو يقود الآخرين، ولا يسمح بأن تغريه فكرة إنقاذ المجموعة من خلال ترك الجرحى. بأمرٍ من تشي تحرك الجميع بخطوة أولئك الأقل قدرة على الحركة: سيُنْقذون جميعاً أو يضيعون.

يضيعون. ألف وثمانمائة جندي يقودهم جنود أميركيون مدرّبون، كانوا يتعقبونهم في الظلال. اشتدت الحلقة بالتدريج. أخيراً، بلّغ عنهم فلاحان مخبران وحدد رادار وكالة الأمن القومي الأميركي موقعهم.

1967: وهد يورو

سقوط تشي

كسرت طلقات الرشاش رجليه. وهو يجلس، قاتل إلى أن فجّروا البندقية بين يديه. تقاتل الجنود الغازون على ساعته، ومزادته، وحزامه، وغليونه. تناوب على استجوابه عدة ضباط، واحداً بعد آخر. لجأ تشي إلى الصمت بينما كان ينزف. أهانه نائب الأميرال أوغارتيشي، ذئب الأرض الجسور، رئيس البحرية في بلد بلا محيط، وهدده. بصق تشي في وجهه.

من لاباث جاء الأمر بإنهاء الأسير. انفجار طلق ناري. مات تشي من رصاصة خائنة قبل عيد ميلاده الأربعين بوقت قصير، في السن الذي مات فيه زاباتا وساندينو، كذلك من رصاصات خائنة.

في بلدة إيغيراس Higueras الصغيرة، عرض الجنرال بارييتتوس غنيمته للصحفيين. كان تشي ممدداً في حوض للغسيل. أطلقوا عليه للمرة الأخيرة بعدسات الكاميرات. في هذا الوجه الأخير عينان متهمتان وابتسامة كئيبة.

1967: إيغيـــراس

الأجراس تقرع من أجله

هل مات في 1967 في بوليفيا لأنه خمّن خطـأ عـن متـى وأيـن وكيـف؟ أو هـل لـم يمـت علـى الإطلاق، في أي مكان، لأنه لم يكن مخطئاً حيال ما يهم في الحقيقة رغم كل متى وأين وكيف؟

آمن أن المرء ينبغي أن يدافع عن نفسه ضد مصائد الجشع دون أن يتخلّـى عـن يقظتـه. حـين كان رئيساً لبنك كوبا الوطني، كان يوقع على الأوراق النقدية «تشي» ليسخر من النقود. من أجل حب البشر ازدرى الأشياء. اعتقد أن العالم الذي تكون فيه الملكية والوضاعة شئياً واحداً هـو عـالم مريض. لم يحتفظ مطلقاً بأي شيء لنفسه، ولم يطلب أي شيء.

أن تحيا هو أن تمنح نفسك، هذا ما ظنّه، ولقد منح نفسه.

1967: لاباث

صورة فحل خارق

على كتفي نيني، حارسه الشخصي العملاق، عبر الجنرال بارييتتوس مدينة لاباث. من علـى كتفي نيني كان يحيي أولئك الذين يصفقون له. دخل القصر الحكومي. جالساً إلى مكتبه، ونيني خلفه، يوقع مرسومات تبيـع بأسـعار منخفضـة السـماء، التربـة، الطبقـة التـي تحـت التربـة في بوليفيا.

منذ عشر سنوات، وضع بارينتوس في الوقت المناسب في مصح نفسي في واشنطن دي سي لأنـه خطر له أن يصبح رئيساً لبوليفيا. كـان قـد شـق طريقـاً لنفسـه كريـاضي. متنكـراً كطيـار أمـيركي شمالي، حاصر السلطة، والآن يمارسها، يقتل العمال ويهدم المكتبات والأجور.

قاتل تشي هو ديكٌ بصياح مرتفع، رجل بثلاث خصيات، مائة امرأة، وألف طفل. لم يطر أي بوليفي إلى هذا الارتفاع، أو يلقي تلك الخطب الكثيرة، أو يسرق هذا المقدار.

في ميامي، انتخبه الكوبيون المنفيون رجلَ العام.

1967: استوريل

مشاهير المجتمع

ثبّتتْ المضيفة إلى تسريحة شعرها المتوهجة بعض أكبر قطع الألماس في العالم. عرض الصليـب الذي على عقد حفيدتها إحدى أكبر قطع الزمرد في العالم. أقام آل باتينو Patinos، ورثـة إحـدى أكبر الثروات في العالم، إحدى أكبر الحفلات في العالم.

لكي يسعدوا ألف شخص ليلاً ونهاراً طيلة أسبوع، جمع آل باتينو جميع الأزهار الجميلة والمشروبات التي يمكن شراؤها في البرتغال. كانت الدعوات قد تمت مسبقاً، بحيث أن مصممي الأزياء، والصحفيين يمكن أن يؤدوا وظائفهم بشكل جيد. كانت السيدات يغيرن عدة مرات في اليوم فساتينهن، وكلها تصميمات خاصة، وحين يظهر ثوبان متشابهان في أحد الصالونات، تعلق إحداهن إنها ستقلي إيف سان لوران بالزيت. جاءت الأوركسترا من نيويورك بعقد خاص وأتى الضيوف باليخوت أو بالطائرات الخاصة. كان نبلاء أوروبا في الخارج في طريقهم. اشترى المرحوم، المنتحب عليه، سيمون باتينو، آكل لحوم البشر البوليفي، مفترس المعدّنين، اشترى تحالفات من الصنف الأول. زوج ابنتين إلى كونت وماركيز، وابنة إلى ابن العم الأول للملك.

1967: هوستون

علي

سموه كاسيوس كلاي: لكنه اختار أن يدعو نفسه محمد علي.

جعلوه مسيحياً: اختار أن يكون مسلماً.

أجبروه أن يدافع عن نفسه: لا أحد يلكم مثل علي، بشكل وحشي وسريع. إنه دبابة خفيفة، ريشة كالبلدوزر، مالك تاج العالم الذي لا يُهزم.

قالوا له إن الملاكم الجيد يحصر قتاله بالحلبة: قال إن الحلبة الحقيقية هي شيء آخر، حيث يقاتل الأسود المنتصر من أجل السود المنهزمين، من أجل أولئك الذين يأكلون الفتات في المطبخ.

نصحوه بالتعقّل: مذاك بدأ يصرخ.

راقبوا هاتفه: فبدأ يصرخ على الهاتف أيضاً.

وضعوا عليه بزة عسكرية ليرسلوه إلى فييتنام: نزعها وصرخ بأنه لن يذهب وليس لديه شيء ضد الفييتناميين، الذين لم يؤذوه هو أو أي أميركي أسود.

انتزعوا منه لقبه العالمي، منعوه من الملاكمة، حكموا عليه بالسجن وبدفع غرامة: فصرخ شاكراً على هذه الاطراءات لكرامته الإنسانية.

1968: ممفيس

صورة رجل خطير

وعظ مارتن لوثر كنغ الموقر ضد حرب فييتنام. احتج قائلاً: يموت هناك من السود أكثر مما يموت من البيض بمرتين، يغذون المدافع في مغامرة إمبريالية تقارن بجرائم النازية. كان تسميم الماء والأرض، تدمير البشر والمواسم جزءاً من خطة للإبادة. قال الواعظ: من بين المليون فييتنامي الذين ماتوا، كان الأغلبية من الأطفال.

أضاف: إن الولايات المتحدة تعاني من مرض في روحها، والتشريح سيظهر أن هذا المرض اسمه فييتنام.

منذ ستة أعوام وضعت الـ «ف بي آي» هذا الرجل في القسم ألف من القائمة المدّخرة للمستقبل، بين أولئك الأفراد الخطيرين الذين يجب أن يُراقبوا ويُسجنوا في حالة الطوارئ. منذ ذلك الوقت بدأت الشرطة تطارده، تتجسس عليه ليلاً ونهاراً، تهدده وتحرّضه.

انهار مارتن لوثر كنغ على شرفة فندق في ممفيس. رصاصة في الوجه أنهت ذلك «الإزعاج».

1968: سان خوسيه، كاليفورنيا

الشيكانوز The Chicanos

أصدر القاضي جيرالد شارجن حكماً على شاب اتهم بسفاح القربى، وبينما هو يفعل ذلك نصح الشاب أن ينتحر وقال له: «*أنتم الشيكانوز أسوأ من الحيوانات، بائسون، قذرون، ومتعفنّون...*»

الشيكانوز منحدرون من أولئك الذين جاؤوا عبر نهر الحدود من المكسيك إلى قطاف القطن، البرتقال، البندورة، والبطاطس بأجور تافهة ومكثوا في الولايات الجنوبية الغربية والغربية، التي كانت، حتى من أقل من قرن، تدعى شمال المكسيك. في هذه الأراضي، التي لم تعد لهم، استخدموا واحتُقِروا.

من كل عشرة أميركيين شماليين قُتلوا في فييتنام، كان هناك ستة من السود أو الهسبانيين. ولهم يقولون:

إذا كنتم أشداء وأقوياء هكذا، تذهبون إلى خط القتال أولاً.

1968: سان خوان، بويرتو ريكو

ألبيثو

مواطنو بويرتكو ريكو جيدون أيضاً في الموت في فييتنام باسم أولئك الذين احتلوا بلادهم.

كانت جزيرة بويرتو ريكو، المستعمرة الأميركية الشمالية، تستهلك ما لا تنتجه وتنتج ما لا تستهلكه. لا يُزْرَعُ في أراضيها المهجورة حتى أرز وحبوب الطبق الوطني. كانت واشنطن تعلّم سكان بويرتو ريكو أن يتنفسوا هواء مبرّداً، ويأكلوا طعاماً معلّباً، ويسوقوا سيارات طويلة، مطلية بالكروم، أن يغوصوا في الديون إلى أعناقهم، ويفقدوا أرواحهم وهم يشاهدون التلفاز.

مات بدرو ألبثيو كامبوس منذ وهلة بعد أن أمضى عشرين عاماً في السجون الأميركية بسبب نشاطاته التي لا تتوقف كمثير للشغب. اعتاد أن يقول: لكي يستعيد الوطن، يجب أن يحبه المرء بروحه وحياته، كما اعتقد، وكأنه امرأة. لكي يجعله يتنفّس مرة أخرى، يجب أن ينقذه المرء بالرصاص.

كان دائماً يرتدي ربطة عنق سوداء من أجل الوطن المفقود. وكانت وحدته في ازدياد.

1968: مكسيكو سيتي

الطلاب

اجتاح الطلاب الشوارع. لم تُر في مكسيكو من قبل مظاهرات كهذه مطلقاً، ضخمة، مرحة، الجميع يشابكون أذرعهم، يغنون ويضحكون. كان الطلاب يصرخون ضد الرئيس دياث أورداث ومومياءاته الوزارية، وجميع الذين استولوا على ثورة زاباتا وبانتشو.

في تلاتيلولكو، الساحة التي تقاتل فيها الهنود والفاتحون حتى الموت، نصبَ فخٌ. سد الجيش جميع المخارج بدبابات ورشاشات تمركزت استراتيجياً. داخل الإسطبل، سجن الطلاب، المستعدون للتضحية، مع بعضهم بشكل يدعو إلى اليأس. تقدم جدار متواصل من البنادق بحراب مثبتة لختم المصيدة.

قدم مشعلان، أحدهما أخضر، والآخر أحمر، الإشارة. بعد ساعات، بحثت امرأة عن ولدها، وكان حذاؤها يترك آثار دم على الأرض.

قالت أم الطالب:

كان هناك الكثير، الكثير من الدم

«كثير من الدم شعرت بكثافته على يديَّ. كان هناك دمٍ على الجدران كذلك. أعتقد أن مسام جدران تلاتيلولكو مليئة بالدم، تلاتيلولكو كلها تتنفس دماً... كانت الأجساد تتمدد على الإسمنت تنتظر أن تُنقل. أحصيت الكثيرين من النافذة، حوالي ثمانية وستين. كانوا يكومونهم تحت المطر. تذكرت أن ولدي كارليتوس يرتدي سترة خضراء من القماش القطني واعتقدت أنني رأيته في جميع الجثث...»

1968: مكسيكو سيتي

ريبويلتاس Revueltas

كان هناك طيلة نصف قرن، لكنه يكرر كل يوم جريمة كونه شاباً. دائماً يحضر خوسيه ريبويلتاس في مركز أي اضطراب، وهو يشجب الآن مالكي القوة في المكسيك، الذين، بسبب حقد لا يتوقف على كل ما ينبض، وينمو، ويتغيّر، قتلوا ثلاثمائة طالب جامعي في تلاتيلولكو.

سادة الحكومة موتى. ذلك أنهم يقتلوننا.

في المكسيك، القوة تستوعب أو تدمِّر، تطلق برقاً مهلكاً بعناق أو لكمة، تودع في قبر أو سجن الحمقى الذين لا يمكن شراؤهم بالوظائف العاطلة[1]. ريبويلتاس، الذي لا سبيل إلى تقويمه، نادراً ما ينام خارج زنزانة، وحين يفعل ذلك، يمضي الليل متمدداً على مقعد ما في حديقة، أو على مقعد في الجامعة. هذا الذي تكرهه الشرطة لأنه ثوري، ويكرهه الدوغمائيون من جميع الأنواع لأنه حر، شجبه يساريون ورعون بسبب ولعه بالبارات الرخيصة. منذ فترة ليست طويلة زوّده رفاقه بملاك حارس لينقذه من الإغواء، لكن كان على الملاك أن يرهن جناحيه لكي يدفع من أجل إسرافهما معاً في الشراب.

1968: ضفتا النهر ياكوي

لم تعد الثورة المكسيكية هناك بعد الآن

هنود الياكي Yaqui، المحاربون طيلة قرون، استدعوا لاثارو كارديناس. التقوا به على نجد متألق ومشمس في شمال مكسيكو، قرب نهرهم المقدس.

وهم يقفون في ظل شجرة خبز[2] مورقة، رحّب به زعماء قبائل الياكوي الثماني. على رؤوسهم كان يتوهج الريش المحفوظ للمناسبات العظيمة.

هل تذكر، يا تاتا؟ مرّتْ ثلاثون سنة وهذه مناسبة عظيمة. تحدّث الزعيم الرئيسي: «*هل تتذكّر يا تاتا لاثارو؟ لقد أعدت لنا الأراضي. بنيت لنا مستشفيات ومدارس.*»

في نهاية كل جملة كان الزعماء يضربون الأرض بهراواتهم، وكان الصدى الجاف يترجّع عبر المرج.

هل تتذكر؟ نريدك أن تعرف، لقد أخذ الأغنياء الأراضي. حوِّلت المستشفيات إلى ثكنات. المدارس صارت حانات.

كان كارديناس يصغي ولا يقول شيئاً.

1968: مكسيكو سيتي

رولفو

في الصمت، تنبضُ مكسيك أخرى. خوان رولفو، راوي الحكايات عن مصائب الموتى والأحياء، يلوذ إلى الصمت. منذ خمس عشرة سنة قال ما كان عليه أن يقوله، في رواية قصيرة وبضع قصص قصيرة، ومذاك لم يقل أي شيء. أو مارس، بالأحرى، أعمق أنواع الحب، ثم خلد إلى النوم.

---

[1] – منصب لا يقوم صاحبه بأي عمل أو يقوم بعمل لا يتكافئ مع راتبه الكبير – المورد.

[2] شجر من فصيلة الخبزيات ذو ثمار كبيرة تشتمل على لب نشوي يستخدم كالخبز – المورد.

1969: ليما

أرغيداس Arguedas

شق أرغيداس جمجمته برصاصة. قصته هي قصة البيرو: مريضاً من البيرو، قتل نفسه.

ابن رجل وامرأة من البيض، نشأ خوسيه ماريا أرغيداس بين الهنود وتحدث الكيتشوا Quechua طوال طفولته. في سن السابعة عشرة، أبعد من سلسلة الجبال ونفي إلى المنطقة الساحلية ـ من البلدات الجماعية الصغيرة إلى المدن القائمة على الملكية.

تعلّم لغة المنتصرين قراءة وكتابة. لم يكتب مطلقاً عن المهزومين، وإنما، بالأحرى، منهم. عرف كيف يعبّر عنهم، كان عمله العظيم لعنة حلّت به. شعر أن كل شيء حوله كان خيانة وفشلاً، شعر أنه ممزّقٌ. لم يستطع أن يكون هندياً، ولم يرد أن يكون أبيض. لم يتحمل الازدراء أو أن يكون مزدرياً.

سار عابر السبيل الوحيد على حافة هاوية، بين عالمين معاديين. دهمته حالات ألم كثيرة، أسوأ من أي انزياح للطين والصخور، إلى أن غُلبَ في النهاية.

1969: بحر الهدوء

اكتشاف الأرض

وضعت المركبة الفضائية التي انطلقت من هوستون بتكساس ساقيها العنكبوتيتين الطويلتين على القمر. شاهد رائداً الفضاء أرمسترونغ وألدرين الأرض كما لم يرها أحد من قبل، الأرض التي لم تعد الصدر الكريم الذي يرضعنا الحليب والسم، وإنما حجرٌ أنيقٌ متجمدٌ يدور في عزلة الكون. بدت الأرض بدون أطفال، غير مسكونة، ربما غير مبالية، وكأنها لم تشعر بدغدغة واحدةٍ من الأهواء الإنسانية التي تحتشد على تربتها.

من خلال التلفزيون والراديو أرسل إلينا رائدا الفضاء كلمات مبرمجة عن الخطوة التي تقوم بها الإنسانية، بينما كان ينصبان راية الولايات المتحدة الأميركية على بحر الهدوء الحجري.

1969: بوغوتا

الأطفال الفقراء

الشارع منزلهم. إنهم قطط للقفز والصفع، عصافير للطيران، ديكة صغيرة للقتال. كانوا يتجولون في قطعان، في عصابات وينامون في عناقيد، مكومين مع بعضهم في صباحات متجمدة. يأكلون ما يسرقونه أو البقايا التي يتسولونها أو القمامة التي يعثرون عليها، لهم أسنان رمادية ووجوه حرقها البرد.

أرتورو ديناس من عصابة الشارع 22، يترك مجموعته، يتغذى من عرض عجيزته للصفع، فقط لأنه الأصغر، بقة الفراش، القرادة. قرر أنه سيصيب نجاحاً بشكل أفضل لوحده.

في إحدى الليالي، في ليلة كأية ليلة أخرى، ينسل أرتورو تحت مطعم، يمسك ساق فروج، يرفعها كراية، ويركض عبر الزقاق. حين يجد زاوية مظلمة يجلس ليتناول العشاء. يراقبه كلبٌ صغيرٌ ويلعق فكيه. يدفعه أرتورو بعيداً عدة مرات، لكن الكلب يعود، يفحصان بعضهما بعضاً: الاثنان متساويان، ولدا لا أحد، مضروبان، عظم وسخام. يتراجع أرتورو ويتقاسم الطعام معه.

مذاك، انطلقا سوية على أقدام مجنحة، يتقاسمان الخطر، الغنيمة، والقمل. أرتورو، الذي لم يتحدث مطلقاً مع شخص، ينفتح وينام الكلب الصغير ملتفاً عند قدميه.

في أحد الأيام الملعونة يقبض رجال الشرطة على أرتورو وهو يسرق الكعك ويقذفونه إلى الضاحية الخامسة ليتلقى ضرباً هائلاً. حين، عاد أرتورو، في الوقت الملائم، إلى الشارع، ممزقاً، لم يجد الكلب. ركض أرتورو جيئة وذهاباً، باحثاً بشكل وحشي في كل مكان، لكن الكلب لم يظهر. كثير من الأسئلة دون فائدة. كثير من النداء ولا شيء. لا أحد في العالم وحيد كهذا الطفل، الذي في السابعة، الوحيد في شوارع مدينة بوغوتا، الأجش من صراخ كثير.

1969: أية مدينة

أحدٌ ما

في زاوية، وفي ضوء أحمر، أحد ما يبلع النار، أحدٌ ما يغسل زجاج السيارات، شخص ما يبيع الكلينكس، العلكة، الرايات الصغيرة، ودمى تصدر صوتاً. شخص ما يصغي إلى الأبراج من الراديو، مسروراً من أن النجوم مهتمة به. وهو يسير بين الأبنية المرتفعة، شخصٌ ما يود أن يشتري الصمت أو الهواء، لكنه لا يملك نقوداً. في حي قذر، وسط حشود من الذباب في الأعلى وجيوش من الجرذان في الأسفل، شخصٌ ما يستأجر امرأة لمدة ثلاث دقائق. في زنزانة ماخور المُغتصَبُ يصبح مغتصباً، بدلاً من فعل ذلك مع حمار في النهر. شخص ما يتحدث مع لا أحد أمام التلفزيون. شخص ما يتحدث مع لا أحد مع رجل عصابات بذراع واحدة. أحد ما يسقي إناء من الأزهار البلاستيكية. أحد ما يصعد إلى باص فارغ، فجراً، والباص يبقى فارغاً.

1969: ريو دي جانيرو

الطرد من الأحياء الفقيرة

يرفضون الذهاب. كانوا أفقر الفقراء في الريف والآن هم الأفقر في المدينة، بشر بأيد رخيصة وأقدام راقصة. هنا، على الأقل، يعيشون قرب الأماكن التي يكسبون منها خبزهم. سكان برايا دو بنتو والأحياء الفقيرة الأخرى التي تغطي جبال ريو دي جانيرو أصبحوا عنيدين. لكن العسكر

نظروا طويلاً إلى تلك البقع، القابلة للبيع جداً والتي يمكن بيعها من جديد والمناسبة جداً للمضاربة، وهكذ ستُحل المشكلة بوساطة نار تنشب في الوقت المناسب. لم يأت رجال الإطفاء مطلقاً. الفجر هو ساعة الدموع والرماد. بعد أن دمرت النار المنازل المصنوعة من القمامة، كُنس البشر كالقمامة ونقلوا بعيداً إلى مقلب النفايات.

1969: بايخو غراندي Baixo Grande

قلعة من القمامة

كان العجوز غابرييل دوس سانتوس يفعل ما تأمره أحلامه. حلم في البرازيل الأحلام المجنونة نفسها التي حلمها أنطونيو جودي منذ عقود في كاتالونيا، في برشلونة البعيدة جداً، على رغم أن العجوز غابرييل لم يسمع مطلقاً بجودي ولم ير أعماله.

حالما يستيقظ، يبدأ العجوز غابرييل ويصنع، بيديه، الأعاجيب التي يراها في أحلامه قبل أن تهرب منه. وهكذا شيّد منزل الزهرة. وعاش فيه، على منحدر هضبةٍ تضربها رياح المحيط. من حلم إلى حلم، ومع مرور الزمن، تابع منزل العجوز غابرييل نموّه، هذه القلعة الغريبة، أو الوحش المؤلف من ألوان متوهجة وأشكال معقّدة، المصنوعة كلها من القمامة.

العجوز غابرييل، العامل في مناجم الملح، لم يذهب مطلقاً إلى المدرسة أو يشاهد التلفزيون أو يملك النقود. لا يعرف قواعد أو نماذج. يلعب، بأسلوبه الخاص والحر، بأية بقايا ترميها مدينة كابو فريو في طريقه: رفرافات، مصابيح أمامية، نوافذ وزجاجات محطّمة، صحون مكسورة، قطع قديمة من الحديد، أرجل كراس وعجلات...

1969: أركي باس Arque Pass

العمل المثير الأخير للطيار بارييتوس

قال الرئيس بارييتوس إن الكاردينال موريز هو مثل القديس بولس، لأنه يطوف في الريف البوليفي ويقدم الحقائق. كذلك يقدم بارييتوس النقود وألعاب كرة القدم. يأتي ويذهب، يمطر أوراقاً نقدية من المروحية. منحت شركة غلف أويل المروحية لبارييتوس مقابل ما يعادل بليوني دولار من الغاز وبليوناً من النفط منحها بارييتوس للشركة.

على نفس المروحية، دار بارييتوس بجسد تشي غيفارا مربوطاً إلى مزلقتها في سماوات بوليفيا. في هذه المروحية وصل بارييتوس إلى أركي باس في إحدى رحلاته التي لا تتوقف، وكالعادة رمى النقود إلى الفلاحين، ولكن، عند الإقلاع، اصطدم بسلك سياج وتحطمت طائرته على الصخور واحترق وهو على قيد الحياة. بعد حرق صور وكتب كثيرة، مات بارييتوس محترقاً حتى الهشاشة في مروحيته، مليئاً إلى الحافة بالأوراق المالية التي احترقت معه.

1969: سان سلفادور وتيغوسيغالبا

مباراتا كرة قدم مضطربتان

حدثت مباراتان مضطربتان بين هندوراس والسلفادور. نقلت سيارات الإسعاف الموتى والجرحى عن المدرج، بينما تابعت المراوح زئير الاستاد في الشوارع.

على الفور، قطع البلدان العلاقات. في تيغوسيغالبا، حملت واجهات السيارات ملصقات تقول: *هندوراس، احملي عصا، كوني رجلاً واقتلي سلفادورياً*. في سان سلفادور، حثت الصحف الجيش على غزو هندوراس *لتلقين أولئك البرابرة درساً*. طردت هندوراس الفلاحين السلفادوريين، الذين لا يدركون تقريباً أنهم أجانب ولم يشاهدوا مطلقاً بطاقات شخصية. أجبرت الحكومة الهندوراسية السلفادوريين أن يغادروا دون أي شيء سوى ثيابهم، ثم أحرقت أكواخهم، ووصفت الطرد بأنه إصلاح زراعي. اعتبرت حكومة سان سلفادور جميع الهندوراسيين الذين يعيشون على أراضيها جواسيس.

نشبت الحرب على الفور. عبر جيش السلفادور الحدود إلى هندوراس وتقدّم فاتحاً نيران الرشاشات على القرى الحدودية.

1969: سان سلفادور وتيغوسيغالبا

حرب كرة القدم

صُنّعتْ عداوة بين قطعتين من أميركا الوسطى، تفتت ما كان جمهورية واحدة منذ قرن ونصف.

كان يهيمن على هندوراس، البلد الزراعي الصغير، ملاك أرض كبار.

كانت السلفادور بلداً زراعياً صغيراً ، يهيمن عليه ملاّك أرض كبار.

لم يملك فلاحو هندوراس الأرض أو العمل.

لم يملك فلاحو السلفادور الأرض أو العمل.

في هندوراس ديكتاتورية عسكرية ولدت من انقلاب عسكري.

درِّبَ الجنرال الذي يحكم هندوراس في مدرسة الأميركيتين في بنما.

دُرِّبَ الجنرال الذي يحكم السلفادور في مدرسة الأميركيتين في بنما.

من الولايات المتحدة جاءت الأسلحة والمستشارون إلى ديكتاتور هندوراس.

من الولايات المتحدة جاءت أسلحةٌ ومستشارون إلى ديكتاتور السلفادور.

اتهم ديكتاتور السلفادور ديكتاتور هندوراس بأنه شيوعي يدفع له فيديل كاسترو.

استمرت الحرب أسبوعاً. بينما كانت الحرب تتواصل، اعتقد شعب هندوراس أن عدوه هو شعب السلفادور الذي اعتقد بدوره أن عدوه هو شعب هندوراس.

قتل أربعة آلاف شخص في ساحة المعركة.

1969: بورت آبرنس

قانون يحكم بالموت على أي شخص يتفوه بكلمات حمراء أو يكتبها في هاييتي

المادة الأولى: تعتبر النشاطات الشيوعية جرائم ضد أمن الدولة مهما كانت صيغتها: أية مهنة إيمان شيوعي، شفهية أو مكتوبة، علنية أو خاصة، أي نشر للمذاهب الشيوعية أو الفوضوية من خلال المحاضرات والخطابات، والأحاديث، والقراءات، اللقاءات العامة أو الخاصة، من خلال النشرات، الملصقات، الصحف، المجلات، الكتب والصور، أي تواصل شفهي أو مكتوب مع مؤسسات محلية أو أجنبية، أو مع أشخاص ينشرون الأفكار الشيوعية أو الفوضوية، والأكثر من ذلك، فعل تلقي، وجمع، أو منح تمويل مخصص، بشكل مباشر أو غير مباشر، لنشر الأفكار التي سبق ذكرها.

المادة الثانية: كل من يقوم أو يشترك في ارتكاب هذه الجرائم سيحكم عليه بالإعدام. ستصادر أملاكه المنقولة وغير المنقولة وتباع لصالح الدولة.

الرئيس فرانسوا دو فالييه

رئيس جمهورية هاييتي مدى الحياة.

1970: مونتيفيديو

صورة مدرب تعذيب

أعدم ثوار توبامارو دان أنطوني متريوني، أحد المدرسين الأميركيين الشماليين لشرطة الأوروغواي.

قدم الميت مناهجه الدراسية إلى ضباط في قاعدة عازلة للصوت. من أجل دروسه العملية استخدم الشحاذين والعاهرات وأنجزت بعض الدروس في الشارع. أظهر لطلابه تأثيرات فولتات كهربائية متنوعة على أكثر أجزاء الجسد حساسية، وشرح لهم كيفية استخدام المواد المقيِّئة ومواد كيماوية أخرى بشكل فعّال. في الأشهر الأخيرة مات ثلاثة رجال وامرأة في أثناء تلك الدروس الخاصة بتقنية الاستجواب.

كان متريوني يحتقر الفوضى والقذارة. ينبغي أن تكون غرفة التعذيب معقمة كغرفة العمليات. كان يمقت اللغة غير الصحيحة: *«ليس بيضات أيها الفوض وإنما خصيتان»*. كان يبغض أيضا الكلفة التي لا فائدة منها، الحركة غير الضرورية، الأذى الذي يمكن تجنبه.

قال: *«إنه فن أكثر مما هو تقنية. الألم المحدد في المكان المحدد، بالكمية المحددة.»*

1970: ماناغوا

روغاما

تلقى شاعر مميز، وهو رجل صغير يرتدي مدرعة[1]، العشاء الرباني واقفا، أطلق رصاصته الأخيرة ومات وهو يقاوم كتيبة كاملة من قوات سوموزا.

كان ليونيل روغاما في العشرين من عمره.

من بين الأصدقاء، كان يفضل لاعبي الشطرنج.

من بين لاعبي الشطرنج، كان يفضل الذين يخسرون بسبب فتاة عابرة.

من بين العابرين، الذي يبقى.

من بين الذين يبقون كان يفضل الذي لم يصل بعد.

من بين الأبطال، كان يفضل أولئك الذين لا يقولون إنهم يموتون من أجل بلادهم.

من بين البلدان، البلد الذي يولد من موته.

1970: سانتياغو دي تشيلي

مشهد طبيعي بعد الانتخابات

في عرض لسلوك سيىء لا يغفر، انتخب الشعب التشيلي سلفادور الليندي رئيسا. قدم رئيس آخر لشركة الهاتف والتلغراف العالمية مليون دولار لكل من يستطيع أن ينهي هذا العار، بينما خصص رئيس الولايات المتحدة عشرة ملايين دولار للمسألة. طلب ريتشارد نيكسون من وكالة الاستخبارات المركزية أن تمنع سلفادور الليندي من الجلوس على كرسي الرئاسة، وإذا جلس، أن يفهم أن الكرسي لن يبقى تحته طويلا.

رفض الجنرال ريني شنايدر، قائد الجيش، دعوة إلى انقلاب عسكري وقتل في كمين. قال الليندي:

«كانت تلك الرصاصات تستهدفني.»

علقت القروض من البنك الدولي ومن جميع البنوك الأخرى الرسمية والخاصة، عدا تلك الخاصة بالجيش. هبط سعر النحاس.

---

[1] – رداء كهنوتي أبيض.

من واشنطن، شرح وزير الخارجية هنري كيسنجر: «*لا أعرف لماذا يتوجب علينا أن نقف جانبا ونترك بلادا تصبح شيوعية بسبب غياب المسؤولية لدى شعبها.*»

1971: سانتياغو دي تشيلي

دونالد دك

نشر دونالد دك وأبناء أخيه فضائل الحضارة الاستهلاكية بين متوحشي بلد متخلف من خلال بطاقات صور مشاهد طبيعية. قدم أبناء أخ دونالد فقاعات صابون للسكان المحليين الأغبياء مقابل كتل من الذهب الخالص، بينما كان العم دونالد يقاتل الثوريين الخارجين عن القانون الذين يزعجون النظام.

من تشيلي، كانت توزع مسلسلات وولت ديزني الهزلية في جميع أنحاء أميركا الجنوبية وتدخل أرواح الملايين من الأطفال. لم يقف دونالد دك ضد الليندي وأصدقائه الحمر، لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك. كان عالم ديزني حديقة الحيوان المحبوبة للرأسمالية: البط، الفئران، الكلاب، الذئاب، والخنازير الصغيرة تقوم بالعمل، تشتري، تبيع، تستجيب للإعلانات، تحصل على الرصيد، تقوم بالواجبات، تجمع الحصص، تحلم بالإرث، وتتنافس فيما بينها لتملك أكثر وتحصل على المزيد.

1971: سانتياغو دي تشيلي

«أطلقوا النار على فيديل»

أمرت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية اثنين من عملائها أن يطلقا النار على فيديل. بدت كاميرات تلفزيونية معينة تخبئ مسدسات أوتوماتيكية كأنها منشغلة بتصوير زيارة فيديل كاسترو إلى تشيلي. وجه العميلان العدسات إلى فيديل، وضعاه في مدى رؤيتها ـ لكن كلاهما لم يطلق النار.

طيلة سنوات، كان أخصائيو قسم الخدمات التقنية في وكالة الاستخبارت المركزية يحلمون بالقيام بهجمات على فيديل. بددوا ثروات مجربين كبسولات مسمومة في الشكولاتة، وحبوبا تنحل في البيرة والرم لا يمكن اكتشافها حين تشرح الجثة. جربوا البازوكا وبنادق مزودة بمنظار، قنبلة وزنها ثلاثون كيلو غراما كان على عميل أن يزرعها في مجرور تحت منصة المتحدث. جربوا حتى السيجار المسموم: صنعوا سيجار هافانا خاصا لفيديل ـ من المفترض أن يقتل حالما يلمس الشفتين. لكن هذا لم ينجح، وهكذا جربوا سيجارا آخر من المضمون أن يسبب الغثيان، والأسوأ من ذلك صوتا بنبرة مرتفعة ـ وإذا لم يستطيعوا قتله كانوا يأملون أن يقتلوا، على الأقل، هيبته. ومن أجل ذلك أيضا حاولوا أن يرشوا على مكبر الصوت بودرة تحرض، في منتصف الكلام، على

التفوه بكلام هراء، ثم، كرصاصة رحمة، حضروا مزيلا للشعر ليجعلوا لحيته تسقط، ويعروه أمام الحشد.

1972: ماناغوا

شركة نيكاراغوا

كان السائح يصل بطائرة أو سفينة لسوموزا وينزل في أحد فنادق سوموزا في العاصمة. حين يتعب، ينام في سرير وعلى مخدة صنعهما سوموزا. حين يستيقظ، يشرب قهوة بريستو، التي يملكها سوموزا، بحليب من أبقار سوموزا وسكر من مزرعة سوموزا مكرر في طواحينه. يشعل عود ثقاب أنتجته شركة سوموزا، مومونتمبو، ويجرب سيجارة من إنتاج شركة التبغ النيكاراغوية التي يمتلكها سوموزا باشتراك مع شركة التبغ البريطانية الأميركية.

يخرج السائح ليبدل نقودا في مصرف لسوموزا ويشتري صحيفة سوموزا اليومية نوبيداديس Novedades. كانت قراءة نوبيداديس عملا مستحيلا، وهكذا يرمي الصحيفة إلى القمامة لتجمعها، في الصباح الباكر، شاحنة مرسيدس استوردها سوموزا.

يركب السائح أحد باصات كوندور التابعة لسوموزا، يأخذه إلى فتحة بركان ماسايا. متدحرجا نحو القشرة النارية، يرى من النافذة أكواخ الصفيح والطين حيث تعيش الأيدي الرخيصة والقذرة التي يستخدمها سوموزا.

يعود السائح حين يخيم الليل. يشرب رما قطره سوموزا، بثلج من شركة سوموزا التي تدعى بولار، يأكل لحما من أحد عجوله، الذي ذبح في أحد مسالخه، بأرز من إحدى مزارعه وسلطة متبلة بزيت كورونا، الذي يملكه، بشكل مشترك، سوموزا ويونايتد براندز.

بعد منتصف الليل ينفجر البركان. وربما يكون السائح واحدا من بين اثني عشر ألفا من الموتى. إذا لم ينته في أحد القبور الجماعية، سوف يرقد بسلام في تابوت من مؤسسة سوموزا لدفن الموتى، يلف بكفن من نسيج إل بورفنير، الذي تعود ملكيته إلى...

1972: ماناغوا

ابن سوموزا الآخر

توقفت ساعة الكاتدرائية إلى الأبد في تلك الساعة التي رفع فيها الزلزال المدينة في الجو. هز الزلزال ماناغوا ودمرها.

في وجه هذه الكارثة، برهن تاتشيتو سوموزا على فضائله كرجل دولة وكرجل أعمال. أصدر مرسوما يقضي بأن يعمل البناؤون ستين ساعة في الأسبوع دون زيادة سنتافو واحد وصرح: «*هذه ثورة الفرص*».

تاشيتو، ابن تاتشو سوموزا، أطاح بأخيه لويس عن عرش نيكاراغوا. وكونه خريجا من ويست بوينت كانت له مخالب أكثر حدة. على رأس عصابة شرسة من أبناء عم من الدرجة الثانية وأعمام من الدرجة الثالثة، انقض على الأنقاض. لم يبتكر الزلزال، لكنه حصل على زلزاله منه.

مأساة نصف مليون مشرد هي هدية رائعة لسوموزا هذا، الذي يتاجر، بشراهة، بالحطام والأراضي، وكأن هذا لا يكفي، باع في الولايات المتحدة الدم الذي تبرع به للضحايا الصليب الأحمر الدولي. فيما بعد، يواصل خطته المربحة القذرة مظهرا المزيد من المبادرة وروح المشاريع أكثر من الكونت دراكولا، ويؤسس شركة محدودة لشراء دم رخيص في نيكاراغوا وكان يبيعه بسعر مرتفع في السوق الأميركية الشمالية.

لؤلؤة حكمة لتاشيتو سوموزا

لا أظهر نقودي كرمز للقوة، وإنما كرمز فرص عمل للنيكاراغويين.

1972: سانتياغو دي تشيلي

تشيلي تحاول أن تولد

تظاهر مليون إنسان في شوارع سانتياغو دعما لسلفادور الليندي وضد البرجوازيين المحنطين الذين يتظاهرون بأنهم أحياء وتشيليون.

بشر في النار، بشر يكسرون عادة المعاناة. وهي تبحث عن نفسها، استعادت تشيلي نحاسها، وحديدها، ونتراتها، ومصارفها، وتجارتها الخارجية، واحتكاراتها الصناعية. أممت أيضا النظام الهاتفي ITT ودفعت المبلغ الصغير الذي قالت شركة ITT أنه كانت له قيمة مالية في عائداتها الضريبية.

1972: سانتياغو دي تشيلي

صورة شركة متعددة القوميات

اخترعت ITT تلسكوبا لرصد الثوار في الظلام، لكنها لم تحتاجه للعثور عليهم في حكومة تشيلي ـ كانت تحتاج فقط إلى النقود، التي تصرف منها الشركة الكثير ضد الرئيس الليندي. أظهرت التجربة الحديثة كم هي جديرة بالاهتمام: الجنرالات الذين يحكمون الآن البرازيل دفعوا لـ ITT أكثر بعدة مرات من الدولارات التي استثمرت للإطاحة بالرئيس غولارت Goulart .

كانت ITT، بعمالها ومسؤوليها الأربعمائة في سبعين بلدا، تكسب أكثر من تشيلي. وكان يجلس في هيئة مدرائها رجال كانوا سابقا مدراء وكالة الاستخبارات المركزية والبنك الدولي. وهي تدير مشاريع عديدة في جميع القارات. تنتج الأجهزة الإلكترونية وأسلحة متطورة، تنظم أنظمة

اتصالات وطنية ودولية، تشترك في الطلعات الفضائية، تقرض النقود، تنفذ صفقات تأمين، تستغل الغابات، تقدم للسياح سيارات وفنادق، وتصنع الهواتف والديكتاتوريات.

1973: سانتياغو دي تشيلي

الفخ

في الحقيبة الدبلوماسية جاءت الدولارات التي مولت الإضرابات، التخريب، والأكاذيب. شل رجال الأعمال تشيلي وحرموها من الطعام. ولم تكن هناك سوق إلا السوق السوداء. كان على البشر أن يقفوا في صفوف طويلة من أجل علبة سجائر أو كيلو من السكر. كان الحصول على اللحوم أو الزيت يتطلب معجزة من العذراء مريم الأكثر قداسة. شتم الديموقراطيون المسيحيون وصحيفة إل مركوريو الحكومة وطلبا علنا انقلابا عسكريا علاجيا، بما أن الوقت حان للانتهاء من الطغيان الأحمر. رددت الصحف، المجلات، والإذاعة والتلفزيون صدى الصرخة. كان من الصعوبة بالنسبة للحكومة أن تقوم بأية حركة مهما كانت: توتر القضاة والبرلمانيون بينما كان رجال الجيش الحقيقيون في الثكنات، الذين اعتقد الليندي أنهم مخلصون، يتآمرون ضده.

في هذه الأوقات العصيبة، اكتشف العمال أسرار الاقتصاد. تعلموا أنه ليس من المستحيل الإنتاج بدون رؤساء أو أن يزودوا أنفسهم دون تجار. لكنهم تقدموا دون أسلحة، فارغي الأيدي، على طريق الحرية ذاك.

في الأفق كانت تبحر سفن حربية أميركية تستعد لعرض نفسها قبالة الساحل التشيلي. ثم حدث الانقلاب العسكري، الذي أنذر به كثيرا.

1973: سانتياغو دي تشيلي

الليندي

يحب الحياة الجيدة. قال مرات كثيرة إنه لا يملك ما يجعله حواريا أو شهيدا. لكنه قال كذلك إنه من المجدي الموت من أجل ذلك الشيء الذي بدونه ليس من المجدي أن يعيش المرء.

طلب الجنرالات المتمردون استقالته. قدموا له طائرة لتنقله خارج تشيلي. حذروه أن القصر الرئاسي سوف يقصف.

مع حفنة من الرجال، أصغى سلفادور الليندي للأنباء. هيمن الجنرالات على البلاد. ارتدى الليندي خوذة وجهز بندقيته. سقطت القنابل الأولى وأحدثت اهتزازات. تحدث الرئيس من خلال الراديو للمرة الأخيرة:

«*لن أستقيل...*»

1973: سانتياغو دي تشيلي

ستنفتح ممرات كبيرة، أعلن سلفادور الليندي في رسالته الأخيرة

لن أستقيل. في هذه اللحظة التاريخية الحرجة، سأضحي بحياتي من أجل ولاء الشعب. ودعوني أخبركم بأنني واثق من أن البذرة التي بذرناها في الضمير المبجل للتشيليين لن تدمر بالتأكيد. يمتلكون القوة. يمكن أن ينتصروا علينا، لكن المسيرات الاشتراكية لا يمكن إيقافها بالجريمة أو القوة. التاريخ لنا والشعب يصنعه...

يا عمال بلادي: أنا أؤمن بتشيلي ومصيرها. سيتغلب بشر آخرون على هذه اللحظة الرمادية والمرة التي تحاول الخيانة فيها أن تفرض نفسها. كونوا متأكدين، أنه عاجلا لا آجلا، ستنفتح ممرات كبيرة ومرة أخرى ستمر منها الإنسانية الحرة لتبني مجتمعا أفضل. تعيش تشيلي! يعيش الشعب، يعيش العمال! هذه هي كلماتي الأخيرة. أنا واثق أن تضحيتي لن تذهب عبثا.

1973: سانتياغو دي تشيلي

إعادة غزو تشيلي

تصاعدت سحابة سوداء كبيرة من القصر الملتهب. مات الرئيس الليندي في موقعه بينما كان الجنرالات يقتلون التشيليين بالآلاف. لم تسجل أمانة السجل المدني أسماء الموتى لأن الدفاتر لم تكن تتسع لها، لكن الجنرال توماس أوباثو سانتاندر قدم ضمانات بأن عدد الضحايا لم يصل إلى نسبة 0.1٪ من عدد السكان، وهذه ليست، في النهاية، كلفة اجتماعية عالية. شرح مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، ويليم كولبي، في واشنطن، أنه بفضل عمليات الإعدام تجنبت تشيلي حربا أهلية. أما السيدة بينوشيه فقد صرحت أن دموع الأمهات سوف تخلص البلاد.

تولى السلطة مجلس عسكري مؤلف من أربعة عناصر شكل في مدرسة الأميركيتين في بنما. ترأسه الجنرال أوغستو بينوشيه، بروفيسور الجيبولوتيكا. دوت الموسيقى العسكرية إزاء خلفية من الانفجارات وطلقات الرشاشات. أذاعت الإذاعات مرسومات وتصريحات وعدت بالمزيد من سفك الدماء، بينما ارتفع فجأة سعر النحاس في السوق العالمية.

سأل الشاعر بابلو نيرودا، الذين كان يحتضر، عن أخبار الإرهاب الجديد. نجح في أن ينام في غضون لحظات وهذى في أثناء نومه. الصلوات والحلم كابوس واحد كبير. منذ أن سمع وداع سلفادور الليندي الذي يعبر عن كبرياء في المذياع، بدأ الشاعر آلام احتضاره.

1973: سانتياغو دي تشيلي

منزل الليندي

قبل أن يهاجموا القصر الرئاسي، قصفوا منزل الليندي. فيما بعد، مسح الجنود كل ما تبقى. بالحراب شقوا اللوحات التي رسمها ماتا، وخواياسامين، وبورتوكاريرو، وسحقوا الأثاث بالفؤوس.

مر أسبوع. أصبح المنزل كومة قمامة. تناثرت أذرع وأرجل من بذلات الدروع، التي تزين الدرج، في كل مكان. نام جندي في غرفة النوم ليستريح من إسرافه في الشراب، منفرج الساقين ومحاطا بالزجاجات الفارغة.

جاء من حجرة الجلوس أنين ولهاث. هناك، على كرسي كبير، ممزق لكنه لا يزال منتصبا، كانت كلبة الليندي تنجب. الجراء، التي لا تزال عمياء، تزحف من أجل الدفء والحليب. تلعقها الكلبة.

1973: سانتياغو دي تشيلي

منزل نيرودا

وسط الدمار، في منزل تحول أيضا إلى أشلاء، كان نيرودا يستلقي، ميتا من السرطان، ميتا من الأسى. لم يكن موته كافيا، رغم أن نيرودا رجل حي بعناد، وهكذا يجب أن يقتل العسكر أشياءه. سحقوا سريره السعيد وطاولته السعيدة، انتزعوا أحشاء فرشته وحرقوا كتبه، سحقوا مصابيحه وزجاجاته الملونة، آنيته ولوحاته، وأصدافه. انتزعوا بندول وعقارب ساعته الجدارية، وبحربة اقتلعوا عين زوجته في الصورة.

من منزله المدمر، الذي طاف بالوحل والماء، غادر الشاعر إلى المقبرة. رافقته حاشية من الأصدقاء المقربين، تقودهم ماتيلدي أوروتيا Matilde Urrutia. (قال لها مرة: *كان جميلا أن أعيش بينما أنت تعيشين*).

بعد كل فرسخ كانت الحاشية تزداد. عند كل زاوية انضم إليها بشر رغم الشاحنات العسكرية المليئة بالرشاشات ورغم حاملي القربينات والجنود الذي يروحون ويغدون على الدراجات النارية أو في السيارات المصفحة، ويصدر عنهم الخوف والضجة. خلف نافذة ما، يد تحيي. عاليا على شرفة ما يد تلوح بمنديل. كان ذلك هو اليوم الثاني عشر بعد الانقلاب، اثنا عشر يوما من السجن والموت، وللمرة الأولى سمع النشيد الوطني في تشيلي ـ طن النشيد الوطني، أن وبكى، لكنه لم يغن إلى أصبحت الحاشية موكبا والموكب مظاهرة، والبشر، الذين يتقدمون ضد الخوف، غنوا في شوارع سانتياغو، بأعلى صوت، بجميع أصواتهم، ليواكبوا، بطريقة ملائمة، نيرودا، الشاعر، شاعرهم، في رحلته الأخيرة.

1973: ميامي

النزعة الاستهلاكية المقدسة ضد تنين الشيوعية

ولد حمام الدم في تشيلي الخوف والقرف في كل مكان، لكنه لم يفعل ذلك في ميامي: مظاهرة شديدة الابتهاج قام بها كوبيون منفيون احتفلت بقتل الليندي وجميع الآخرين.

كان في ميامي، في ذلك الوقت، أكبر مخيم للكوبيين في العالم باستثناء هافانا. الشارع الثامن هو كوبا التي كانت. تلاشت الأحلام بإسقاط فيديل، ولكن حين يسير المرء في الشارع الثامن فإنه يعود إلى الأيام القديمة الطيبة المفقودة.

كان زعماء المافيا والصرافون يديرون المشهد. كل من يفكر هو مجنون أو شيوعي خطير، ولا يزال السود يعرفون مكانهم. حتى الصمت هنا عالي النغمة. تصنع الأرواح البلاستيكية وسيارات اللحم والدم. أما في السوبرماركات فإن الأشياء تشتري البشر.

1973: ريسيف Recife

مديح الذل

في عاصمة الشمال الشرقي البرازيلي حضر خيلبرتو فريري Gilberto Freyre، افتتاح مطعم سمي باسم كتابه الشهير، **المنزل الكبير ومساكن العبيد**. هنا، احتفل الكاتب بالذكرى الأربعين لطبعة الكتاب الأولى.

لبس الخدم الذين خدموا الموائد كالعبيد. خلق الجو بالسياط، والأغلال، والمخالع، والقيود، والأطواق الحديدية التي تتدلى على الجدران. شعر الضيوف بأنهم عادوا إلى عصر متفوق حين كان الأسود يخدم الأبيض دون أي مزح، كما يخدم الابن الأب، والمرأة زوجها، والمدني الجندي، والمستعمرة الوطن.

كان ديكتاتور البرازيل يفعل كل ما هو مناسب ليسرع تلك النهاية. ولقد صفق خيلبرتو فريري لذلك.

1974: برازيليا

عشر سنوات بعد إعادة فتح البرازيل

الاقتصاد يسير بشكل جيد جدا. أما البشر، فأمورهم في غاية السوء. وفقا للإحصاءات الرسمية، جعلت الديكتاتورية العسكرية البرازيل قوة اقتصادية بمؤشر نمو مرتفع لمنتجها القومي الإجمالي. وأظهرت أيضا أن عدد البرازيليين الناقصي التغذية ارتفع من 27 مليونا إلى 72 مليونا، منهم ثلاثة عشر مليونا أضعفهم الجوع بحيث لم يعودوا قادرين على الركض.

1974: ريو دي جانيرو

تشيكو

هذا الديكتاتور يؤذي البشر ويفكك الموسيقى. تشيكو بواركي Chico Buarque، المصنوع من البشر والموسيقى يغني ضد ذلك.

من بين كل ثلاث أغان يكتبها، يحظر الرقيب أو يمزق اثنتين. وتقريبا كل يوم، كان البوليس السياسي يحقق معه مطولا. حين يدخل مكاتبهم، يفتشون ثيابه. حين يغادر، يبحث تشيكو في أحشائه ليرى إن كان البوليس قد وضع رقيبا في روحه أو، في لحظة غفلة، صادر متعته.

1974: غواتيمالا سيتي

بعد عشرين عاما من إعادة فتح غواتيمالا

ظهرت في البلدات والمدن صلبان حوارية على الأبواب، وعند جوانب الطرق علقت الرؤوس على الأوتاد. وكدرس وتحذير، تحولت الجريمة إلى مشهد عام. وكان الضحايا يجردون من الاسم والتاريخ، ثم يرمون في فوهة بركان أو في قاع البحر، أو يدفنون في قبر جماعي تحت نقشNN، الذي يعني Non Nato، الذي يعني: لم يولد. وكان إرهاب الدولة هذا يمارس في معظم الأحيان بدون بزة. كان يدعى اليد، الظل، وميض البرق، الجيش السري المضاد للشيوعية، أمر الموت، سرية الموت.

الجنرال لاوخيرود، الذي جاء حديثا إلى الرئاسة بعد انتخابات مزيفة، تعهد أن يطبق في غواتيمالا التقنيات التي برع بها البنتاغون في فييتنام. غواتيمالا هي المختبر الأميركي اللاتيني الأول للحرب القذرة.

1974: غابات غواتيمالا

الكتزل

كان طائر الكتزل دائما متعة الجو في غواتيمالا. استمر الأكثر تألقا بين الطيور رمزا لهذه البلاد، على رغم أنه من النادر أن يشاهد الآن في الغابات المرتفعة حيث ازدهر مرة. كانت طيور الكتزل تموت فيما العقبان تتكاثر. كان العقاب، الذي يملك أنفا جيدا يشم الموت من بعيد، يكمل عمل الجيش، ويتبع الجلادين من قرية إلى أخرى، دائرا بلهفة.

هل سيحل العقاب، عار السماء، مكان الكتزل على ورق العملة، في النشيد الوطني، على الراية؟

1974: إكسكان Ixcan

صف للتربية السياسية في غواتيمالا

عبر المغاوير الحدود مليئين بالديدان وغياب اليقين. كانت تلك الظلال المجوّعة، تسير في الظلام طيلة أيام تحت سقف من الأشجار حجب عنها الشمس. وبدلاً من الساعة استخدموا أصوات الدغل: كان السبد يغنّي من النهر معلناً الفجر، وفي الغسق تبدأ الببغاوات وطيور المقو ثرثرتها الفضائحية، وحين يخيّم الليل تصرخ الغريرات وتسعل طيور القوطيّ. وفي هذه المناسبة، وللمرة الأولى طول شهور، يسمع رجال العصابات ديكاً يصيح. ثمة قرية قريبة.

كان في تلك القرية الجبلية، مالك يدعى نمر إكسكان Ixcan هو الرئيس. وكمثل أسياد هذه الأرض الآخرين، أُعفي من القانون والمسؤولية الإجرامية. في مزارعه هناك مشانق، وأسواط ومخلعة. وحين تكون قوة العمل المحلية غير كافية، يرسل إليه الجيش هنوداً بالمروحيات، لكي يقطعوا الشجر أو يقطفوا البن دون أي مقابل.

قلة رأت نمر إكسكان. الجميع يخشونه. قتل كثيرين، وأمر بقتل كثيرين.

جمع المغاوير الهنود وأطلعوهم على ذلك. حين مات النمر بدا كأنه بزة فارغة.

1974: يورو

مطر

رأى الكثير من الموت في تشيلي، أعدم أصدقاؤه الأعزاء رمياً بالرصاص، ضُربوا، أو رُفسوا حتى الموت. أنقذ خوان بستوس، أحد مستشاري الرئيس الليندي، نفسه بشعرة.

منفياً في هوندوراس، يجر خوان أيامه. من بين أولئك الذين ماتوا في تشيلي، كم مات بدلاً عنه؟ ممن يسرق الهواء الذي يتنفسه؟ بقي على هذه الحال شهوراً، جاراً نفسه من ألم إلى آخر، يشعر بالعار من بقائه على قيد الحياة، حين، في مساء ما، أخذته قدماه إلى بلدة تُدعى يورو، في أعماق هندوراس الوسطى.

وصل إلى يورو دون أي سبب محدد، وفي يورو أمضى الليل تحت سقف قديم. كان ينهض باكراً ويبدأ السير دون حماسة عبر الشوارع المتسخة، خائفاً من الكآبة، محدقاً دون مشاهدة.

فجأة، ضربه المطر، الذي كان عنيفاً بحيث أن خوان غطى رأسه، ملاحظاً أن هذا المطر الضخم ليس ماء أو برداً. كانت أضواء فضية مجنونة تقفز على الأرض وتقفز عبر الهواء.

«*إنها تمطر أسماكاً*!» صرخ خوان، لاطماً الأسماك الحية التي تسقط من الغيوم وتقفز وتتلألأ حوله. ولن يخطر له مطلقاً مرة أخرى أن يلعن معجزة كونه حياً، لن ينسى بتاتاً مرة أخرى أنه محظوظ لأنه ولد في أميركا.

«*هذا صحيح*»، قال جارٌ، بهدوء، وكأن الأمر ليس شيئاً. «*هنا في يورو تمطر أسماكاً.*»

1975: سان سلفادور

ميغيل في السبعين

كل يوم من الحياة هو نغم موسيقي غير قابل للتكرار يضحك على الموت. ولأن ميغيل الخطير لا يزال على قيد الحياة، قرر سادة السلفادور استئجار قاتل لكي يرسل حياته وموسيقاه إلى مكان آخر.

أخبأ القاتل خنجراً تحت قميصه. كان ميغيل جالساً يتحدث إلى طلاب الجامعة ويقول لهم إن الشبان يجب أن يأخذوا مكان الكبار المنهكين، يجب أن يعملوا ويجازفوا بأعناقهم، ويفعلوا ما ينبغي فعله دون إصدار أصوات كما تفعل الدجاجات حين تبيض. انسل القاتل ببطء عبر الجمهور إلى أن وقف خلف ميغيل. ولكن حين رفع السكين، صرخت امرأة فرمى ميغيل آلياً نفسه على الأرض، وتجنب الطعنة.

هكذا حصلت الولادة الثانية عشر لميغيل مارمول، في سن السبعين.

1975: سان سلفادور

روكي Roque

نجا روك دالتون Roque Dalton، تلميذ ميغيل مارمول في فن الانبعاث، مرتين من الموت إزاء حائط. أنقذ مرة لأن الحكومة سقطت، وفي المرة الثانية لأن الحائط انهار بفضل زلزال حدث في الوقت المناسب. نجا أيضاً من الجلادين، الذين تركوه في شكل سيىء لكن حياً، ومن رجال الشرطة، الذين طاردوه ببنادق ملتهبة. نجا كذلك من رمي الحجارة، من غضب امرأة وبِّختْ، ومن أزواج عديدين متعطشين للانتقام.

فضل الشاعر العميق واللعوب روكي دالتون أن يضحك على نفسه بدلاً من أن يتعامل مع الحياة بجدية كاملة، وهكذا أنقذ نفسه من التفخيم، والرزانة، وأمراض أخرى أصابت، بشكل خطير، الشعر السياسي الأميركي اللاتيني.

لكنه لم يستطع أن ينقذ نفسه من أصدقائه الذين حكموا عليه بتهمة الاختلاف في الرأي. تلك الرصاصة، الوحيدة التي استطاعت أن تعثر على روكي، أتت من جانبه تماماً.

1975: نهر الأمازون

مشهد استوائي

كانت السفينة تتحرك ببطء صاعدة في نهر الأمازون في تلك الرحلة اللانهائية من بيليم إلى مناؤس. بين فينة وأخرى، كان يظهر كوخٌ ما مغطّى بالنبات المتعرّش، ويلوِّح طفلٌ عار بيده

للطاقم. على سطح السفينة المزدحم شخصٌ ما يقرأ، بصوت مرتفع، الإنجيل، مدائح طنّانة لله، لكن معظم البشر فضّلوا أن يضحكوا ويغنّوا بينما الزجاجات والسكائر تعبر من فم إلى آخر. كوبرا مروّضة لفت نفسها على العارضات الحديدية المتقاطعة، تحك جلود أخوة ميتين يتجففون في الهواء. كان مالك الكوبرا، يجلس على سطح السفينة، ويتحدّى المسافرين الآخرين للعب الورق.

صحفي سويسري كان يسافر في هذه السفينة، راقب، طول ساعات، عجوزاً فقيراً ونحيلاً يعانق علبة كبيرة لا يتركها مطلقاً، حتى حين ينام. بعد أن لسعه الفضول، قدم السويسري السجائر، وقطع الحلوى، والحديث، لكن العجوز امرؤ دون عيوب، ليس جائعاً وليس لديه شيء يقوله.

في وسط الرحلة، في وسط الغابة، نزل العجوز. نظر السويسري، وهو يساعده في حمل العلبة الكبيرة، من خلال الغطاء نصف المفتوح ورأى في الداخل شجرة نخيل بلاستيكية، ملفوفة بالسيلوفان.

1975: نهر الأمازون

هذا هو أب جميع الأنهار

إنه أب جميع الأنهار، أقوى نهر في العالم، والغابة التي تنبثق من نَفَسِهِ هي آخر رئة على هذا الكوكب. اندفع المغامرون والطامعون إلى أمازونيا منذ أن اكتشف الأوروبيون الأوائل، الذي جاؤوا إلى هذه الناحية، الهنود ذوي الأرجل المعكوسة، الذين يسيرون إلى الوراء بدلاً من إلى الأمام، على هذه الأراضي التي تعد بثروات هائلة.

مذاك، بدأ العمل كله في أمازونيا بمجزرة. في مكتب مكيّف في ساو باولو أو نيويورك وقّع مدير شركة شيكاً وصل إلى أمر بالإبادة، ذلك أن العمل الأولي في تنظيف الغابة بدأ بالهنود ووحوش برية أخرى.

قدموا للهنود سكراً أو ملحاً ممزوجاً بدم الجرذان، أو قصفوهم من الجو، أو علّقوهم من الأقدام لكي ينزفوا حتى الموت دون أن يزعجوا أنفسهم بسلخهم، ثم من الذي سيشتري الجلود؟

انتهى العمل باستخدام السوائل الكيماوية لـ «داو كيميكال»، التي دمّرتْ غابات فييتنام ثم انتقلت الآن إلى البرازيل. كانت سلاحف عمياء تتعثر في المكان الذي كانت فيه أشجارٌ.

1975: ريبيروا بونيتو Ribeirao Bonito

يوم عدالة

ضخمة كالبلدان هي أراضي شركات الماشية، غازية أمازونيا. أعفاها جنرالات البرازيل من الضرائب، شقوا لها الطرق، منحوها الامتيازات وأذناً بالقتل.

استخدمت الشركات فلاحين مدقعين من الشمال الشرقي استنبتتهم هنا الأنهار والبؤس. قتل الفلاحون الهنود، وقُتلوا بدورهم، سرقوا أراضي الهنود، وسرقوا بدورهم. ساقوا ماشية الهنود التي لم يتذوقوا لحمها مطلقاً.

حين وصل الطريق العام إلى قرية ريبيراو بونيتو، بدأت الشرطة بعملية الطرد. الفلاحون الذين قاوموا أُقنعوا في السجن. وبرهن سحقهم بالهراوات أو إدخال الإبر تحت أظافرهم على أنه تقنية مفيدة. في غضون ذلك، وصل الكاهن خواو بسكو بورنيير Joao Bosco Burnier إلى القرية، دخل السجن، وسأل عن الجلادين. أجابه شرطي بتفجير رأسه برصاصة.

في اليوم التالي نصبت نساء غاضبات ـ كارميسينها، نيدي، مارغاريدا ـ صليباً ضخماً. خلفهن، حمل ستمائة فلاح فؤوساً، معاول وعصياً. انضمت القرية كلها إلى الهجوم، مغنية في كورس، وارتفع صوت من الأصوات رائع. والآن، حيث كان السجن ينتصب، ثمة كومة من الأنقاض.

1975: واياناي Huayanay

يوم عدالة آخر

لبضع سنوات أصيبت جماعة وايانـاي في جبال الأنديز البيروفية بمرض رهيب: ماتياس إسكوبار. هذا الوغد، سارق الماعز والنساء، حارق المباني والمجرم، قام بالكثير من الأذى قبل أن تقبض عليه الجماعة وتحاكمه وتحكم عليه وتعدمه. مات ماتياس من مائتين وثلاثين ضربة في قرية بلازا دي أرماس: أسهم كل عضو من الجماعة بضربة، وفيما بعد وقع مائتان وثلاثون إبهاماً الاعتراف.

لم يكترث أحد بمرسوم الجنرال بيلاسكو ألبارادو الذي جعل الكيتشوا Quetchua لغة رسمية. لم تكن الكويتشوا تدرّس في المدارس أو تقبل في المحاكم. في اللغة القشتالية التي لا تُفهم حقق القاضي مع هنود وياني المسجونين في ليما. سألهم، وكأن الأمر مجهول: من قتل ماتياس إسكوبار.

1975: كوزكو

كوندوري يقيس الزمن بالخبز

كان يعمل كبغل. عند صياح الديك تكون الشحنة الأولى قد حُمِّلتْ على ظهره في السوق أو المحطة، وإلى أن يخيّم الليل يكون في شوارع كوزكو ينقل كل ما يستطيع أن يحصل عليه مقابل أي شيء يحصل عليه. مسحوقاً تحت ثقل الصرر والأعوام، وفي ثياب ممزقة، كان الرجل الممزق غريغوريو كوندوري يعمل ويتذكر طالما أن ظهره وذاكرته تقاومان.

منذ أن قست عظامه وهو طفل، كان راعياً وحاجاً، عاملاً وجندياً. سجن تسعة أشهر في أوركوس لأنه قبل قليلاً من الحساء المصنوع من بقرة مسروقة. في سيكواني شاهد قطاره الأول، الثعبان الأسود الذي ينفث ناراً من رأسه، وبعد سنوات ركع على ركبتيه حين عبرت طائرةُ السماء ككندور أعلن بصرخات حادة نهاية العالم.

تذكر كوندوري تاريخ البيرو من خلال الأرغفة: «*حين كانت خمسة أرغفة كبيرة من القمح النقي تكلف ريالاً واحداً، وثلاثة تكلف نصف ريال، أخذ أودريا الرئاسة من بوستامانت*».

ثم جاء شخص آخر واستولى على السلطة من أودريا، ثم شخص آخر، وآخر، وآخر، إلى أن أطاح بيلاسكو، في النهاية، بـ بيلاوندي Belaunde. والآن، من الذي سيطيح ببيلاسكو؟ سمع كوندوري أن بيلاسكو وقف مع الفقراء.

1975: ليما

بيلاسكو

صاح ديك بطريقة غريبة. كانت طيور جائعة تنقر حبوباً جافة والشحارير تضرب بأجنحتها فوق أعشاش طيور أخرى. لم يطح به بالضبط، لكنه غادر، على أية حال.

بعد أن أصابه مرض، ونُقر إلى أن أصبح أشلاء، ترك الجنرال بيلاسكو ألبارادو رئاسة البيرو وهو محبط.

في البيرو، التي تركها أقل ظلماً مما كانت عليه حين استلم السلطة، ألغى الاحتكارات الإمبريالية وهاجم الإقطاعيين، وحاول أن يمكّن الهنود من أن يكونوا شيئاً ما أكثر من منفيين في أرضهم.

تابع الهنود، الأشداء كعشب الحلفاء، أملهم بأن يومهم سيأتي. بمرسوم من بيلاسكو، حصلت لغة الكويتشوا على الحقوق نفسها كالإسبانية، وأصبحت رسمية بشكل مساو، رغم عدم اكتراث أي مسؤول. تلقت أكاديمية اللغة الكويتشية معونة من الدولة ـ ما يعادل ستة دولارات وخمسة وسبعين سنتاً في العام.

1975: ليما

نقوش مذبح وامانغا

عبّر الرسامون والباحثون في ليما عن سخطهم، وعبّرت الطليعة عن صدمتها. منحت جائزة الفن الوطنية لخواكين لوبيث أنتاي Joaquin Lopez Antay صانع نقوش مذبح وامانغا. فضيحة. الصنعة جيدة طالما أنها تعرف مكانها، قال الفنانون البيروفيون.

كانت نقوش مذابح وامانغا، التي أبدعت في البداية كمذابح محمولة، تغير أدوار شخصياتها مع مرور الوقت. أفسح القديسون والحواريون مجالاً للخراف كي ترضع حملانها بينما الكندور

يراقب العالم، العمال والرعاة، الرؤساء المعاقبين، صانعي القبعات في مشاغلهم، والمغنين الذين يداعبون، بحزن، آلاتهم الموسيقية.

تعلّم لوبيث أنتي، الدخيل إلى الفن السماوي، من جدته الهندية كيف يصنع النقوش. منذ أكثر من نصف قرن علّمته أن يصنع القديسين، والآن تراقبه وهو يعمل، من هدوء قبرها.

لوحات سان بلاس

كان هنود الكونا Cuna، في جزر سان بلاس في بنما، يصنعون لوحات تُعْرضَ من الأمام أو الخلف. بإبرة وخيط، وبصبر وموهبة، يمزجون قطع القماش الملونة في نماذج لا تتكرر. أحياناً يحاكون الواقع، وفي أحيان أخرى يبدعونها. وفي بعض الأحيان لكي ينسخوا طيراً ما شاهدوه، يقطعون ويخيطون، درزة بعد أخرى، وينتهون إلى اكتشاف مخلوق جديد أكثر تلوناً وإيقاعية ورشاقة من أي طائر سبق وحلّق في السماء.

رسوم لحاء نهر بالساس

قبل الأمطار، في فصل القمر الجديد، كانوا ينتزعون لحاء شجرة الأماتي amate. تموت الشجرة التي تجرّد من اللحاء أما على جلدها فيرسم الهنود المكسيكيون، في منطقة نهر بالساس، الأزهار والأخيلة، طيوراً جبلية متألقة ووحوشاً تكمن منتظرة، أو يرسمون دورة الأحداث اليومية في الجماعات التي تحيي العذراء في موكب مقدّس ويستدعون الأمطار في طقوس سرية.

قبل الفتح الأوروبي، رسم هنود آخرون على لحاء شجر الأماتي المخطوطات التي روت حياة البشر والنجوم. وحين فرض الفاتحون ورقهم وصورهم اختفت أشجار الأماتي. لأكثر من أربعة قرون لم يرسم أحد من المكسيك على هذا الورق الممنوع. منذ وقت ليس بطويل، في منتصف قرننا، عاد ورق الأماتي: *«إن جميع البشر رسامون. الجميع. كلهم»*.

تتنفس الحياة القديمة عبر لحاء الأماتي هذا، الحياة التي تأتي من بعيد، من بعيد جداً، لكنها لا تأتي متعبة مطلقاً.

سجاد سانتياغو

الأطفال، الذين ينام منهم ثلاثة في كل سرير، يمدون أذرعهم نحو بقرة طائرة. يحمل سانتا كلوز حقيبة من الخبز وليس من الألعاب، معلقة على كتفه. عند جذع شجرة تتوسل امرأة. تحت الشمس الحمراء يسوق هيكلٌ عظميٌ عربة قمامة. على طرق لانهائية يسير رجال بدون وجوه. عينٌ ضخمة تراقب. في مركز الصمت والخوف يتصاعد بخار حساء الجماعة.

تشيلي هي بلد السجاد الملوّن إزاء خلفية من أكياس الطحين. بمزق من القطن والأقمشة القديمة، تطرز نساء من أحياء سانتياغو الفقيرة السجاد الملون. وهو يباع في الكنائس وإذا اشتراه أي شخص فهذا لا يصدق. النساء يندهشن: «نطرز مشكلاتنا وهي بشعة.»

وهذا أول ما فعلته نساء السجناء. ثم أخذه آخرون ـ من أجل المال الذي يساعد، ولكن ليس فقط من أجل المال. إن تطريز السجاد الملون يجمع النساء ويؤنس وحدتهن وحزنهن، ولبضع سنوات قصيرة، كسر روتين الطاعة للزوج، والأب، والابن الفحل، والجنرال بينوشيه.

شياطين أوكوميتشو Ocumitcho الصغيرة

مثل السجاد التشيلي الملون، كانت شياطين الطين الصغيرة في قرية أوكوميتشو التشيلية من إبداع النساء. تمارس هذه الشياطين الحب، في أزواج أو جماعات، تذهب إلى المدرسة، تقود الدراجات أو الطائرات، تتسلل إلى سفينة نوح، تختبئ بين أشعة الشمس التي تحبُّ القمر، وتتدخل في مشاهد عيد ميلاد المسيح. تكمن منتظرة تحت مائدة العشاء الأخير، بينما يسوع المسيح، المصلوب، يتقاسم وجبة من سمك بحيرة باتثكوارو Patzcuaro مع حوارييه الهنود. فيما هو يأكل، يضحك المسيح من أذن إلى أخرى، وكأنه قد اكتشف فجأة أنه من الأسهل تخليص هذا العالم من خلال المتعة أكثر من الألم.

في منازل مظلمة، بلا نوافذ، تصوغ خزّافات أوكوميتشو الأشكال المضيئة. نساء مقيدات بسلسلة لا تنتهي من الأطفال، سجينات أزواج سكارى يضربونهن، يمارسن فناً جديداً حرَّ الأسلوب. وهن تحت حكم الخضوع، ومقدر عليهن الحزن، يخلقن، كل يوم، تمرداً جديداً.

حول الملكية الخاصة وحق الإبداع

يريد المشترون من خزّافات أوكوميتشو أن يوقّعن أعمالهن، وهكذا يستخدمن أختاماً كي يطبعن أسماءهن عند أقدام شياطينهن الصغيرة. لكنهن غالباً ما ينسين، أو يستخدمن ختم جارة إذا لم يكن ختمهن في المتناول، بحيث تصبح ماريا مبدعة عمل قامت به نيكولاسا، أو بالعكس.

لا يفهمن عمل المجد المنعزل ذاك. في جماعة تاراسكانٍ الهندية، كلهن واحدة حين يتعلق الأمر بهذه المسألة. خارج الجماعة، المرء ليس أحداً، كسنٍّ يسقط من الفم.

1975: كابيماس Cabimas

بارغاس

النفط، الذي مر على ضفاف بحيرة ماراكيبو، أخذ معه الألوان. في كومة القمامة الفنزويلية هذه من الشوارع القذرة، والهواء الملوث، والمياه النفطية، عاش رافايل بارغاس ورسم.

لا ينمو العشب في كابيماس، المدينة الميتة، والأرض الفارغة. لم تبق أسماك في المياه ولا طيور في سمائها، ولكن، في لوحات بارغاس يعيش العالم في احتفال، تتنفس الأرض بكل قوة رئتيها، وأكثر الأشجار خضرة تنفجر بالثمار والأزهار، فيما تصطدم أسماك، وطيور، وديكة وافرة، ببعضها بعضا كالبشر.

لا يكاد بارغاس يعرف أن يقرأ أو يكتب. ويجهل كيف يكسب قوت يومه كنجار، أو أن يربح، كرسام، الضوء النظيف لأيامه: إنه يمتلك الانتقام، نبوءة شخص لا يرسم الواقع الذي يعرفه، وإنما الواقع الذي يحتاجه.

1975: سالتا Salta

رياح التغيير السعيدة

كما في لوحة للفنان الفنزويلي بارغاس، رسمت في إقليم سالتا الأرجنتيني سيارات دوريات الشرطة بالأصفر والبرتقالي. بدلا من صفارات الإنذار، فيها موسيقى، وبدلا من السجناء، أطفال: كانت سيارات الدوريات تتنقل مليئة بالأطفال الذين يجيئون ويذهبون من أكواخ بعيدة إلى مدارس المدينة. دمرت زنزانات العقوبة وغرف التعذيب. انسحب رجال الشرطة من ألعاب كرة القدم والمظاهرات. تحرر المعذبون والجلادون، واختفى الضباط المتخصصون في كسر العظام بالمطارق، وراء القضبان. بدأت كلاب الشرطة، التي زرعت الرعب في الفقراء، تؤدي ألعابا بهلوانية في أحيائهم.

حدث هذا منذ عامين، حين كان روبن فورتني Ruben Fortuny رئيسا لشرطة سالتا. لم يستمر فورتني طويلا. وبينما يفعل ما فعله، كان رجال آخرون مثله يرتكبون أعمالا جنونية مشابهة في الأرجنتين، وكأن البلاد كلها كانت مضمومة في عناق واحد خفيف.

خاتمة حزينة لهذه الحادثة البيرونية الأكثر جدة: بعد أن عاد بيرون إلى السلطة، مات، وأصبح الجلادون، مرة أخرى، أحرارا ومشغولين.

قتلوا فورتني برصاصة في القلب ثم اختطفوا الحاكم الذي عينه، ميغيل راغوني. كل ما تركوه من راغوني هو بقعة دم وحذاء.

1975: بوينس آيرس

ضد أطفال إفيتا وماركس

ولكن، بالنسبة للأرجنتينيين، رفضت رياح التغيير الخطيرة أن تموت. شاهد العسكر تهديد الثورة الاشتراكية ينتأ من كل باب ويستعد لإنقاذ الأمة. أنقذوا الأمة لمدة نصف قرن تقريبا، وفي وقت قريب، في المناهج في بنما، عثروا على الدعم في عقيدة الأمن القومي، التي أكدت لهم أن العدو هو في الداخل. أضيفت لمسات إنهاء معينة إلى الانقلاب العسكري التالي. سيطبق برنامج التطهير القومي بأية وسيلة: هذه حرب، حرب ضد أطفال إفيتا وماركس، وفي الحرب الخطيئة الوحيدة هي اللاكفاءة.

1976: مدريد

أونيتي

لم يتوقع العثور على أية رسالة في أية زجاجات في أي بحر. لكن خوان كارلوس أونيتي، اليائس، رفض أن يكون وحيدا. سيكون وحيدا، بالطبع، لولا سكان بلدة سانتا ماريا، الحزانى مثله، والذين أبدعهم ليرافقوه.

عاش أونيتي في مدريد منذ أن خرج من السجن. سجنه حكام الأوروغواي العسكريون لأنهم لم يحبوا قصة منحها جائزة في مسابقة كان حكما فيها.

فيما يداه متشابكتان خلف العنق، يتأمل المنفي البقع الرطبة على سقف غرفته في سانتا ماريا أو مدريد أو مونتيفيديو ومن يعرف أين أيضا. بين فينة وأخرى كان يتماسك ويكتب صرخات تبدو كأنها همسات فحسب.

1976: سان خوسيه

بلاد مجردة من الكلمات

صرح الرئيس أبارسيو مينديث أن حزب الولايات المتحدة الديموقراطي وعائلة كينيدي هم شركاء الفتنة الأفضل في الأوروغواي. سجل صحفي هذا الوحي الحسي، بحضور أسقف مدينة سان خوسيه وشهود آخرين.

اختير أبارسيو مينديث رئيسا في انتخابات صوت فيها اثنان وعشرون مواطنا: أربعة عشر جنرالا، خمسة قادة ألوية، وثلاثة أميرالات. منع العسكر رئيسهم من التحدث إلى الصحافة، إلى أي شخص، في الحقيقة، عدا زوجته. وبسبب هذا العمل الطائش عاقبوا الصحيفة التي نشرت تصريحه بمنعها عن الصدور لمدة يومين، وسرح الصحفي.

قبل إسكات رئيسهم، قام العسكر بتدابير معقولة وأسكتوا الأوروغواي كلها. كل كلمة ليست كذبة هي مخربة. لا أحد يمكن أن يذكر أيا من آلاف السياسيين، اتحادات التجارة، الفنانين، والعلماء الذين اعتبروا خارجين عن القانون. حظرت كلمة *المغاوير* رسميا، وبدلا منها، على المرء أن يقول *الرذيل*، *الجانح*، *المجرم أو الشرير*. موسيقيو الكرنفال، الوقحون وغير المحترمين، يجب ألا يستخدموا في غنائهم كلمات مثل *إصلاح زراعي*، *سيادة*، *جوع*، *سري*، *حمامة*، *أخضر*، *صيف*، ولا يسمح لهم بذكر كلمة قرية، حتى حين تعني مدينة صغيرة.

في مملكة الصمت يدعى السجن الرئيسي للسجناء السياسيين الحرية. كان السجناء، المحتجزون في العزلة، يبتكرون شفرات ليتحدثوا دون أصوات، يقرعون على الجدران، من زنزانة إلى أخرى، ليشكلوا كلمات وحروفا بحيث يستطيعون أن يتابعوا محبة وإبهاج بعضهم بعضا.

سجين سياسي من الأوروغواي، يدعى موريسيو روزنكوف يقول كلامه

إنه كصراع إنسان يقاوم تحويله إلى بقرة. ذلك أنهم وضعونا في آلة لصناعة البقر وقالوا لنا إنه بدلا من الكلام يجب أن نصدر خوارا. وهذه هي المسألة: كيف يستطيع سجين أن يقاوم تحويله إلى حيوان في موقف كهذا. إنها معركة من أجل الكرامة... كان هناك رفيق أمسك قطعة من قصب السكر بأظافره، وصنع نايا. وهذا الشيء الأخرق والمتخلف يتأتى نوعا من الموسيقى...

1976: الحرية

طيور ممنوعة

لم يسمح للسجناء السياسيين في الأوروغواي بالتحدث دون إذن، أو بأن يصفروا، أو يبتسموا، أو يغنوا، أو يسيروا بسرعة، أو يحيوا سجناء آخرين أو يرسموا أو يتلقوا صور نساء حبالى، وأزواج، وفراشات، ونجوم، أو طيور.

في يوم أحد، زارت ديداسكو بيريث، أستاذ المدرسة، الذي سجن وعذب لامتلاكه أفكار إيديولوجية، ابنته ميلاي، التي تبلغ الخامسة من عمرها. أحضرت له رسوما للطيور فسحقها الحرس على مدخل السجن.

في يوم الأحد التالي، أحضرت له ميلاي رسوما للأشجار. ليست الأشجار ممنوعة، فدخلت الرسومات. مدح ديداسكو عملها وسألها عن الدوائر الملونة المبعثرة في قمم الأشجار، وهي دوائر صغيرة كثيرة، نصف مختبئة بين الأغصان: «*هل هذا برتقال؟ أية فاكهة هذه؟*»

وضعت الطفلة إصبعا على فمها وقالت: اصمت. وهمست في أذنه: *أيها السخيف ألا ترى أنها أعين؟ إنها أعين الطيور التي هربتها من أجلك.*

1976: مونتيفيديو

خمسة وسبعون طريقة للتعذيب

خمسة وسبعون طريقة للتعذيب استورد بعضها، وابتكر بعضها الآخر بفضل إبداع عسكر الأوروغواي، تعاقب التضامن. أي شخص يشك بحقوق الملكية أو قانون الطاعة ينتهي إلى السجن، القبر، أو المنفى. كان مقياس الخطر يصنف البشر إلى ثلاث فئات: ألف وباء وسين، أي: إلى «خطرون»، «خطرون بشكل كبير»، أو «غير خطرين». أصبحت الاتحادات التجارية مراكز للشرطة وخفضت الأجور إلى النصف. كل من يفكر أو سبق أن فكر يفقد عمله. في المدارس الابتدائية، والثانوية، وحتى الجامعة، منع التحدث عن برنامج الإصلاح الزراعي الذي وضعه

خوسيه أرتيغاس. من يأبه إن كان البرنامج الأول في أميركا؟ لم يسمح لأي شيء بمقاطعة نظام الصم والبكم هذا وفرضت نصوص إجبارية جديدة البيداغوجيا[1] العسكرية على الطلاب.

1976: مونتيفيديو

النصوص الرسمية الجديدة تعلم تلاميذ الأوروغواي: على المرء أن يطيع

ليس وجود الأحزاب السياسية ضروريا للديموقراطية. لدينا المثال الواضح للفاتيكان، حيث لا توجد الأحزاب السياسية، ومع ذلك، هناك ديموقراطية حقيقية...

إن مساواة النساء، التي ترجمت بشكل سيىء، تعني تشجيع الجنس والتفكير لديها، وتأجيل مهمتها كأم وزوجة. وإذا كان الرجل والمرأة، من وجهة نظر قانونية، متساويين بشكل واضح، فهذا ليس صحيحا من وجهة نظر بيولوجية. المرأة، هكذا، خاضعة لزوجها وبالتالي مدينة له بالطاعة. ومن الضروري أن يكون هناك، في كل مجتمع، رأس يخدم كمرشد، والأسرة هي مجتمع...

من الضروري أن يطيع البعض لكي يمارس الآخرون القيادة. إذا لم يطع أحد، سيكون من المستحيل الحكم...

1976: مونتيفيديو

مقلصو الرؤوس

حطم عسكر الأوروغواي، المكرسون لمنع الحقيقة وإحراق الذاكرة، الرقم القياسي العالمي في إغلاق الصحف.

أغلقوا المجلة الأسبوعية مارشا Marcha، بعد حياة طويلة وعذب أحد محرريها، خوليو كاسترو، حتى الموت، ثم اختفى دون جثة. وحكم على المحررين الآخرين بالسجن، والمنفى، أو الصمت.

في إحدى الليالي، شاهد الناقد السينمائي هوغو ألبارو، المحكوم عليه باللاعالمية، فيلما أثاره. حالما انتهى ركض إلى منزله وطبع بعض الصفحات، بسرعة كبيرة، لأن الوقت متأخر ولأن مارشا تغلق صفحاتها الخاصة بالتسلية في الساعات الباكرة. وبينما كان يغتنم الفترة الأخيرة، أدرك ألبارو أن مارشا لم تصدر منذ سنتين. شعر بالعار، ورمى مقالته في درج المكتب.

كانت تلك المقالة، التي لم تكتب لأحد، تتحدث عن فيلم جوزيف لوزي الذي تجري أحداثه في أثناء الاحتلال النازي لفرنسا، وهو فيلم يظهر كيف تطحن آلة القمع لا المضطهدين

[1] – علم أصول التدريس – المورد.

فحسب وإنما أيضا أولئك الذين هم بمأمن، الذين يعرفون ماذا يجري، وحتى الذين يفضلون ألا يعرفوا.

في غضون ذلك، على ضفة نهر بلاتا الأخرى، قام العسكر الأرجنتينيون بانقلابهم العسكري الخاص. أوضح أحد رؤوس الديكتاتورية الجديدة، وهو الجنرال إبيريكو سينت جان، الأمور: *«أولا، سنقتل جميع المنحرفين. ثم سنقتل المتعاونين. ثم المتعاطفين. ثم الذين لم يتخذوا قرارهم. وأخيرا، سنقتل اللامبالين»*.

1976: لا بيرلا

الحرب العالمية الثالثة

من على قمة هضبة مليئة بأشجار البلوط، نظر راعي بقر أرجنتيني. شاهد خوسيه خوليان سويانيي Sollanille قافلة عسكرية طويلة تقترب. تعرف على الجنرال مينينديث يهبط من مصفحة. من شاحنات، قذف الرجال والنساء وهم يضربون بالهراوات وثمة أغطية على رؤوسهم، وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم. شاهد راعي البقر أحد المعصوبي الأعين يهرب. سمع الطلقات. سقط الهارب، نهض وسقط عدة مرات قبل سقوطه الأخير. حين بدأ وابل الرصاص انهار الرجال والنساء كدمى رثة. نخس راعي البقر حصانه وانطلق. خلفه صعد دخان أسود.

هذا الوادي، في التموجات الأولى لسلسة جبال قرطبة، هو أحد المزابل الكثيرة للجثث. حين يسقط المطر، يندفع الدخان من الحفر بسبب الجير الحي الذي يرمونه على الجثث.

في هذه الحرب المقدسة، *يختفي* الضحايا. أولئك الذين لا تبتلعهم الأرض تلتهمهم الأسماك في قيعان الأنهار أو البحر. ولم يرتكب كثيرون أية جريمة سوى أنهم ظهروا على قائمة أرقام تلفونية. ساروا في العدم، في الضباب، في الموت، بعد التعذيب في الثكنات. *لا أحد بريئا*، قال المنسينور بلاثا، أسقف لا بلاتا، وقال الجنرال كامبز: من الصائب إبادة مائة مشبوه إذا ظهر أن خمسة منهم فقط مذنبون بالإرهاب.

شرح الجنرال بيديا: *ليس الإرهابيين أولئك الذين يزرعون القنابل فحسب وإنما أيضا أولئك الذين يعملون بأفكار معادية لحضارتنا الغربية والمسيحية*. هذا انتقام لهزيمة الغرب في فييتنام: *«نحن نربح الحرب العالمية الثالثة»*، صاح الجنرال مينينديث.

1976: بوينوس آيرس

الخيار

خيرت سجينة حبلى بين الاغتصاب والمنخس الكهربائي. اختارت المنخس، ولكن لم تعد تستطيع أن تتحمل الألم بعد ساعة فاغتصبوها جميعا. وبينما هم يغتصبونها غنوا مارش الزفاف.

قال المنسينور غارثيي Garcelli: «*حسناً، هذه حرب.*»
كان الرجال الذين يحرقون الصدور بوابور لحام المعادن يرتدون كتافيات ويحضرون العشاء الرباني أيام الأحد.
قال الجنرال بيديا: «*الله فوقنا جميعاً.*»
قارن المونسينور تورتولو، رئيس هيئة الأساقفة، الجنرال بيديا بيسوع المسيح، والديكتاتورية العسكرية بانبعاث عيد الفصح. باسم الآب المقدس، زار السفير البابوي بيو لاغي Pio Laghi معسكرات الإبادة، رفع من شأن حب العسكر لله، والوطن، والأسرة، وبرر إرهاب الدولة على أساس أن الحضارة تمتلك الحق في الدفاع عن نفسها.

1976: لابلاتا

امرأة تبحث بين الأنقاض

كانت ماريا إيزابيل دي مارياني تبحث عبثاً عن شيء ما لم يُسْحَق في منزلها الذي دمرته قوات النظام. ما لم يسرقوه هشموه. لم ينج إلا شريط مسجلة واحد وهو معزوفة لفيردي، موسيقى قداس الموتى.
كانت ماريا تحب أن تعثر في الحطام على ذكرى ما لأولادها أو لحفيدتها، صورة أو لعبة، منفضة، أي شيء. قتل أولادها، الذين اشتبه بأنهم يديرون مطبعة سرية، رمياً بالرصاص. أما حفيدتها التي تبلغ من العمر ثلاثة أشهر فقد منحها الضباط أو باعوها كغنيمة حرب.
إنه الصيف، ورائحة البارود تختلط برائحة الزيزفون المزهر. سيظل ذلك الأريج لا يحتمل إلى الأبد. لا تملك ماريا إيزابيل أحداً لتكون معه. إنها والدة مخرّبين. حين يشاهدها أصدقاؤها تقترب يرسمون إشارة الصليب أو يشيحون نظرهم. هاتفها صامت. لا أحد يخبرها عن أي شيء، حتى الأكاذيب. دون مساعدة أحد تتابع وضع شظايا منزلها في صناديق. وحين يخيّم الليل تجر الصناديق على الرصيف. وفي الصباح الباكر يجمع عمال التنظيفات الصناديق، بلطف، واحداً واحداً، دون أن يقلبوها. عامل عمال التنظيفات الصناديق بعناية فائقة، وكأنها مليئة بقطع حياة مكسرة. وهي تحدق، بصمت، من خلال بقايا الستائر تشكرهم ماريا إيزابيل من أجل تلك المداعبة الوحيدة التي حصلت عليها منذ أن بدأ الأسى.

1976: غابة ثينيكا

كارلوس

ينتقدك في حضورك ويمدحك في غيابك. له نظرة ديك غاضب، حسيرة ومتعصبة، عينان بنيتان حادتان يرى بهما أبعد مما يرى الآخرون، رجل كل شيء أو لا شيء، لكن لحظات المتعة تجعله يقفز كطفل صغير، وحين يصدر الأوامر يبدو وكأنه يطلب معروفاً.

كارلوس فونسيكا أمادور، قائد الثورة النيكاراغوية، مات وهو يقاتل في الغابة.

أحضر عقيد الأنباء إلى الزنزانة التي كان يرقد فيها توماس بورخي Tomas Borge محطما. سوية سافرا على طريق طويل، كارلوس وتوماس، منذ تلك الأيام حين كان كارلوس يبيع الصحف والسكر نبات في ماتاغالبا Matagalba. ومعا أسسا، في تيغوثيغالبا Tegucigalba، الجبهة الساندينية.

قال العقيد: «*لقد مات*.»

قال توماس: «*أنت مخطئ، أيها العقيد*.»

1977: ماناغوا

توماس

وهو مقيد إلى حلقة حديدية، أسنانه تصطك، ومبلل بالبراز، بدا توماس بورغي كأنه كومة من العظام المحطمة والأعصاب المنتزعة، قصاصة ترقد على الأرض في انتظار دورة التعذيب التالية.

لكن هذه البقية منه لا تزال تستطيع الإبحار في أنهار سرية تأخذه وراء الألم والجنون. تاركا نفسه يذهب، دخل في نيكاراغوا أخرى ورآها.

من خلال القلنسوة التي تعصر وجهه المنتفخ من الضربات، يراها: يحصي الأسرة في كل مستشفى، النوافذ في كل مدرسة، الأشجار في كل حديقة، ويرى النائمين تطرف أجفانهم، حائرين، أولئك الذين ماتوا طويلا من الجوع وكل ما يقتل، توقظهم الآن الشموس الحديثة الولادة.

1977: أرخبيل سولينتينامي Solentiname

كاردينال

كانت طيور مالك الحزين التي تنظر إلى نفسها في مرايا تتلألأ، ترفع مناقيرها. وكانت زوارق الصيادين في طريق العودة، وخلفها السلاحف التي أتت إلى هنا لتنجب على الشاطئ.

في كابينة خشبية، كان المسيح يجلس إلى مائدة الصيادين ويأكل بيض السلاحف، والمنيهوت. وكانت الغابة، التي تبحث عنه، تدخل أذرعها عبر النوافذ.

تمجيدا ليسوع كتب إرنستو كاردينال، الشاعر ـ الراهب من سولينتينامي. وتمجيدا له غنى نافخ البوق Zanate، الطائر المشرد، الذي يطير دائما بين الفقراء، ويطري جناحيه في مياه البحيرة. وتمجيدا له رسم الصيادون صورا متألقة أعلنت عن الفردوس ـ الجميع أخوة، لا رؤساء، لا أقنان ـ إلى أن قرر الصياد الذي رسم الجنة، في أحد الأيام، أن يبدأ بصناعتها ثم عبر البحيرة ليهاجم ثكنات سان كارلوس.

من الظلمة، وعدت البومة بالمتاعب: «ثمل... ثمل..»

قتلت الديكتاتورية كثيرين بينما كان يعبر الباحثون عن الفردوس جبال وأودية وجزر نيكاراغوا. *العجين يرتفع، الرغيف الكبير ينتفخ*...

عمر كابيثاس Omar Cabezaz يروي عن الهضبة التي ندبت موت أحد المغاوير في نيكاراغوا

لم أسامح تيو Tello مطلقا لأنه قتل برصاصة واحدة، رصاصة واحدة فحسب... شعرت بخوف كبير، وبدا كأن الهضبة شعرت بالخوف كذلك. توقفت الريح والأشجار عن التأرجح، لم ترتعش ورقة واحدة، وصمتت الطيور. تجمدت الأشياء كلها، منتظرة تلك اللحظة حين جاؤوا وقتلوا مجموعة منا.

وانطلقنا. وحين سرنا إلى أعلى الوهد، بدا الأمر وكأننا نهز الهضبة، كأننا نمسكها ونقول لها: من تظن هذا العاهرة نفسها بحق الجحيم؟

عاش تيو مع الهضبة. أنا مقتنع أن له علاقات معها، فهي تحمل له الأولاد، وحين مات تيو شعرت أن كل شيء قد انتهى، ذهب التزامها، وكل ما تبقى غباء... ولكنها، حين شاهدت إرادة القتال عند الرجال الذين يتقدمون هناك، فوقها، في قلبها، أدركت أن تيو ليس بداية العالم ونهايته. ورغم أن تيو يمكن أن يكون ابنها، وربما كان حياتها، عشيقها السري، شقيقها، مخلوقها، حجرها، رغم أن تيو يمكن أن يكون نهرها... إلا أنه لم يكن نهاية العالم، وأن بعده، جاء جميعنا نحن الذين لا نزال نستطيع أن نشعل نارا في قلبها.

1977: برازيليا

مقص

وقع أكثر من ألف مفكر برازيلي بيانا ضد الرقابة. في تموز، العام الماضي، منعت الديكتاتورية العسكرية المجلة الأسبوعية «الحركة» Movimiento من نشر إعلان استقلال الولايات المتحدة الأميركية، لأنه قيل فيه إن الشعب يمتلك الحق والواجب لإلغاء الحكومات الاستبدادية. منذ ذلك الوقت منعت الرقابة باليه البولشوي لأنه روسي، صور بيكاسو الإيروتيكية لأنها إيروتيكية، وكتاب *تاريخ السريالية*، لأن أحد فصوله يحمل كلمة ثورة كعنوان له (الثورة في الشعر).

1977: بوينوس آيرس

والش

أرسل في البريد رسالة وعدة نسخ. بعث الرسالة الأصلية، إلى المجلس العسكري الذي يحكم الأرجنتين والنسخ، إلى وكالات الأنباء الأجنبية. في الذكرى الأولى للانقلاب العسكري، أرسل

بيان الشكاوى، سجلا من الأفعال الشائنة ارتكبها نظام يستطيع أن يترنح في رقصة موته فحسب. وضع توقيعه في الأسفل ورقمه (رودلفو والش، رقم الهوية الشخصية 2845022). ولم يكن قد ابتعد إلا خطوات عن مركز البريد حين أسقطه الرصاص، وحمل مجروحا، ولم ير بعد ذلك.

كانت كلماته العارية فضائحية حيث يحكم خوف كهذا، خطيرة بينما تستمر الحفلة التنكرية الكبيرة.

1977: ريو كوارتو Rio Cuarto

كتب والش المحروقة وكتب مؤلفين آخرين صرح أنها غير موجودة

نظرا للإجراء الذي اتخذه التدخل العسكري السابق في الجامعة الوطنية وتنفيذا لأوامر عليا سريعة، تسحب من المكتبة جميع مواد القراءة التي لها طبيعة مضادة للمجتمع وتبث محتوياتها الغريبة على الكينونة الأرجنتينية الوطنية، أفكارا ماركسية وتخريبية ومتطرفة.

بعد أن أحرقت النصوص في الوقت المناسب، كان من الملائم طردها من إرث مركز الدراسات المتقدمة فقرر رئيس الجامعة الوطنية في ريو كوارتو أن يطرد من إرث الجامعة الوطنية (من جميع فروع المكتبة) جميع الأسماء المدونة أدناه: (قائمة طويلة من الكتب بعضها لرودلفو والش، برتراند رسل، ويلهيلم ديلثي، موريس دوب، كارل ماركس، باولو فريري، وآخرين).

1977: بوينس آيرس

أمهات ساحة دي مايو

نساء أنجبهن أطفالهن كن الكورس اليوناني لهذه التراجيديا. يلوحن بصور أبنائهن المختفين، يدرن ويدرن حول المسلة، أمام المجلس الحكومي، بعناد كما يقمن بحج إلى الثكنات، مراكز الشرطة، والكنائس، جافات من بكاء كثير، يائسات من انتظار طويل لأولئك الذين لم يعودوا موجودين، أو ربما الذين لا يزالون موجودين... من يدري؟

قالت واحدة، قلن جميعهن: «استيقظت معتقدة أنه حي. بدأت أفقد إيماني فيما الصباح يستمر. مات مرة أخرى ظهرا. انبعث في المساء، بدأت أعتقد أنه سيعود حالا، ورتبت له مكانا إلى المائدة، لكنه مات مرة أخرى، وفي المساء نمت دون أمل. حين أستيقظ أشعر أنه حي...» يدعونهن بالنساء المجنونات. لا يتحدث عنهن أحد عادة. بعد أن أعيد الموقف إلى حالته العادية، أصبح سعر الدولار رخيصا وكذلك سعر بشر معينين. ذهب الشعراء المجانين إلى موتهم، وقبل الشعراء الأسوياء السيف ومدحوا الصمت. كان وزير المالية يصطاد الأسود والزرافات في

أفريقيا والجنرالات يصطادون العمال في ضواحي بوينس آيرس. وصدرت أوامر لغوية جديدة تجعل من الإجباري تسمية الديكتاتورية العسكرية عملية إعادة التنظيم الوطنية Proceso de Reorganizacion Nacional.

1977: بوينس آيرس

أليثيا موريا و Alicia Moreau

أحيانا تصل إلى أقصى حدود الحماسة في إيمانها، متوقعة ثورة اشتراكية بطريقة ليست واقعية بتاتا، أو تنفجر علنا في خطب مسهبة ضد السلطة العسكرية وبابا روما. ولكن ما الذي كان سيحدث لأمهات ساحة دي مايو لولا حماسة هذه المرأة الشبح؟ لا تتركهن مطلقا يصبن بالإحباط أو يشعرن بالهزيمة بسبب اللامبالاة والسخرية الكثيرة. كانت تقول لهن: «يستطيع المرء دائما أن يفعل شيئا ما، مع الجماعة. كل امرأة لوحدها، لا. دعونا ـ يجب أن»

التقطت عكازها وكانت أول من تحرك.

كانت أليثيا موريا و تبلغ من العمر مائة عام تقريبا. انخرطت في الصراع منذ تلك الأيام عندما لم يكن الاشتراكيون يشربون سوى المياه ويغنون سوى النشيد الوطني. شهدت أعاجيب كثيرة وخيانات، ولادات، وميتات، ومهما كانت مشكلاتها الحالية، كانت تتابع الإيمان أنه من الجدارة أن نؤمن. أليثيا موريا و هي حية الآن كما كانت حين بدأ القرن وألقت خطبا وهي تقف على صناديق الصابون بين أعلام حمراء في أحياء العمال في بوينس آيرس، ومرة عبرت جبال الآنديز على ظهر بغل، وحثت الحيوان على السرعة لكي لا تتأخر في الوصول إلى مؤتمر نسوي.

1977: بوينس آيرس

صورة مدير لعبة قمار

كان وزير مالية الديكتاتورية الأرجنتينية مؤمنا ورعا بالمشاريع الخاصة. كان يفكر بها أيام الأحد، حين يركع في أثناء القداس، وأيضا في أيام الأسبوع، حين يدرس في الكلية العسكرية. مع ذلك، انسحب الوزير، بشكل صحيح، من الشركة التي كان يديرها، وبكرم اقتطعها للدولة بما يعادل ثمنها عشرة أضعاف.

حول الجنرالات البلاد إلى ثكنة. وحولها الوزير إلى كازينو. طافت الأرجنتين بالدولارات وبضائع المستهلك. إنه زمن الجلاد، ولكن أيضا زمن المخادع والدجال. أمر الجنرالات البلاد أن تخرس وتطيع، بينما أمرها الوزير أن تضارب وتستهلك. كل من يعمل هو مستغل، وكل من يحتج جثة. ولكي يخفض الأجور إلى النصف ويحول العمال المتمردين إلى لا شيء، رشا الوزير أبناء الطبقة الوسطى بالفضة، وكانوا يطيرون إلى ميامي ويعودون محملين بجبل من الأدوات

وآلات التحكم بأجهزة المقامرة. في وجه المجزرة اليومية، كان البشر يهزون أكتافهم: «*لا بد أنهم فعلوا شيئا ما. إنها لسبب جيد.*»

أو يصفرون وينظرون إلى مكان آخر: «*لا تتورط.*»

1977: كاراكاس

سفر خروج المتطفلين

تحدث النبي في مقهى في كاراكاس كايي ريال دي سابانا غرانـدي Calle Real de Sabana Grande. شخص غير أرضي، بعينين ملتهبتين، ظهر للحظة وأعلن أنه في يوم أحد معين في شهر آب سيشق محيط غاضب الجبال ويمسح المدينة.

أكد الأساقفة، الساحرات، الفلكيون، والمنجمون، أكثر من مرة، أنـه ليس هنـاك داع للقلـق، لكنهم لم يستطيعوا إيقاف الذعر عن النمو، ومن أن يتدحرج ككرة عبر أحياء العمال في كاراكاس.

البارحة كان الأحد المقصود. أمر رئيس الجمهورية أن تتولى الشرطة مسؤولية المدينـة. تشـتت أكثر من مليون كاراكاسي، وهربوا حاملين ممتلكاتهم على ظهورهم. بقي في المدينة سيارات أكـثر من البشر.

في يوم الاثنين بدأ الهاربون بـالعودة. لـم يغـادر المحيـط مكانـه الأبـدي، والجبـال كذلـك. في الوادي، واصلت كاراكاس حياتها. وهكذا اسـتعادت عاصمـة النفـط مواطنيـها المرعوبـين. عـاودوا الدخول إليها وكأنهم يعتذرون، لأنهم يعرفون الآن أنهم زائدون، أن هذا عالم عجلات، لا أرجل. تنتمي كاراكاس إلى سياراتها المهيمنة، لا إلى كل من يجرؤ ويعـبر شـوارعها لـيزعج الآلات. مـا الذي سيجري لهؤلاء البشر المحكوم عليهم أن يعيشوا في مدينة لا تنتمـي إليـهم، إذا لـم تحمـهم ماريا ليونثا ولم يشفهم خوسيه غريغوريو.

ماريا ليونثا

يرتفع صدرها فوق مركز كاراكاس ويحكـم، عاريـا، فـوق الجنـون. في كاراكـاس، وفي فـنزويلا كلها، ماريا ليونثا هي إلاهة.

قصرها اللامرئي بعيد عن العاصمة على جبل في سلسلة سورتي Sorte. تتبعثر الصخور على هذا الجبل حيث عشاق ماريا ليونثا دفعوا مقابل ليلة من المعانقات أن يتحولوا إلى أحجار تتنفس.

عمل سيمون بوليفار ويسوع الناصرة من أجلها في الملاذ. وأيضا يساعدها معاونون: أسود، وهندي، وأبيض ويخدمون المؤمنين، الذين يأتون محملين بهدايا من الفاكهة، والعطور، والثياب التحتية.

ماريا ليونثا، المرأة غير المروضة، التي يخشاها ويرغبها الله والشيطان، تمتلك قـوى الفـردوس والجحيم. تستطيع أن تلهم السعادة والشقاء، تنقذ إن شعرت بحب الإنقاذ، وترعد إن أحبت ذلك.

خوسيه غريغوريو

إنه أطهر الطاهرين، سكرتير ماريا ليونثا الأبيض. الطبيب خوسيه غريغوريو هيرنانديث لم يستسلم مطلقا لإغراء الجسد. جميع النساء المتملقات اللائي اقتربن منه انتهين إلى الأديرة، تائبات، ومستحمات بالدموع. أنهى طبيب الفقراء الفاضل هذا، حواري الطب، أيامه في 1919، غير مهزوم. سحقت جسده الطاهر، بلا رحمة، سيارة من السيارتين أو الثلاث التي كانت تدور في كاراكاس ببطء السلحفاة في تلك الأيام السعيدة. بعد الموت، تابعت يدا خوسيه غريغوريو، اللتان تجترحان المعجزات، وصف العلاج وإجراء العمليات للمرضى.

في ملاذ ماريا ليونثا، كان خوسيه غريغوريو يشغل نفسه بمشكلات الصحة العامة. لم يفشل مطلقا في أن يعود من الغيب ليلبي نداء الذين يعانون. كان القديس الوحيد الذي يرتدي ربطة عنق ويعتمر قبعة.

1977: غريسلاند

إلفيس

مرة، حرضت طريقته في هز رجله اليسرى، على الصراخ. وكانت شفتاه، وعيناه، وشارباه الخديان، أعضاء جنسية.

إنه الآن كرة هشة من الضعف. كان إلفيس بريسلي، ملك الروك آند رول المخلوع عن عرشه، يرقد في السرير، فيما عيناه تطوفان بين ست شاشات تلفزيونية. كان كل من التلفزيونات المعلقة من السقف، مدارا إلى محطة مختلفة. بين النوم والأحلام، وهو نائم أكثر من كونه مستيقظا، كان إلفيس يطلق من مسدسات فارغة من الذخيرة، على الصور التي لا يحبها. كانت كرة جسده الشحمية تغطي روحا مصنوعة من الكودين ـ مخدر مستخرج من الأفيون ـ والمورفين، والفاليوم، والسيكونال Seconal، والبلاسيديل Placidyl، والكواليود Quaalude، والنيمبوتال Nembutal، والفالميد Valmid، والديميرول Demerol، والإلافيل Elavil، والأفنتيل Aventyle، والكاربريتال Carbrital، والسينوتاب Sinutab، والأميتال Amytal.

1978: سان سلفادور

روميرو

قدم لها كبير الأساقفة كرسيا لكن ماريانيلا فضلت أن تتحدث وهي واقفة. كانت تأتي دوما من أجل الآخرين، لكن ماريانيلا جاءت، هذه المرة، من أجل نفسها. لم تأت ماريانيلا غارسيا بيلاس، محامية المعذبين والمختفين في السلفادور، هذه المرة، لكي تطلب من كبير الأساقفة أن

يتضامن مع أحد ضحايا D' Aubuisson، الكابتن تورش، الذي يحرق جسدك بوابور لحام المعادن، أو أحد أخصائيي الرعب العسكري. لم تأت ماريانيلا لكي تطلب المساعدة لأي شخص خاضع للتحقيق أو الشجب. لديها شيء شخصي هذه المرة لتقوله له. قالت له، بقدر ما تستطيع من الهدوء، أن الشرطة اختطفتها، قيدتها، وضربتها، وأذلتها، وعرتها ـ وأنهم اغتصبوها. قالت له ذلك دون بكاء أو اهتياج، بهدوئها المعتاد، ولكن كبير الأساقفة أرنولفو روميرو لم يسمع من قبل مطلقا في صوت ماريانيلا اهتزازات الحقد تلك، أصداء القرف، دعوات الانتقام. حين أنهت كلامها، صمت كبير الأساقفة المنذهل.

بعد صمت طويل، بدأ يقول لها إن الكنيسة لا تكره وليس لها أعداء، وإن كل ظلم وكل فعل ضد الله يشكل جزءا من نظام مقدس، إن المجرمين هم أيضا أخوة لنا ويجب أن يصلى من أجلهم، إن المرء يجب أن يسامح مضطهديه، ويقبل الألم، و... فجأة، توقف كبير الأساقفة روميرو.

خفض نظرته، دفن وجهه بين يديه. هز رأسه، ناكرا كل شيء، وقال: *«كلا، لا أريد أن أعرف»*

«لا أريد أن أعرف»، قال فيما صوته ينهار.

كبير الأساقفة روميرو، الذي يقدم دائما النصيحة والراحة، بكى كطفل دون أم أو منزل. كبير الأساقفة روميرو، الذي يمنح دائما اليقين، اليقين المهدئ لإله محايد يعرف الجميع ويعانق الجميع ـ كبير الأساقفة روميرو يشك.

روميرو يشك ويبكي وماريانيلا تدلك رأسه.

1978: لاباث

خمس نساء

«من هو العدو الرئيسي؟ الديكتاتورية العسكرية؟ البرجوازية البوليفية؟ الإمبريالية؟ كلا، أيها الرفاق، أريد أن أقول لكم ذلك فحسب: عدونا الرئيسي هو الخوف. إنه في داخلنا».

هذا ما قالته دوميتيلا في منجم قصدير كاتابي، ثم جاءت إلى العاصمة مع أربع نساء وأكثر من عشرين طفلا. في يوم عيد الميلاد بدأوا إضرابهم عن الطعام. لم يصدقهم أحد. اعتقد البعض أنها نكتة سخيفة: «*خمس نساء سوف يطحن بالديكتاتورية*؟!!!»

كان الكاهن لويس إسبينال أول من انضم إليهن. وفي وقت سريع كان هناك 1500 شخص يضربون عن الطعام في جميع أنحاء بوليفيا. دعت النساء الخمس، المتعودات على الجوع منذ أن كن صغيرات، الماء دجاجا أو ديكا روميا والملح قطعة لحم خنزير، وكن يتغذين على الضحك. في غضون ذلك، تضاعف عدد المضربين ـ ثلاثة آلاف، عشرة آلاف ـ إلى أن أصبح من المتعذر إحصاء

البوليفيين الذين توقفوا عن تناول الطعام والعمل، وبعد ثلاثة وعشرين يوما من بداية الإضراب عن الطعام غزا البشر الشوارع، وأصبح من المتعذر إيقافهم.

أطاحت النساء الخمس بالديكتاتورية العسكرية.

1978: ماناغوا

حظيرة الخنازير

أطلق في نيكاراغوا على القصر الوطني اسم حظيرة الخنازير. كان الطابق الأول من هذا البارثينون[1] المزيف، يغص بالشيوخ.

في منتصف أحد أيام آب، هاجمت حفنة من المغاوير يقودهم إيدن باستورا ودورا ماريا تييث حظيرة الخنازير وأسروا في ثلاث دقائق جميع مشرعي سوموزا. مقابل إطلاق سراحهم، على سوموزا أن يطلق سراح سجناء الجبهة الساندينية. اصطف البشر على طريق المطار كي يحييوهم.

بدا كأن هذا العام عام حرب متواصلة. بدأها سوموزا بذبح الصحفي بدرو خواكين شامورو. أحرق البشر الغاضبون، على الفور، عددا من مشاريع الديكتاتور. التهمت ألسنة اللهب شركة Plasmaferesis المزدهرة التي تصدر الدم النيكاراغوي إلى الولايات المتحدة الأميركية. أقسم البشر أنهم لن يستريحوا إلى أن يدفن مصاص الدماء في مكان ما أكثر ظلمة من الليل بوتد يخوزق قلبه.

لؤلؤة حكمة تاتشيتو سوموزا Tachito Somoza

أنا رجل أعمال متواضع.

1978: بنما سيتي

توريخوس Torrijos

قال الجنرال عمر توريخوس إنه لا يريد أن يدخل التاريخ، كل ما يريده هو أن يدخل منطقة القناة، التي سرقتها الولايات المتحدة عند منعطف القرن. هكذا تجول في العالم من بلاد إلى أخرى، ومن حكومة إلى أخرى، ومن منصة إلى أخرى. حين كان يتهم بأنه يخدم موسكو أو هافانا، كان توريخو يضحك ويقول إن كل شعب يبلع أسبرينه الخاص من أجل صداعه. حين يتعلق الأمر بهذا، قال، تكون علاقته مع أنصار كاسترو أفضل من علاقته مع المخصيين.

أخيرا سقطت أسيجة القناة. وقعت الولايات المتحدة، التي ضغط عليها العالم، اتفاقية تعيد إلى بنما، على درجات، القناة والمنطقة الممنوعة التي تحيط بها.

قال توريخوس مرتاحا: «هكذا أفضل، لقد أراحوني من مهمة تفجير القناة وجميع منشآتها.»

---

[1] – هيكل الإلاهة أثينا في مدينة أثينا.

1979: مدريد

متطفلون يزعجون تناول الطعام الهادئ لجسد الله

في كنيسة كبيرة في مدريد، احتفل قداس خاص بذكرى استقلال الأرجنتين. دعا الجنرال ليناردو أنايا الدبلوماسيين، مدراء الأعمال، ورجال الجيش، والجنرال ليناردو هو سفير الديكتاتورية المشغولة، عبر البحر، بحماية إرث الوطن الأرجنتيني، وإيمانه وأموره الأخرى.

عبر النوافذ الزجاجية الملونة كانت أضواء باهرة تضيء وجوه وأزياء السيدات والسادة. في آحاد كهذه، الله جدير بالثقة. وفي أحيان نادرة تزين سعلة رعديدة الصمت، بينما يؤدي الكاهن الشعيرة: صمت الأبدية الهادئ، أبدية مختاري الله.

تأتي لحظة العشاء الأخير. مطوقا بالحرس الشخصي، يقترب السفير الأرجنتيني من المذبح. يركع، يغمض عينيه، يفتح فمه. يسمع حالا حفيف المناديل البيضاء التي تفتح، والتي كانت تغطي رؤوس النساء اللواتي يسرن في الممرات، جميع الممرات. تقدمت أمهات ساحة دي مايو بهدوء، أصدرن حفيفا قطنيا، إلى أن أحطن بالحراس الشخصيين الذين يحيطون بالسفير. ثم حدقن به. حدقن ببساطة. فتح السفير عينيه، نظر إلى جميع النساء اللواتي كن ينظرن إليه دون أن يرف له جفن وابتلع لعابه، بينما بقيت يد الكاهن مشلولة في الجو، وخبز القربان بين أصابعه.

امتلأت الكنيسة كلها بهؤلاء النساء. فجأة اختفى القديسون أو التجار من هذا المعبد، لم يبق سوى حشد من النساء غير المدعوات: فساتين سوداء، مناديل بيضاء، جميعهن صامتات، جميعهن واقفات.

1979: نيويورك

المصرفي روكفلر يهنئ الدكتاتور بيديا

إلى صاحب السيادة خورخي رافايل بيديا
رئيس الأرجنتين
بوينس آيرس، الأرحنتين

عزيزي الرئيس
أنا ممتن جدا لك لمنحي الوقت واستقبالي في أثناء زيارتي الأخيرة إلى الأرجنتين. وكوني لم أذهب إلى هناك لمدة سبع سنوات، كان من المشجع أن أرى التقدم الذي أنجزته حكومتك في

أثناء السنوات الثلاث الماضية، على صعيد السيطرة على الإرهاب وتقوية الاقتصاد. أهنئك على ما أنجزته وأتمنى لك كل نجاح في المستقبل ...

مع أطيب التمنيات
المخلص لك،
ديفد روكفلر

1979: سيونا Siuna

صورة عامل نيكاراغوي

خوسيه بيارينا Jose Villarreina، متزوج، له ثلاثة أطفال. يعمل لدى الشركة الأميركية الشمالية روزاريو ماينز، التي أطاحت، منذ سبعين عاما، بالرئيس ثيلايا. منذ 1952 كان بيارينا ينقي الذهب من الحفريات في سيونا، ومع ذلك، لم تهترئ رئتاه بشكل كامل بعد.

في الواحدة والنصف بعد الظهر، في آب 1979 نظر بيارينا إلى الخارج من مدخل المنجم فمزقت عربة مليئة بالمعادن رأسه. بعد خمس وثلاثين دقيقة، نوهت الشركة أن الرجل الميت، ووفقا للمواد 18 و115 و119 من قانون العمل، صرف من الخدمة لأنه لم ينجز عقده.

1979: في جميع أنحاء نيكاراغوا

الأرض تضطرب

وتهتز بشكل أسوأ مما يحدث حين تجتمع الزلازل كلها مع بعضها. طائرات تحلق فوق مساحات ضخمة من الغابة وترمي النابالم، وتقصف المدن المتقاطعة بالحواجز والخنادق. استولى الساندينيون على ليون، ومسايا، وخينوتيغا، وتشيناندیغا، إستيلي، كاراثو، وخينوتيبي...

وبينما كان سوموزا ينتظر دينا قيمته خمسة وستون مليون دولار وافق عليه البنك الدولي، كانوا يقاتلون في نيكاراغوا من شجرة إلى أخرى، من منزل إلى آخر. بأقنعة أو مناديل تغطي وجوههم، كان الشبان يهاجمون بالبنادق أو بالحراب، بالعصي أو الأحجار، حتى مسدس اللعبة كان يخدم ويترك انطباعا.

في مسايا، والتي تعني بلغة الهنود، المدينة التي تحترق، كان المقاتلون، الخبراء في صناعة الألعاب النارية، يحولون أنابيب التصريف إلى مدفعية هاون ويخترعون قنبلة دون صمام تنفجر حين تصطدم. وكانت العجائز ينسجن بين الرصاص حاملات سلالا ضخمة مليئة بالقنابل، يوزعنها حولهن كأنها أرغفة خبز.

1979: في جميع أنحاء نيكاراغوا

افهموها جميعا، جميعكم

لا تخسروها، الكبير هنا، غادر البراز، انفتحت الجحيم، نحن في حرارة الحمى، نقاتل بترسانة صنعناها هنا ضد الدبابات والسيارات المصفحة والطائرات، وهكذا فليدخلها الجميع، من الآن فصاعدا لا أحد يفر، إنها حربنا، الشيء الحقيقي، إذا لم تموتوا وأنتم تقتلون فستموتون محتضرين، التضامن يجعلنا أكثر شجاعة، سوية الآن، الشعب هو نحن.

من دفتر مواعيد تاتشيتو سوموزا

1979
الثلاثاء، 12 تموز
حب.

1979: ماناغوا

يجب تشجيع السياحة

أمر الديكتاتور أن تشجع السياحة بينما كانت أحياء الفقراء الشرقية تحترق بعد أن قصفتها القوى الجوية.

من غرفته المحصنة، والتي هي رحم فولاذي وإسمنتي كبير، كان سوموزا يحكم. هنا لا شيء يتغلغل، لا رعد البنادق، ولا صرخات الناس، لا شيء يزعج الصمت المطبق. هنا لا يرى المرء شيئا ولا يشم أي شيء. عاش سوموزا في هذه الغرفة المحصنة، لبعض الوقت، تماما وسط ماناغوا، ولكن بعيدا عن نيكاراغوا قدر ما تتصور، وفي هذه الغرفة المحصنة، كان يجلس الآن مع فاوستو أمادور.

فاوستو أمادور هو والد كارلوس فونسيكا أمادور. كان الابن، مؤسس الجبهة الساندينية، يفهم الوطنية، بينما كان الأب، المدير العام للرجل الأغنى في أميركا الوسطى، يفهم الميراث.

كان سوموزا المحاط بالمرايا والأزهار البلاستيكية، يجلس أمام كمبيوتر، وينظم، بمساعدة فاوستو أمادور، تصفية مشاريعه، وكان هذا يعني نهب نيكاراغوا كلها.

قال سوموزا فيما بعد على الهاتف: «*لن أذهب ولن يطيحوا بي*.»

1979: ماناغوا

حفيد سوموزا

إنهم يطيحون به وسيذهب. فجرا، ركب سوموزا طائرة إلى ميامي. في تلك الأيام الأخيرة تخلت عنه الولايات المتحدة، لكنه لم يتخل عنها: «*في قلبي، سأكون دائما جزءا من هذه الأمة العظيمة*»

أخذ سوموزا معه سبائك الذهب من البنك المركزي، ثمانية ببغاوات متألقة الألوان وتابوتي والده وشقيقه. أخذ أيضا جسد ولي العهد الحي.

أناستاسيو سوموزا بورتوكاريرو، حفيد مؤسس السلالة، رجل عسكري سمين تعلم فنون القيادة والحكومة الجيدة في الولايات المتحدة الأميركية. وفي نيكاراغوا أسس وأدار مدرسة تدريب المشاة الأساسية، وهي مجموعة فتية من الجيش متخصصة في استجواب السجناء ـ ومشهورة بسبب مهارتها. كان أولئك الشبان المسلحون بالكماشات والملاعق، يستطيعون أن ينتزعوا الأظافر دون أن يكسروا جذرها، والأعين دون أن يؤذوا الأجفان.

ذهبت قبيلة سوموزا إلى المنفى بينما كان أوغستو سيزار ساندينو يطوف في نيكاراغوا تحت مطر من الأزهار، بعد نصف قرن من قتلهم له. لقد جنت هذه البلاد، الرصاص يعوم، الفلين يغوص، الموتى يهربون من المقبرة، والنساء من المطبخ.

1979: غرانادا

القائدة

خلفهم هاوية. في الأمام وإلى كلا الجانبين، مسلحون في حالة هجوم. سقطت ثكنة لا بولبورا، المعقل الأخير للديكتاتورية في مدينة غرانادا.

حين سمع العقيد القائد أن سوموزا هرب، أمر بإسكات الرشاشات. أوقف الساندينيون أيضا إطلاق النار.

حالا انفتحت بوابة الثكنة الحديدية وظهر العقيد ملوحا بقماشة بيضاء: «*لا تطلقوا النار.*»

عبر العقيد الشارع. «*أريد أن أتحدث مع القائد.*»

سقط منديل يغطي أحد الوجوه: «*أنا القائد*»، قالت مونيكا بالتودانو، إحدى نساء الجبهة الساندينية التي تقود القوات.

«*ماذا؟*»

من فم العقيد، هذا الفحل المترفع، تحدثت المؤسسة العسكرية، مهزومة لكن بكرامة. رجولة البنطلون، شرف البذلة. «*لا أريد أن أستسلم لامرأة!*» زأر العقيد.

لكنه استسلم.

1979: في جميع أنحاء نيكاراغوا

ولادة

كان عمر نيكاراغوا، التي ولدت حديثا في الأنقاض، بضع ساعات فحسب. كانت نباتات خضراء جديدة تنمو بين أنقاض الحرب المنهوبة، فيما الضوء المغني ليوم الخلق الأول يملأ الجو الذي يفوح برائحة النار.

1979: باريس

دارسي

منحت جامعة السوربون درجة الدكتوراة الفخرية لدارسي ريبيرو Darcy Ribeiro. قال إنه قبلها بفضل فشله.

فشل دارسي كعالم إناسة لأن هنود البرازيل لا يزالون تحت الإبادة. فشل كرئيس جامعة لأن الواقع الذي أراده أن يتحول برهن أنه عنيد. فشل كوزير تربية في بلاد لا تتوقف فيها الأمية عن الانتشار مطلقا. فشل كعضو حكومة حاولت وفشلت إما في تطبيق الإصلاح الزراعي أو السيطرة على العادات الوحشية لرأس المال الأجنبي. وفشل ككاتب حلم بمنع التاريخ من أن يكرر نفسه.

هذه هي حالات فشله. هذه هي كرامته.

1979: سانتياغو دي تشيلي

إيمان عنيد

وقع الجنرال بينوشيه على مرسوم فرض الملكية الخاصة على هنود المابوتشي Mapuche. قدمت الحكومة الأموال، السياج، والبذار لأولئك الذين وافقوا على تقسيم جماعاتهم مقابل الحصول على امتياز جيد. إذا لم يوافقوا، حذرت الحكومة، فسوف يقبلون دون امتياز.

لم يكن بينوشيه أول من آمن أن الجشع هو جزء من الطبيعة الإنسانية وأن الله يريد الأمر هكذا. منذ زمن طويل، حاول الفاتح بدرو دي بالديبيا أن يفكك جماعات تشيلي المحلية. مذاك، تم الاستيلاء على كل شيء من الهنود بالسيف والنار، كل شيء: الأرض، اللغة، الدين، العادات. ولكن الهنود، المطوقين، المسجونين في البؤس، الذين أنهكتهم حروب كثيرة وخداع كثير، أصروا على الإيمان أن العالم منزل يمكن تقاسمه.

1979: تشاخول Chajul

نوع آخر من التربية السياسية في غواتيمالا

ولد باتروسينيو مينتشو، الهندي من المايا كويتشي، في قرية تشيميل Chimel، دافع، مع والديه، عن أراضي جماعته المنهكة من الغارات. تعلم من والديه أن يسير على المرتفعات دون أن ينزلق، أن يحيي الشمس حسب العادات القديمة، أن ينظف الأرض ويسمدها، وأن يربط حياته بها.

الآن، هو أحد السجناء الذين أحضرتهم شاحنات الجيش إلى قرية تشاخول كي يراهم الناس. تعرفت شقيقته، ريغوبيرتا، عليه، رغم أن وجهه منتفخ من الضربات وينزف من عينيه، وفمه بلا لسان، وأصابعه بلا أظافر.

كان خمسمائة جندي ـ هنود أيضا، هنود من مناطق أخرى ـ يحرسون الطقس. أجبر جميع سكان تشاخول، الذين جمعوا في حلقة، على المشاهدة. كان على ريغوبيرتا أن تراقب، بينما في داخلها، كما في الجميع، كانت تبرعم لعنة صامتة وندية. عرض النقيب الأجساد العارية، مجروحة، مبتورة، لا تزال حية، وقال إنهم كوبيون جاؤوا ليثيروا الاضطرابات في غواتيمالا. بعد أن شرح تفاصيل عقوبة كل منهم، صرخ النقيب:

«انظروا جيدا إلى ما ينتظر المغاوير!»

ثم بلل السجناء بالبنزين وأحرقهم.

كان باتروسينيو لا يزال شتلة ذرة طرية. ولم يزرع إلا منذ ستة عشر عاما.

هنود المايا يزرعون كل طفل يولد

عاليا في الجبال، كان هنود غواتيمالا يدفنون حبل السرة بينما يقدمون الطفل إلى الجد فولكانو، والأم الأرض، والأب الشمس، والجدة القمر، وجميع الأجداد الأقوياء، ويطلبون منهم أن يحموا الوليد الجديد من الخطر والخطأ.

أمام المطر الذي يروينا وأمام الريح التي تشهد علينا، نحن، الذين هم جزء منك، نزرع هذا الطفل الجديد، هذا الرفيق الجديد، في هذا المكان...

1980: لاباث

مافيا الكوكايين Cococracy

أعلن الجنرال لويث غارسيا ميثا، مخطط الانقلاب الـ 189 في قرن ونصف من تاريخ بوليفيا، أنه سيؤسس اقتصادا حرا، كما في تشيلي، وأكد أن جميع المتطرفين سيختفون، كما في الأرجنتين.

مع غارسيا ميثا، سيطر مهربو الكوكايين على الدولة. كان وزير داخليته الجديد، العقيد لويس آرسي غوميث، يقسم وقته وطاقته بين تهريب المخدرات ورئاسة القسم البوليفي من العصبة العالمية المضادة للشيوعية. قال إنه لن يستريح مطلقا *إلى أن يزيل سرطان الماركسية*.

رفعت الحكومة العسكرية الستارة باغتيال مارسيلو غيروكا سانتا كروث، عدو شركة غلف أويل ولصوصها الأربعين، الخصم العنيد للقذارة المختبئة.

1980 : سانتا آنا دي ياكيوما

صورة رجل أعمال حديث

يطلق من ردفه، الرصاص والرشاوى. يحمل عند خصره مسدسا ذهبيا، وفي فمه ابتسامة ذهبية. يستخدم حراسه الشخصيون الرشاشات المزودة بمنظار. يمتلك اثني عشرة طائرة مقاتلة مسلحة بالصواريخ وثلاثين طائرة شحن تقلع باكرا كل صباح من الغابة البوليفية محملة بمعجون الكوكايين. كان روبيرتو سواريث، عم ورفيق وزير الداخلية الجديد، يصدر طنا كل شهر.

قال: «*فلسفتي هي أن أعمل جيدا.*»

زعم أن المال الذي منحه للعسكر البوليفيين يكفي لدفع ديون البلد الخارجية.

كمثل رجل أعمال أميركي لاتيني جيد، كان سواريث يرسل أرباحه إلى سويسرا، حيث تجد ملاذا في السرية المصرفية. ولكن في سانتا آنا دي ياكيوما، البلدة التي ولد فيها، رصف الشارع الرئيسي، أصلح الكنيسة، ومنح آلات خياطة للأرامل والأيتام، وحيث يستدير هناك يراهن بآلاف الدولارات على رمية نرد أو صراع ديكة.

سواريث هو أهم رأسمالي بوليفي في مشروع ضخم متعدد القوميات. بين يديه، يتضاعف سعر ورقة الكوكايين عشر مرات وهي تتحول إلى معجون وتغادر البلاد. فيما بعد، وحين تصبح مسحوقا وتصل إلى الأنف الذي يستنشق، يحلق سعرها مائتي مرة. كأية مادة خام من بلد فقير، تملأ أوراق الكوكة جيوب الوسطاء، وقبل كل شيء جميع الوسطاء في البلدان الغنية التي تستهلكها بعد تحويلها إلى كوكايين، الإلاهة البيضاء.

الإلاهة البيضاء

هي الأغلى بين الآلهة. تكلف أكثر بخمس مرات من الذهب. في الولايات المتحدة، هناك عشرة ملايين مؤمن يتوقون ويحترقون، جاهزين للقتل، ويقتلون أنفسهم من أجلها. يرمون، كل عام، ثلاثين بليون دولار عند قدم مذبحها المشع من الثلج النقي. وعلى المدى الطويل، تدمرهم، ومن البداية تسرق أرواحهم، ولكن، مقابل ذلك، تجعلهم، بقدرتها، سوبرمانات للحظة.

1980: سانتا مارتا

الماريجوانا

من كل دولار من الأحلام التي يشتريها مدخن ماريجوانا أميركي بالكاد يصل سنت واحد إلى أيدي الفلاحين الكولومبيين الذين يزرعونه. تذهب السنتات التسع وتسعين الأخرى إلى المهربين، الذين يملكون، في كولومبيا، 1500 مطار، خمسمائة طائرة، ومائة سفينة.

على حواف ميديين Medellin أو سانتا مارتا، تعيش مافيا المخدرات في منازل لافتة للنظر. في الأمام يحبون أن يعرضوا، على منصات غرانيتية، طائرات صغيرة استخدموها في عمليتهم الأولى. يهزون أطفالهم في مهود ذهبية، يمنحون أظافر ذهبية لعشيقاتهم، أو يضعون على خاتم الإصبع أو ربطة العنق قطع ألماس متحفظة كأضواء السيارات الأمامية.

والمافيا تطهر قواتها بشكل اعتيادي. منذ أربع سنوات قتلت بنيران الرشاشات لوتشو برانكويا، الأشهر بين المهربين، على زاوية شارع في مدينة سانتا مارتا. أرسل القتلة إلى الجنازة إكليلا من الأزهار على شكل قلب وأخذوا مجموعة لينصبوا تمثالا للمتوفى في الساحة.

1980: سانتا مارتا

القديس أغاتون

ندب لوتشو بارانكويا بشكل واسع. بكى عليه الأطفال الذين كانوا يلعبون في حديقة تسليته، كما فعلت الأرامل والأيتام الذين حماهم، ورجال الشرطة الذين أكلوا من يده. في الحقيقة، كل مدينة سانتا مارتا، التي عاشت بفضل ديونه وتبرعاته، بكت. وبكى من أجله أيضا القديس أغاتون.

القديس أغاتون هو القديس الراعي للسكارى. في كرنفال الأحد، يصعد سكارى من كل الساحل الكولومبي إلى قرية ماماتوكو، على حواف سانتا مارتا. هناك يخرجون القديس أغاتون من الكنيسة ويسيرون به ويغنون أغاني قذرة ويرشونه بشراب كحولي قوي، فقط بالطريقة التي يحب.

ولكن ما يعرضه السكارى هو فقط دجال أحضر من إسبانيا. ذلك أن القديس أغاتون الحقيقي، الذي له وجه هندي ويعتمر قبعة قشية، اختطفه منذ ربع قرن كاهن معتدل في شرب الخمور وهرب واضعا القديس تحت مدرعته. عاقب الله ذلك الكاهن بالجذام وختم عيني الحافظ الذي رافقه، لكنه ترك القديس الحقيقي أغاتون مخبأ في قرية سكري Sucre البعيدة.

ذهبت لجنة إلى سكري في الأيام الأخيرة لكي تتوسل إليه أن يعود: «*منذ أن غادرت*»، قالوا له، «*لم يعد هناك معجزات أو تسلية*.»

رفض القديس أغاتون وقال إنه لن يعود إلى سانتا مارتا لأنهم قتلوا هناك صديقه لوتشو بارانكويا.

1980: غواتيمالا سيتي

جريدة السينما

كان الجنرال روميو لوكاس غارسيا، رئيس غواتيمالا، هو الذي أصدر الأمر بإشعال النار في السفارة الإسبانية بمن فيها. جاءت هذه الإفادة من إلياس باراوونا، الناطق الرسمي باسم وزارة الداخلية، الذي دعا إلى مؤتمر صحفي بعد أن التجأ سياسيا إلى بنما.

قال باراوونا إن الجنرال لوكاس غارسيا مسؤول شخصيا عن موت الأشخاص التسعة وثلاثين الذي أحرقوا أحياء بقنابل الشرطة. كان بين الضحايا سبعة وعشرون زعيما هنديا احتلوا السفارة بسلام كي يشجبوا المجازر في إقليم كيتشي Queche.

أضاف باراوونا إن الجنرال لوكاس غارسيا يقود عصابات العسكر والشرطة الشاذة المعروفة باسم سرايا الموت، وساعد في وضع قوائم بأسماء المعارضين الذين قدر عليهم أن يختفوا.

زعم سكرتير الإعلام السابق لوزارة الداخلية أنه طبق في غواتيمالا «برنامجا لإسكات وإبادة الشيوعية»، يستند إلى وثيقة مؤلفة من أربعمائة وعشرين صفحة وضعها أخصائيون في الولايات المتحدة على أساس تجربتهم في حرب فييتنام.

في النصف الأول من عام 1980 في غواتيمالا، قتل 27 بروفسورا جامعيا، ثلاثة عشر صحفيا، وسبعون قائدا فلاحيا، معظمهم من الهنود. وكان للقمع حضورا خاصا في مناطق الجماعات الهندية في إقليم كويتشي، حيث اكتشفت حديثا كميات نفط ضخمة.

1980: أوسبانتان

ريغوبيرتا

هي هندية من المايا كيتشي، ولدت في قرية تشيميل، وكانت تقطف البن والقطن في المزارع الساحلية منذ أن تعلمت السير. شاهدت في حقول القطن موت اثنين من أشقائها ـ نيكولاس وفيليبي، الصغير ـ وكذلك صديقها المفضل، الذي كان في ريعان فتوته. سقط الجميع ضحايا لرش المبيدات.

في العام الماضي، في قرية تشاخول، شاهدت ريغوبيرتا منتشو كيف أحرق الجيش شقيقها باتروسينيو حيا. بعد ذلك حالا عانى والدها من المصير نفسه في السفارة الإسبانية. وفي أوسبانتان، قتل الجنود أمها، تدريجيا، وقطعوها إلى أشلاء بعد أن ألبسوها لباس أحد المغاوير.

من جماعة تشيميل، حيث ولدت ريغوبيرتا، لم يبق أحد حيا.

ريغوبيرتا، التي هي مسيحية، علمت أن المسيحيين الحقيقيين يسامحون مضطهديهم ويصلون لأرواح جلاديهم. علمت أن المسيحي الحقيقي حين يضرب على خده يدير الخد الآخر.

قالت ريغوبيرتا: *«لم يعد لدي خد لأديره.»*

1980: سان سلفادور

الأعطية

لم تتحسن علاقته مع الله إلا منذ سنتين. الآن يتحدث مع الجميع ولأجل الجميع. إن كل طفل ينجبه شعب عذبه الأقوياء هو طفل الله مصلوبا، وينبعث الله في الناس بعد كل جريمة يرتكبها المستكبرون. لم يعد المونسينور روميرو، كبير أساقفة السلفادور، محطم العالم، كاشف العالم، يشبه رعاة الأرواح الثرثارين الذين استخدمهم المستكبرون ليصفقوا. أصبح البشر العاديون يقاطعون، بتصفيق حماسي، مواعظه التي تشجب إرهاب الدولة.

البارحة، الأحد، حض كبير الأساقفة الشرطة والجنود على عصيان أمر قتل أشقائهم الفلاحين. باسم المسيح، قال روميرو للشعب السلفادوري: «*انهضوا واذهبوا.*»

اليوم، الاثنين، وصل القاتل إلى الكنيسة ترافقه دوريتان للشرطة. يدخل وينتظر، مختبئا خلف عمود. كان روميرو يحتفل بالقداس. حين فتح ذراعيه وقدم الخبز والخمرة، جسد ودم البشر، ضغط القاتل على الزناد.

1980: مونتيفيديو

شعب يقول لا

دعت ديكتاتورية الأوروغواي إلى استفتاء عام وفشلت.

هذا الشعب الذي أجبر على الصمت بدا كأنه أخرس، ولكنه حين فتح فمه، قال لا. كان صمت تلك الأعوام مصما بحيث أن العسكر خلطوا بينه وبين الاستقالة. لم يتوقعوا مطلقا استجابة كهذه. سألوا فقط لمجرد السؤال، ككبير خدم يأمر دجاجاته أن تقول بأية صلصة تفضل أن تؤكل.

1980: في جميع أنحاء نيكارلغوا

بطريقتها

لا تطلق الثورة الساندينية النار على أي شخص، ولكن لم يبق من جيش سوموزا شريط نحاسي. كانت البنادق تمر في أيدي الجميع، بينما نصبت راية الإصلاح الزراعي فوق حقول مهجورة.

غزا جيش من المتطوعين، بأسلحة من أقلام الرصاص والحقن، بلاده. إنها ثورة، ووحي أولئك الذين يؤمنون ويبدعون، وهم ليسوا آلهة معصومة بخطوة ملكية، وإنما بشر عاديون، فرضت عليهم الطاعة قرونا ودربوا على العجز. الآن، حتى حين يتنزهون، يتابعون السير، بحثا عن الخبز والكلمة: هذه الأرض التي فتحت فمها، متلهفة لتأكل وتتحدث.

1980: أسنثيون

ستروبسنر Stroessner

تمزق تاتشيتو سوموزا، المخلوع، المنفي، إلى أشلاء في زاوية شارع بأسنثيون.

سأل الصحفيون في ماناغوا: «*من فعلها*؟»

أجاب القائد توماس بورغي: فونتيو بيخونا[1] Fuenteovejuna.

عثر تاتشيتو على ملاذ في عاصمة البارغواي، المدينة الوحيدة في العالم التي لا يزال فيها تمثال نصفي برونزي لوالده تاتشو سوموزا Tacho Somoza، وحيث لا يزال هناك شارع باسم الجنرال فرانكو.

البارغواي، أو القليل الذي ترك من البارغواي بعد كثير من الحروب والنهب، هي ملك الجنرال ألفريدو ستروبسنر. كل خمسة أعوام كان هذا المحارب المحنك، زميل سوموزا وفرانكو يجري انتخابات ليؤكد سلطته. ولكي يستطيع البشر أن يصوتوا علق لمدة أربعة وعشرين ساعة حالة الحصار الأبدية المفروضة على الباراغواي.

كان ستروبسنر يعتقد أنه عصي على الخطر وذلك لأنه لا يحب أحدا. الدولة هي هو. كان كل يوم، تماما في السادسة مساء، يتصل بمدير البنك المركزي ويسأله: «*كم جمعنا الليلة*؟»

1980: في جميع أنحاء نيكاراغوا

اكتشاف

انطلقوا على الأحصنة، أو في الزوارق، أو سائرين. شن رجال الثورة حملات لمحو الأمية اخترقت أكثر الزوايا اختباء في نيكاراغوا. في ضوء المصباح كانوا يعلمون أولئك الذين لا يعرفون استخدام قلم الرصاص، لكي لا يخدعهم مرة أخرى بشر يظنون أنفسهم أذكياء.

وبينما هم يدرسون كانوا يتقاسمون الطعام القليل الذي بجعبتهم، يلجأون إلى الأعشاب والمحاصيل، يقشرون أيديهم وهم يقطعون الخشب، ويمضون الليل على الأرض في صفع البعوض. يكتشفون العسل البري في الأشجار، وفي البشر يكتشفون الأساطير، والأشعار، والحكمة الضائعة، شيئا فشيئا بدأوا يعرفون اللغات السرية للأعشاب التي تقوي النكهة، تشفي الآلام، وتعالج لسعات الثعابين. وفيما هم يعلمون، كان رجال الثورة يتعلمون أعاجيب وأحقاد هذه البلاد،

---

[1] – الإشارة هنا هي إلى مسرحية فونتيوبيخونا للمسرحي الأسباني لوبي دي بيغا (1562– 1635)، والتي فيها جميع سكان البلدة التي تحمل هذا الاسم يدعون المسؤولية الجماعية عن قتل طاغية. أكثر النصوص شهرة في المسرحية يقول: «من قتل الكومندادور؟ فونتيوبيخونا، سنيور.»

بلادهم التي يسكنها الباقون على قيد الحياة. ففي نيكاراغوا، أي شخص لا يموت من الجوع، أو المرض، أو من رصاصة، يموت من الضحك.

1980: نيويورك

يبدو تمثال الحرية كأنه مصاب بالجدري

وذلك بسبب الغازات السامة التي ترميها معامل كثيرة في السماء والتي تعيدها الأمطار والثلوج إلى الأرض. قتلت مائة وسبعون بحيرة بسبب هذا المطر الحمضي في ولاية نيويورك وحدها، لكن مدير المكتب الفيدرالي للإدارة والميزانية قال إن الأمر لا يستحق أن يزعج المرء نفسه من أجله. ففي النهاية، لا تشكل هذه البحيرات إلا 4٪ من مياه الولاية.

العالم حلبة سباق. الطبيعة، عائق. ترك النفس المميت للمداخن أربعة آلاف بحيرة دون أسماك أو نباتات في أونتاريو، بكندا.

«*من الأفضل أن نطلب من الله أن يتدخل*»، قال صياد.

1980: نيويورك

لينون

قميص معلق على سقف يطوي ذراعيه. الريح تشكو. ينضم إلى زئير وصراخ حياة المدينة زعيق بوق يندفع في الشوارع. في ذلك اليوم القذر في مانهاتن، قتل المبدع الموسيقي جون لينون.

لم يرد أن يربح أو يقتل. لم يوافق أن العالم يجب أن يكون سوق بورصة أو ثكنة. كان لينون على هامش السكة. يغني أو يصفر بنظرة شاردة، يراقب عجلات الآخرين تدور في الدوار الأبدي الذي يروح ويغدو بين مشفى المجانين والمسلخ.

1981: سورأمار Surahammar

المنفى

ما المسافة التي تفصل معسكر تعدين بوليفي عن مدينة في السويد؟ كم من الأميال، كم من القرون، كم من العوالم؟

دوميتيلا، إحدى النساء الخمس اللواتي أطحن بديكتاتورية عسكرية، حكمت عليها بالنفي ديكتاتورية عسكرية أخرى، ونفيت مع زوجها المعدن وأطفالها الكثيرين، إلى ثلوج أوروبا الشمالية.

من مكان لا يوجد فيه أي شيء، إلى مكان مليء بكل شيء، من البؤس الأسوأ إلى الوفرة الأعلى. أعين مليئة بالدهشة في وجوه الطين تلك: هنا في السويد، يرمون في القمامة تلفزيونات

جديدة تقريبا، ألبسة وأثاثا بالكاد قد استخدم، وبرادات وآلات لغسل الصحون تعمل بشكل كامل.

دوميتيلا ممتنة لدعم السويديين ومعجبة بحريتهم، لكن القمامة تسيء إليها والوحدة تزعجها. يعيش هؤلاء البشر الأغنياء الفقراء وحيدين أمام تلفزيوناتهم، يشربون وحدهم، يأكلون وحدهم، يتحدثون مع أنفسهم:

قالت دوميتيلا: «*هناك، في بوليفيا، نجتمع سوية حتى من أجل شجار.*»

1981: سيليكا كانتون

«حظ سيىء، خطأ بشري، طقس سيىء»

تحطمت طائرة في نهاية أيار، وهكذا انتهت حياة جيمي رولدوز، رئيس الإكوادور. سمع بعض الفلاحين الانفجار ورأوا الطائرة تشتعل قبل أن تتحطم.

لم يسمح للأطباء بفحص الجسد. لم تشرح الجثة. لم يظهر الصندوق الأسود مطلقا، وقالوا إنه لم يكن في الطائرة صندوق. الباحثون ملسوا فوق مشهد الكارثة. محيت أشرطة من أبراج المراقبة في كيتو، غواياكيل، ولوخا. مات عدد من الشهود في حوادث. استبعد تقرير القوى الجوية مسبقا أية جريمة.

حظ سيء، خطأ بشري، طقس سيىء. لكن الرئيس رولدوز كان يدافع عن نفط الإكوادور المشتهى، أعاد العلاقات الممنوعة مع كوبا، ودعم الثورات الملعونة في نيكاراغوا، والسلفادور، وفلسطين.

بعد شهرين تحطمت طائرة أخرى في بنما. حظ سيىء، خطأ بشري، طقس سيىء. اختفى فلاحان سمعا الطائرة تنفجر في الجو. كان عمر توريخوس، المذنب باستعادة قناة بنما، يعرف أنه لن يموت كعجوز في الفراش.

تقريبا، في وقت متزامن، تحطمت مروحية في البيرو. حظ سيىء، خطأ بشري، طقس سيىء. وهذه المرة الضحية هو رئيس الجيش البيروفي الجنرال رافايل هويوس ربيو، العدو القديم لستاندارد أويل وشركات أخرى متعددة القوميات.

1982: جنوب جزر جيورجيا

صورة شخص شجاع

سمته أمهات ساحة دي مايو الملاك، بسبب وجهه الطفولي القرنفلي. أمضى بضعة شهور وهو يعمل معهن، دائما يبتسم، دائما مستعد أن يقدم المساعدة. وفي مساء ما، قبض البوليس على عدد

من أكثر مقاتلي الحركة نشاطا وهم يغادرون اجتماعا. اختفت الأمـهات كأبنائـهن، وبناتـهن ولـم يسمع عنهن أي شيء.

أشار الملاك بإصبعه إلى الأمهات المختطفات، وهـذا المـلاك هـو مـلازم أول البارجـة الحربيـة ألفريدو أستيث، عضو قوة المهمة 3 ـ 3 ـ 2 في مدرسـة الميكانيكـا البحريـة، الـذي يملـك سـجلا طويلا ومتألقا في غرف التعذيب.

هذا الجاسوس والجلاد، الذي هو الآن ملازم أول فـي سـفينة حربيـة، كـان أول مـن استسـلم للإنكليز في حرب المالبيناس Malvinas. استسلم دون أن يطلق طلقة واحدة.

1982: جزر مالبيناس

حرب المالبيناس

انتهت الحرب الوطنية التـي وحـدت، للحظـة، المداسـين والـذي يدوسـون، بانتصـار جيـش بريطانيا العظمى الاستعمارية.

الجنرالات والعقداء الأرجنتينيون الذي وعدوا أن يسفحوا آخر قطرة من دمائهم لم يجـرح لـهم إصبع. أولئك الذين أعلنوا الحرب لم يرتدوا حتى مظهر الضيف. هكذا بحيـث يمكـن أن يرفـرف العلم الأرجنتيني فوق قطع الثلج هذه، في قضية عادلة في أيد غير عادلة،أرسـلت القيـادة العليـا إلى المسلخ شبانا مقيدين بالخدمة الإلزامية، ماتوا من البرد أكثر مما ماتوا من الرصاص.

لم يخفق نبضهم. بأيد قوية وقع مغتصبو النسـاء المقيـدات، وجـلادو العمـال غـير المسـلحين، الاستسلام.

1982: طرق لامنتشا

السيد جواب الكرة

أكمل نصف قرنه الأول من الحياة بعيـدا عـن مكـان ولادتـه. فـي قريـة قشـتالية، أمـام أحـد طواحين الهواء التي تحدت دون كيخوتة، احتفـل خـابيير بيافـاني Javier Villafane، بطريـك محركي دمى أميركا، بعيد ميلاد ابنه المفضل. ليكون جديرا بهذا التاريخ العظيم، قرر خـابيير أن يتزوج غجرية جميلة قابلها لتوه، وترأس السيد جواب الكرة المأدبة بوقاره الكئيب المميز.

تابع السيد جواب الكرة والحاج خابيير الحياة معـا وحركـا الدمـى علـى طـول طـرق العـالم، العذبة والسيئة. كلما مرض السيد جواب الكرة، ضحية الديدان أو العت، يشفي خـابيير جراحـه بصبر لا ينفد وفيما بعد يعتني به وهو نائم.

في بداية كل أداء، أمام حشد من الأطفال المترقبين، يرتجف الاثنان وكأنهما في عرضهما الأول.

1982: ستوكهولم

الروائي غارسيا ماركيز يتلقى جائزة نوبل ويتحدث عن أراضينا المحكوم عليها بمائة عام من العزلة

أتجرأ وأعتقد أن هذا الواقع الزائد عن حده، وليس التعبير الأدبي فحسب، هو الذي استحق انتباه أكاديمية الآداب السويدية. واقع ليس من الورق، وإنما واقع يعيش فينا ويحدد كل لحظة من ميتاتنا اليومية التي لا تحصى، وهذا يغذي مصدر إبداع نهما ومليئا بالألم والجمال، لا يشكل منه هذا الكولومبي الجوال إلا صفرا أفرده الحظ. الشعراء والشحاذون، الموسيقيون والأنبياء، المحاربون والأنذال، نحن جميع مخلوقات ذلك الواقع المنزوع اللجام، علينا أن نسأل فقط قليلا من مخيلتنا، لأن مشكلتنا الحاسمة كانت غياب طرق تقليدية لجعل حياتنا قابلة للتصديق. هذا يا أصدقائي جوهر العزلة ...

إن ترجمة واقعنا من خلال نماذج لا يخدم إلا في جعلنا مجهولين أكثر، وأقل حرية، وأكثر انعزالا ...

كلا: عنف تاريخنا الذي لا يقاس وألمه هما نتيجة ظلم قديم ومرارة لم ترو، وليس نتيجة مؤامرة حيكت على بعد ثلاثة آلاف فرسخ عن بلداننا. لكن كثيرا من القادة والمفكرين الأوروبيين فكروا هكذا، وهذا مع طفولية المحافظين الذين نسوا الإفراط المثمر لشبابهم، وكأنه كان من المستحيل العثور على مصير آخر سوى أن نحيا تحت رحمة سيدي العالم الكبيرين. هذا، يا أصدقائي، درع عزلتنا نفسه...

1983 : سينت جورج Saint George's

إعادة فتح جزيرة غرانادا

غرانادا الصغيرة، بقعة الخضرة التي لا تكاد تلمح في الكاريبي الشاسع، عانت من غزو استعراضي قام به المارينز. أرسلهم الرئيس رونالد ريغان لكي يقتلوا الاشتراكية، لكن المارينز لم يقتلوا إلا جثة. قبل ذلك ببضعة أيام، اغتال عسكريون محليون معينون، جشعون للسلطة، الاشتراكية مسبقا، باسم الاشتراكية.

خلف المارينز هبط وزير الخارجية الأميركية جورج شولتز وقال في مؤتمر صحفي: «*من النظرة الأولى أدركت أن هذه الجزيرة يمكن أن تكون مشروعا عقاريا رائعا.*»

1983: لا برمودا

ماريانيلا

كل يوم، في الفجر، يصطف أقرباء، وأصدقاء، وعشاق السلفادوريين المختفين. يأتون ليقدموا الأنباء أو في طلبها، ليس لهم مكان آخر ليسألوا عن المفقودين. كان باب مفوضية حقوق الإنسان مفتوحا دائما، أو يستطيع المرء أن ينزلق بسهولة من الثغرة التي فتحتها قنبلة في جدار بنائها.

منذ أن بدأت حركة المغاوير تنمو في الريف، توقف الجيش عن استخدام السجون. أدانتهم المفوضية أمام العالم: *تموز: خمسة عشر طفلا تحت سن الرابعة عشرة سجنوا بتهمة الإرهاب وعثر عليهم مقطعين. آب: ثلاثة عشر ألف وخمسمائة مدني اختفوا أو قتلوا هذا العام...*

من بين عمال المفوضية، كانت ماجدلينا إنركويث، تلك التي ضحكت أكثر، أول من سقط. رمى الجنود جسدها المجرح على الشاطئ. ثم جاء دور رامون بالاداريس الذي عثر عليه مثقبا بالرصاص في الوحل على جانب الطريق. لم يبق إلا ماريانيلا غارسيا بيلاس التي قالت: «*العشبة السيئة لا تموت مطلقا*».

قتلوها قرب قرية لا برمودا في أراضي كوسكاتلان المحروقة. كانت تسير بكاميرتها ومسجلتها تجمع الأدلة حول إطلاق الجيش للفوسفور الأبيض على الفلاحين المتمردين.

1983: سانتياغو دي تشيلي

عشرة أعوام بعد إعادة فتح تشيلي

قال وزير المالية: «*لكم الحق باستيراد جمل*.» من شاشة التلفزيون كان وزير المالية يحض التشيليين على الاستفادة من التجارة الحرة. في تشيلي يستطيع أي شخص أن يزين بيته بتمساح أفريقي أصلي، وتتألف الديموقراطية من الخيار بين الشيفاز ريغال والجوني ووكر بلاك ليبل.

استوردت جميع الأشياء: المكانس، علاقات أقفاص الطيور، الذرة، الماء للويسكي، الأرغفة المستطيلة المحدبة تأتي جوا من باريس. النظام الاقتصادي، المستورد من الولايات المتحدة، أجبر التشيليين أن يخدشوا أحشاء جبالهم من أجل النحاس، ولا شيء أكثر. لا يستطيعون أن يصنعوا دبوسا، لأن الدبابيس الكورية الجنوبية تأتي بسعر أقل. أي فعل إبداعي هو جريمة ضد قوانين السوق ـ أي، قوانين القدر.

من الولايات المتحدة تأتي البرامج التلفزيونية، السيارات، الرشاشات، الأزهار البلاستيكية. في حارات الطبقة العليا في سانتياغو لا يستطيع المرء أن يتحرك دون أن يصطدم بالكمبيوترات اليابانية، وأفلام الفيديو الألمانية، وأجهزة التلفزيون الهولندية، والشوكولاتة السويسرية،

والمارملاد الإنكليزي، ولحم الخنزير الدانمركي، والثياب التايوانية، والعطور الفرنسية، والتن الأسباني، والزيت الإيطالي...

وكل من لا يستهلك لا يوجد. وجميع الآخرين يستخدمون ويرمون، رغم أنهم يدفعون الفواتير لحفلة الكرديت كارد هذه.

يبحث العاطلون عن العمل عن الطعام من خلال الرفض. يرى المرء في كل مكان لافتات تقول: لن نفتح. لا تلحوا.

تضاعف الدين الخارجي ونسبة الانتحار ستة أضعاف.

1983: وهد بين كاليبادو وبيتوركا

التلفزيون

لم تكن عائلة إسكاراتي تملك شيئا - إلى أن أحضر أرماندو تلك العلبة على ظهر بغله.

غاب أرماندو إسكاراتي سنة كاملة، ليعمل في البحر كطباخ للصيادين، وكذلك في بلدة لا ليغوا حيث قام بأعمال غريبة وأكل الفتات، كادحا ليلا ونهارا إلى أن جمع مالا كافيا ليشتريه.

حين نزل أرماندو عن بغله وفتح العلبة، ذهلت الأسرة من الخوف. لم يـر أحد مثله في هذه المناطق من الجبال التشيلية. جاء الناس من أماكن بعيدة، وكأنهم في حج، ليفحصوا جهاز السوني الكامل الألوان الذي عمل على بطارية شاحنة.

لم تكن عائلة إسكاراتي تملك شيئا. ولا يزالون لا يملكون أي شيء وينامون مكومين مع بعضهم بعضا، لا يكادون يحصلون على الجبن الذي يصنعونه، وعلى الصوف الذي ينسجونه، وعلى قطعان الماعز التي يرعونها لرئيس المزرعة. لكن التلفزيون انتصب كطوطم وسط كوخهم الطيني المسقوف بالخيزران. من الشاشة قدمت لهم الكوكاكولا شرارة الحياة،والسبرايت فقاعات الشباب، ومنحتهم سجائر المارلبورو الرجولة، حلوى الكادبري منحتهم التواصل الإنساني، بطاقات الاعتماد، الثروة، عطور ديور وقمصان كاردان، منحتهم التميز، خمر السنزانو منحهم الموقع الاجتماعي، والمارتيني، الحب الجامح. حليب النسلة المبودر منحهم فتوة أبدية، وسيارة الرينو طريقة حياة جديدة.

1983: بوينوس آيرس

الجدات المحققات

بينما كانت الديكتاتورية العسكرية تتفكك في الأرجنتين، كانت جدات ساحة دي مايو ينطلقن للبحث عن أحفادهن الضائعين. هؤلاء الأطفال، الذين سجنوا مع آبائهم، أو ولدوا في معسكرات التعذيب، تم توزيعهم كغنائم حرب، وكثير منهم تبناهم من قتل آباءهم. حققت الجدات على

أساس ما يستطعن أن ينقبن عنه ـ الصور، المعلومات الضالة، علامة ولادة، شخص ما رأى شيئا ما ـ وهكذا، فتحن ممرا بدهاء محلي وضربات مظلة، واستعدن بعض الأطفال.

تامارا آرثي، التي اختفت في الواحدة والنصف، لم تصل إلى الأيدي العسكرية. إنها في حي فقير في الضواحي، في منزل الناس الطيبين الذين التقطوها حين رميت إلى القمامة. بطلب من الأم، تولت الجدات البحث عنها. لم يمتلكن إلا بعض الخيوط، ولكن بعد مسح طويل ومعقد، حددن مكانها. كل صباح تبيع تامارا الكيروسين على عربة يجرها حصان، لكنها لا تشكو من مصيرها. في البداية لم ترد حتى أن تسمع عن أمها الحقيقية. شرحت لها الجدات بالتدريج إنها ابنة روزا، العاملة البوليفية التي لم تتخل عنها مطلقا. إنه في إحدى الليالي قبض على أمها على بوابة المصنع، في بوينس آيرس....

1983: ليما

تامارا تطير مرتين

عذبت روزا ـ تحت إشراف طبيب كان يشير متى يجب التوقف ـ واغتصبت، وأطلق عليها برصاص فارغ. أمضت ثماني سنوات في السجن، دون محاكمة أو تفسير، وفقط في العام الماضي طردت من الأرجنتين. الآن، في مطار ليما، تنتظر بينما ابنتها تامارا تطير فوق الآنديز نحوها.

رافقت تامارا على الطائرة جدتان من اللواتي عثرن عليها. كانت تلتهم كل قطعة من الطعام تقدم إليها في الطائرة، دون أن تترك كسرة خبز أو حبة سكر.

في ليما، تكتشف روزا وتامارا بعضهما بعضا. تنظران سوية إلى المرآة. إنهما متماثلتان: الأعين والعلامات نفسها في الأمكنة نفسها.

حين خيم الليل، حممت روزا ابنتها. وهي تضعها في السرير، شمت رائحة حليبية عذبة عليها، وهكذا حممتها مرة أخرى. ثم أخرى. ولكن كلما استخدمت المزيد من الصابون، يصبح من الصعب إزالة الرائحة. إنها رائحة غريبة... وفجأة تذكرت روزا. هذه رائحة الأطفال الصغار حين يفطمون: تامارا في العاشرة، والليلة تفوح منها رائحة كطفل حديث الولادة.

1983: بوينس آيرس

ماذا لو كانت الصحراء محيطا والأرض سماء؟

أمهات وجدات ساحة دي مايو مخيفات. ما الذي سيحدث لو تعبن من التحلق أمام المجلس الحكومي وبدأن يوقعن مرسومات حكومية؟ وإذا أمسك الشحاذون على باب الكاتدرائية صدرة كبير الأساقفة وقلنسوته المربعة وبدأوا يبشرون بالمواعظ من على المنبر؟ وإذا بدأ مهرجو السيرك الشرفاء يصدرون الأوامر في الثكنات ويضعون المناهج في الجامعات؟ وإذا فعلوا؟ وإذا؟

1983: نجد الالتماسات Plateau Petitions

مسرح الأحلام المكسيكي

كما يفعلون كل عام، يجيء هنود الزابوتيك Zapotec إلى نجد الالتماس.

في جانب هناك البحر، وفي الآخر، قمم وجروف.

هنا تتحرر الأحلام. ينهض رجل راكع ويدخل إلى الغابة، على ذراعه عروس لامرئية. يتحرك شخص ما كقنديل بحر كسول، يبحر في سفينة جوية. شخص يرسم على الريح وآخر يسير على الحصان ببطء ملكي، يعبر غصن شجرة. تصبح الحصى حبات ذرة وجوز البلوط يصبح بيضا. العجائز يصبحون أطفالا، والأطفال عمالقة، ورقة الشجرة تصير مرآة تعكس وجها جميلا لكل من ينظر إليها.

وسوف تنكسر الأحجية إذا تجرأ أي شخص وفقد جديته حيال بروفة لباس الحياة هذه.

1983: نهر توما

تحقق

في نيكاراغوا كان الرصاص يئز رائحا غاديا بين الكرامة والاحتقار، وتقضي الحرب على حيوات كثيرة.

هذه إحدى الكتائب التي تقاتل الغزاة. جاء المتطوعون من أفقر أحياء ماناغوا إلى سهول نهر توما البعيدة.

حين تحل لحظة هدوء، ينشر البروفسور بيتو عدوى الرسائل. تصيب العدوى رجل من الميليشيا طلب منه أن يكتب له رسالة. فعل بيتو ذلك، ثم قال: «*هذه آخر رسالة أكتبها لك وسوف أقدم لك شيئا أفضل.*»

سيباستيان فويرتيس، الجندي الحديدي من باريو إل مالديتو، والذي هو رجل متوسط العمر شارك في كثير من الحروب وتزوج كثيرا من النساء، وهو أحد الذين نموا وحكم عليهم بتعلم الأبجدية. لبضعة أيام كان يكسر أقلام الرصاص ويمزق الأوراق، في فترات الاستراحة من إطلاق النار، ويثبت في وجه الكثير من المزاح الثقيل. وحين حل الأول من أيار، انتخبه أصدقاؤه ليعد الخطاب.

عقد الاجتماع في حقل أخضر مليء بالروث والقراد. وقف سيباستيان على صندوق، أخرج من جيبه ورقة مطوية، وقرأ الكلمات الأولى التي أنجبتها يداه. قرأ من مسافة، مادا ذراعه، لأن بصره ضعيف ولا يضع نظارة.

«*أيها الأخوة في الكتيبة 8221!*...

1983: ماناغوا

التحدي

خرج ريش من الدخان من أفواه البراكين وسبطانات البنادق. ذهب الفلاح إلى الحرب على حمار، وثمة ببغاء على كتفه. لا بد أن الله كان رساما بدائيا حين حلم بهذه الأرض ذات الكلام اللطيف، التي حكمت عليها الولايات المتحدة، التي تدرب الكونترا وتدفع لهم، أن تقتل وتموت. من هندوراس، هاجمها السوموزيون، من كوستاريكا خانها إيدن باستورا.

والآن، جاء إلى هنا بابا روما. وبخ البابا أولئك الكهنة الذين يحبون نيكاراغوا أكثر من الفردوس، وبشكل مفاجئ أسكت أولئك الذين طلبوا منه أن يصلي من أجل الوطنيين الذين قتلوا. بعد خصام مع الحشد الكاثوليكي المتجمع في الساحة، خرج غاضبا من هذه الأرض التي حل بها الشيطان.

1983: مريدا

وضع الشعب الله على قدميه

وكان البشر يعرفون أن الله بحاجة إلى مساعدتهم لكي يقف في العالم. وكل عام، يولد المسيح الطفل في مريدا وفي مكان آخر من فنزويلا. منشدو الخورس يغنون على إيقاع الكمنجات، الماندولين، والغيتارات، بينما تلف العرابات في قطعة قماش كبيرة الطفل الذي يستلقي في المذود ـ مهمة حساسة، عمل جاد ـ ويأخذنه في نزهة.

العرابات يجعلن الطفل يسير في الشوارع. يتبعهن الملوك والرعاة، بينما يرمي الحشد القبل والأزهار. بعد ترحيب حميم كهذا في العالم، تضع العرابات المسيح في المذود حيث ينتظره يوسف ومريم. بعد ذلك، وباسم الجماعة، تجعله العرابات يقف للمرة الأولى ويتأكدن من انتصابه بين والديه. أخيرا رتلت صلاة المسبحة وتناول جميع الحاضرين قطعة من الكاتو من النوع القديم المصنوع من اثني عشر صفار بيض وبعض خمرة المستيلا الحلوة.

1983: ماناغوا

جريدة السينما

في حي للعمال بماناغوا انجبت امرأة دجاجة، حسب الجريدة النيكاراغوية اليومية La Presna مصادر مقربة من هيئة الكهنوت لم تنكر أن هذا الحدث الفائق للعادة يمكن أن يكون إشارة تدل على غضب الله. يمكن أن يكون سلوك البشر أمام البابا قد أدى إلى نفاد الصبر الإلهي، كما آمنت تلك المصادر.

في 1981 حدثت معجزتان في نيكاراغوا كان لـهما الصدى الكبير نفسه. قامت عذراء كوابا Cuapa بظهور مثير ذلك العام في حقول شونتالز حافية، ومتوجة بالنجوم، ومحاطة بهالة أعمت الشهود، قامت العذراء بتصريحات لحافظ كنيسة يدعى برناردو. عبرت أم الإله عن دعمها لسياسات الرئيس ريغان ضد الساندينيين الملحدين والشيوعيين.

بعد ذلك بوقت قصير، تعرقت عذراء الحمل وبكت بغزارة لعدة أيام في منزل بماناغوا. كبير الأساقفة، المونسينور أباندو، ظهر أمام مذبحه وحض المؤمنين لكي يصلوا من أجل صفح الأكثر طهارة. توقفت انبثاقات عذراء الحمل فقط حين اكتشفت الشرطة أن مالكي الصورة الجصية كانوا يغطسونها في الماء ويضعونها ليلا في براد بحيث تعرق حين تعرض في الحرارة المحلية المرتفعة، أما حشد الحجاج.

1984: الفاتيكان

مكتب محكمة التفتيش المقدس

يحمل الآن الاسم الأكثر وقارا وهو أبرشية عقيدة الإيمان. لم يعد يحرق المهرطقين وهم على قيد الحياة، رغم إنه يمكن أن يحب ذلك. وجع رأسه الرئيسي يأتي هذه الأيام من أميركا. باسم الأب المقدس، يستدعي المفتشون عالمي اللاهوت الأميركيين اللاتينيين ليوناردو بوف وجستابو غوتيريث، ويوبخهما الفاتيكان بشدة لقلة احترامهما لكنيسة الخوف.

كنيسة الخوف، المشروع الوافر المتعدد القوميات، المكرس للألم والموت، متلهف ليصلب أي طفل لنجار من السلالة التي تدور الآن في السواحل الأميركية لتثير الصيادين وتتحدى الإمبراطوريات.

1984: لندن

الذهب واللبان

اجتمع كبار المسؤولين من الولايات المتحدة، واليابان، وألمانيا الغربية، وإنكلترة، وفرنسا، وإيطاليا، وكندا في لانكاستر هاوس ليهنئوا بعضهم على تأسيس المنظمة التي تضمن حرية النقود. صفقت قوى العالم الرأسمالي السبع بشكل جماعي *لعمل البنك الدولي في البلدان النامية*.

لم تذكر التهنئات الجلادين والمعذبين والمفتشين والسجانين والمخبرين الذي هم موظفو البنك في تلك *البلدان النامية*.

سيمفونية دائرية للبلدان الفقيرة
ست حركات متعاقبة

وهكذا لكي يكون العمل مطيعاً ورخيصاً باستمرار، تحتاج البلدان الفقيرة إلى فيالق من الجلادين، والمعذبين، والمفتشين، والسجانين، والمخبرين.

ومن أجل تسليح وتغذية هذه الفيالق، تحتاج البلدان الفقيرة إلى قروض من البلدان الغنية.

ولدفع الفائدة المترتبة على هذه القروض، تحتاج البلدان الفقيرة إلى المزيد من القروض.

ولدفع الفوائد المترتبة على القروض التي اقترضت فوق القروض، تحتاج البلدان الفقيرة أن تزيد صادراتها.

ولكي تزيد صادراتها، المنتجات المحكوم عليها بأسعار تنهار باستمرار، تحتاج البلدان الفقيرة إلى خفض كلف الإنتاج.

ولكي تخفض كلفة الإنتاج، تحتاج البلدان الفقيرة، بشكل مستمر، إلى عمل مطيع ورخيص.

ولكي تجعل العمل مطيعاً ورخيصاً باستمرار، تحتاج البلدان الفقيرة إلى فيالق من الجلادين، والمعذبين، والمفتشين...

1984: واشنطن

1984

قررت وزارة الخارجية الأميركية أن تحذف كلمة *جريمة* من التقارير حول انتهاكات حقوق الإنسان في أميركا اللاتينية ومناطق أخرى. بدلاً من جريمة، يجب أن يقول المرء: *تجريد من الحياة غير قانوني واعتباطي*.

تجنبت السي آي إيه، لبعض الوقت، ذكر كلمة *جريمة* في نشراتها حول الإرهاب العملي. حين تقتل السي آي إيه عدواً أو ترتب قتله، فهي *تحيّده*.

تسمي وزارة الخارجية الأميركية أية قوى حربية تنزلها إلى الجنوب من حدودها *قوات حفظ السلام*، وتسمي القتلة الذين يقاتلون ليستعيدوا مصالحها في نيكاراغوا *مقاتلين من أجل الحرية*.

1984: واشنطن

جميعنا رهائن

لا تزال نيكاراغوا وبلدان أخرى وقحة تتصرف وكأنها غير مدركة أن التاريخ أُمِرَ بأن لا يتزحزح، تحت ألم التدمير الشامل للعالم.

حذّر الرئيس ريغان: «*لن نسمح*.»

كانت القاذفات النووية تحوم فوق السحاب. وبعيدا إلى الأعلى، الأقمار الصناعية العسكرية. تحت الأرض وتحت البحر، تكمن الصورايخ. ولا تزال الأرض تدور لأن القوى العظمى تسمح لها بذلك. إن قنبلة نيوترونية بحجم برتقالة تكفي لتفجير الكوكب برمته، وشحنة جيدة من الإشعاع تستطيع أن تحولها إلى صحراء تسكنها الصراصير.

قال الرئيس ريغان: ينصح القديس لوقا (31:14) بالمزيد من التمويل العسكري لمواجهة القبائل الشيوعية. لقد عسكر الاقتصاد، الأسلحة تطلق نقودا لشراء أسلحة لإطلاق النقود. يصنعون الأسلحة، والهمبرغر، والخوف. ليس هناك عمل أفضل من بيع الخوف. أعلن الرئيس، مبتهجا، عسكرة النجوم.

1984: ساو باولو

عشرون عاما بعد إعادة فتح البرازيل

ترك الرئيس الأخير للديكتاتورية العسكرية، الجنرال فيغيريدو Figueiredo، الحكومة للمدنيين. حين سألوه ما الذي سيفعله إذا كان عاملا يكسب الأجر الأدنى، أجاب الجنرال: «*سأطلق رصاصة على رأسي.*»

عانت البرازيل من رخاء مجاعة. بين البلدان التي تبيع الأغذية للعالم، تقع في المرتبة الرابعة، ومن بين البلدان التي تعاني من الجوع في العالم، تقع في المرتبة الثالثة. والآن تصدر البرازيل الأسلحة والسيارات، بالإضافة إلى البن، وتنتج من الفولاذ أكثر من فرنسا، لكن البرازيليين هم أقصر وأقل وزنا مما كانوا عليه منذ عشرين عاما.

ملايين من الأطفال المشردين يتجولون في شوارع مدن مثل ساو باولو، لكي يصطادوا الطعام. تتحول الأبنية إلى حصون، البوابون إلى حرس مسلحين. كل مواطن هو إما مهاجم أو معتدى عليه.

1984: غواتيمالا سيتي

ثلاثون عاما بعد إعادة فتح غواتيمالا

بنك الجيش هو الأهم في البلاد بعد بنك أميركا. يأخذ الجنرالات أدوارهم في السلطة، مطيحين ببعضهم، محولين الديكتاتورية إلى ديكتاتورية، لكن الجميع يطبقون سياسة الاستيلاء على أرض الهنود المذنبين بسكن مناطق غنية بالنفط، النيكل، وكل ما له قيمة.

لم تعد هذه أيام اليونايتد فروت، وإنما شركة كيتي أويل، تكساكو، وشركة النيكل الدولية. أباد الجنرالات كثيرا من الجماعات الهندية بالجملة وطردوا كثيرين من أراضيهم. حشود من الهنود الجائعين، المجردين من كل شيء، تتجول في الجبال. جاؤوا من الرعب، لكنهم ليسوا ذاهبين إليه. يسيرون ببطء، يقودهم اليقين القديم بأنه، يوما ما، سيعاقب الجشع والغرور. هذا ما أكده بشر الذرة القدماء لأطفال الذرة في القصص التي يروونها لهم حين يخيم الليل.

1984: ريو دي جانيرو

الحظوظ العاثرة للذاكرة الجمعية في أميركا اللاتينية

قفز المحاسب العام خواو ديفد دوس سانتوس من الفرح حين نجح في جمع حساباته الكثيرة المتأخرة. دفعوا له بشكل لطيف، لكن، شيئا ما. بسبب غياب التمويل، دفع له مركز لأبحاث العلوم الإنسانية مكتبته المؤلفة من تسعة آلاف كتاب وأكثر من خمسة آلاف مجلة ونشرة مكرسة للتاريخ البرازيلي المعاصر. احتوت على مادة قيمة جدا عن الهيئات الفلاحية في الشمال الشرقي وعن إدارة خيتوليو بارغاس Getulio Vargas، من بين موضوعات أخرى.

ثم عرض المحاسب دوس سانتوس المكتبة للبيع. عرضها على المنظمات الثقافية، والمؤسسات التاريخية، ووزارات مختلفة. حاول مع الجامعات، الحكومية والخاصة، واحدة بعد أخرى. لم يشتر أحد. ترك المكتبة كدين لدى إحدى الجامعات لمدة بضعة أشهر، إلى أن بدأوا يطلبون أجرة. ثم حاول مع مواطنين. لم يظهر أحد أدنى اهتمام. تاريخ الأمة لغز، كذبة أو تثاؤب.

شعر المحاسب التعيس دوس سانتوس براحة كبيرة حين نجح أخيرا في بيع مكتبته إلى معمل الورق تيخوكا، الذي حول جميع الكتب، والمجلات، والنشرات إلى مناديل ورقية.

1984: مكسيكو سيتي

ضد النسيان

ضد النسيان، الوحيد الذي يقتل بشكل فعلي، كتب كارلوس كويخانو ما كتبه. هذا المتذمر ومسبب المشكلات ولد في مونتيفيديو مع ولادة القرن، ومات في المنفى، فيما كانت ديكتاتورية الأوروغواي تسقط. مات وهو يعمل ليحضر طبعة مكسيكية جديدة من مجلته مارشا.

احتفى كويخانو بالتناقضات. ما كان هرطقة بالنسبة للآخرين، كان علامة حياة بالنسبة إليه. شجب الإمبريالية، مذلة الأمم والجموع، وأعلن أنه مقدر على أميركا اللاتينية أن تخلق اشتراكية جديرة بآمال أنبيائها.

1984: مكسيكو سيتي

انبعاث الأحلام

يقوم المكسيكيون بعادة أكل الموت، والذي هو عبارة عن هيكل عظمي من السكر أو الشوكولاتة يقطر منه الكاراميل الملون. بالإضافة إلى أكله، فهم يغنونه، ويرقصونه، وينامونه. أحيانا، لكي

يسخروا من السلطة والنقود، يلبس الناس الموت فراكا ونظارة أحادية، شارات كتفية وأوسمة، لكنهم يفضلونه عاريا، زكي الرائحة، ثملا قليلا، رفيقهم في النزهات الاحتفالية.

يجب أن يدعى يوم الموت هذا يوم الأحياء، رغم أنه، لدى التأمل، نفسه، لأن كل ما يأتي يذهب وكل ما يذهب يأتي، وفي التحليل الأخير بداية كل ما يبدأ هي نهاية ما ينتهي.

«*جدي صغير لأنه ولد بعدي*»، قال طفل يعرف ما يتحدث عنه.

1984: إستيلي

الإيمان

يشرفن على ولادة الطفل. مهنتهن منح الحياة والضوء. بأيد متمرنة يقومن الطفل إذا خرج بشكل خاطئ ويمنحن الأم القوة والطمأنينة.

اليوم، قابلات قرى إستيلي والجبال القريبة من حدود نيكاراغوا يقمن حفلة ليحتفلن بشيء يستحق الفرح حقا: طول عام لم يمت أحد من أطفال هذه المنطقة من مرض الكزاز. لم تعد القابلات يقطعن حبل السرة بمنجل، أو يحرقنه بالشمع أو يلففنه دون مطهر للجراثيم، وتحقن النساء الحبالى من أجل حماية الطفل الذي يعيش في الداخل. والآن لا أحد هنا يصدق أن الحقن هي خمرة ساحرات روسيات هدفها تحويل المسيحيين إلى شيوعيين، ولا أحد تقريبا يصدق، أن طفلا حديث الولادة يمكن أن يموت من النظرة الثابتة لرجل سكير أو امرأة حائض.

هذا الإقليم، منطقة الحرب، عانى من انتهاكات عديدة قام بها الغزاة.

«*هنا، نحن في فم التمساح.*»

أمهات كثيرات يذهبن إلى القتال. اللواتي يبقين يشركن أطفالا آخرين في حليب صدورهن.

1984: هافانا

ميغيل في التاسعة والسبعين

منذ فجر القرن، خاض هذا الرجل في الجحيم ومات عدة مرات. الآن، من المنفى، لا يزال يرافق، بقوة ونشاط، شعبه في حربه.

دائما يجده ضوء الفجر مستيقظا، حليقا ومتعاونا. يستطيع فقط أن يتابع دورانه بسهولة في باب الذاكرة الدائر، لكنه لا يعرف كيف يكون أصما حين تناديه أصوات هذه الأزمنة الجديدة والطرق التي لم يرتدها بعد.

وهكذا في التاسعة والسبعين من عمره كل يوم هو ولادة لميغيل مارمول، المعلم القديم لفن الولادة المتواصلة.

1984: باريس

الأصداء تذهب للبحث عن صوت

فيما كان يكتب كلمات أحبت البشر، كان خوليو كورتاثار يقوم برحلته الخاصة، وهي رحلة إلى الوراء في نفق الزمن. كان يسافر من النهاية إلى البداية، من الإحباط إلى الحماسة، من اللامبالاة إلى الهيام، من العزلة إلى التضامن. وتقريبا في سن السبعين أصبح طفل جميع العصور.

كطير حلق باتجاه البيضة، مضى كورتاثار إلى الأمام بذهابه إلى الوراء، سنة بعد سنة، يوما بعد يوم، نحو عناق العشاق الذين يمارسون الحب الذي يخلقهم. والآن يموت، الآن يدخل التراب، كرجل، فيما يدخل امرأة، يعود إلى المكان الذي جاء منه.

1984: بونتا سانتا إلينا

العناق الأبدي

اكتشفا حديثا في الأرض الخراب التي كانت مرة شاطئ ثومبا في الإكوادور. وها هما الآن، في ضوء الشمس الساطع، أمام كل من يريد أن يشاهد: رجل وامرأة يستلقيان متعانقين، كعاشقين نائمين، من الأبدية.

بعد أن نقب في مقبرة هندية عثر عالم آثار على هيكلين عظميين مقيدين إلى بعضهما بالحب. منذ ثمانية آلاف عام ارتكب عاشقا ثومبا العمل غير الوقور وماتا دون أن ينفصلا، وكل من يقترب يستطيع أن يرى أنهما لا يأبهان بالموت.

جمالهما الرائع مدهش، آخذين بعين الاعتبار أنهما عظام بشعة في صحراء بشعة كهذه، جافة ورمادية، وأكثر إدهاشا وقارهما. هذان العاشقان، اللذان ينامان في الريح، يبدوان وكأنهما لا يفهمان أن فيهما من السر والعظمة أكثر من أهرامات تيوتيهواكان أو ملاذ ماتشو بيكتشو Machu Picchu أو شلالات إغواثو.

1984: جماعة بيوليتا بارا

الاسم المسروق

غيرت ديكتاتورية الجنرال بينوشيه أسماء عشرين جماعة فقيرة حتى العظم، تعيش في منازل من الصفيح أو الكرتون، على حواف سانتياغو دي تشيلي. في أثناء إعادة التعميد، حصلت جماعة بيوليتا بارا على اسم بطل عسكري ما. لكن السكان رفضوا حمل الاسم الذي لم يختاروه. اسمهم بيوليتا بارا أو لا شيء.

منذ وهلة قرروا في اجتماع عام أن يسموا أنفسهم باسم مغنية الفلاحين ذات الصوت الخشن، التي عرفت في أغانيها النضالية كيف تحتفل بألغاز تشيلي.

كانت بيوليتا مذنبة ووقحة وذلك بسبب مداعبة أوتار الغيتار والأحاديث الطويلة والحب، وبكل رقصها وتهريجها واصلت خلق الأزمات. *وبفضل الحياة، التي منحتها الكثير*، غنت أغنيتها الأخيرة، وأرسلتها علاقة حب عاصفة إلى القبر.

1984: تيبك

الاسم المكتشف

في جبال نياريت في المكسيك، كانت هناك جماعة لم تمتلك اسما. طول قرون كانت هذه الجماعة من هنود الويتشول Huichol تبحث عن اسم. ولقد عثر كارلوس غونزاليث على واحد بمحض الصدفة.

جاء هذا الهندي إلى مدينة تيبك ليشتري بذارا ويزور أقرباءه. وفيما هو يعبر كومة قمامة التقط كتابا مرميا فيها. كان كارلوس قد تعلم منذ سنوات أن يقرأ باللغة القشتالية، ولا يزال يستطيع أن يدبر أمره في ذلك. جالسا في ظل سقف ناتئ، بدأ يفك شفرة الصفحات. تحدث الكتاب عن بلد باسم غريب، لم يستطع كارلوس أن يحدده لكنه كان بعيدا عن المكسيك، وروى قصة حدثت مؤخرا.

في طريق عودته، وهو يعبر الجبل، تابع كارلوس القراءة. لم يستطع أن يبعد نفسه عن تلك القصة المليئة بالرعب والبسالة. حين وصل كارلوس إلى القرية، أعلن بابتهاج: «*أخيرا أصبح لنا اسم!*»

وقرأ الكتاب للجميع بصوت مرتفع. واستغرق في هذه القراءة المتعثرة أسبوعا. فيما بعد، صوتت العائلات التي يبلغ عددها مائة وخمسون. جميعهم رقصوا وغنوا وأدوا العمادة.

وهكذا أصبح لهم اسم في النهاية. حملت هذه الجماعة اسم رجل جدير بذلك لم يشك في لحظة الخيار بين الخيانة والموت.

«*أنا ذاهب إلى سلفادور الليندي*،» يقول عابرو السبيل الآن.

1984: بلوفيلدز

طيران

جذر عميق، جذع مهيب، ورق كثيف: من مركز العالم تبزغ شجرة بلا شوك، إحدى تلك الأشجار التي تعرف كيف تمنح نفسها للطيور. حول الشجرة تدور أزواج راقصة، متلاصقة البطون، تتموج على إيقاع موسيقى توقظ الأحجار وتشعل الجليد. وفيما هم يرقصون، يلبسون الشجرة ويعرونها من شرائط متدفقة من مختلف الألوان. على هذا الساحل النيكاراغوي المعذب، الذي يغزى ويقصف باستمرار، يحتفل بمهرجان ميبولي كما جرت العادة.

تعرف شجرة الحياة أنه مهما حدث، لن تتوقف الموسيقى الدافئة التي تدور حولها مطلقا. مهما أتى من موت، مهما تدفق من دم، سترقص الموسيقى الرجال والنساء طالما أن الهواء يتنفسهم والأرض تحرثهم وتحبهم.

1986: مونتيفيديو

رسالة

سيدريك بلفريج[*]
ص.ب. 630
كويرناباكا، موريلوس
مكسيكو

عزيزي سيدريك:

انتهى الجزء الثالث من ذاكرة النار. وكما ترى، فهو ينتهي في 1984. ولا أعرف لماذا لم ينته قبل ذلك أو بعد ذلك. ربما لأن هذا كان آخر عام من منفاي، نهاية دورة، نهاية قرن، أو ربما لأنني أعرف، أنا والكتاب، أن الصفحة الأخيرة هي الأولى كذلك.

سامحني إن كان طويلا فقد كانت كتابته متعة لدي، والآن، أشعر، أكثر من قبل، بالفخر لأنني ولدت في أميركا، في هذا البراز، في هذه الأعجوبة، في أثناء قرن الريح.

ما من مزيد الآن، لأنني لا أريد أن أدفن المقدس في الهذر.

أبرازوث
إدواردو

نهاية الجزء الثالث من ذاكرة النار

---

[*] - روائي إنكليزي الأصل نفي من أميركا في الفترة المكارثية له العديد من الروايات من بينها: محكمة التفتيش الأميركية. وهو مترجم أعمال إدواردو كاليانو إلى الإنكليزية.



ذاكرة النار

في قرن الريح الجزء الثالث والأخير من ثلاثية ذاكرة النار يخترق كاليانو القرن التاسع عشر وصولاً إلى ثمانينيات القرن العشرين، وكالجزأين الآخرين يقدم كاليانو عملاً إبداعياً مبنياً على توثيق دقيق لكنه يتحرك بحرية كاملة.

لا يعرف المؤلف إلى أي شكل أدبي ينتمي الكتاب: إلى السرد، المقالة، القصيدة الملحمية، التأريخ، الشهادة ربما ينتمي إلى جميع هذه الأشكال أو لا ينتمي إلى أي منها. يروي المؤلف الوقائع التي صنعت القرن العشرين ويكشف معنى العالم الجديد كما كان والعالم كما هو الآن. يروي المؤلف ما حدث، تاريخ أميركا، وقبل كل شيء، تاريخ أميركا اللاتينية، وحاول أن يفعل ذلك بطريقة تجعل القارئ يشعر أن ما حدث يحدث مرة أخرى حين يرويه.

دار الطليعة الجديدة

دمشق. ص.ب: 34494 تلفاكس: 2311378